

الفكر السياسي

مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق
تعنى بنشر المواد الفكرية والسياسية والاجتماعية والوثائق المتصلة بها

السنة الواحدة والعشرون / العدد / 76 / الربع الرابع لعام 2020م

الهدير المسؤول أ. مالك صقور

رئيس اتحاد الكتاب العرب

رئيس التحرير

د. جابر سلمان

مدير التحرير

أ. الأرقم الزعبي

أمين التحرير

أ. نبيل نوفل

هيئة التحرير

د. أكرم الشالي د. تركي صقور

د. خلف الجراد د. اسكندر لوققا

أ. عبد الأحمد سفر د. عبد اللطيف عمران

د. مصطفى الكفري

التصوير والإخراج

وفاء الساطي

الاشتراك السنوي

- أعضاء اتحاد الكتاب العرب 400 ل.س.
- في داخل القطر، للأفراد 600 ل.س.
- في داخل القطر، للدوائر الرسمية 1600 ل.س.
- الأقطار العربية، للأفراد 3000 ل.س. أو 200 دولار
- الأقطار العربية، للدوائر الرسمية 10,000 ل.س. أو 250 دولاراً أمريكياً.
- في خارج الوطن العربي، للأفراد 10000 ل.س. أو 300 دولار أمريكي.
- في خارج الوطن العربي للدوائر الرسمية 15000 ل.س. أو 350 دولاراً أمريكياً

دمشق - أوتستراد المزة - ص.ب: 3230

هـ - 6117240 - 6117242

6117243 فاكس: 6117244

البريد الإلكتروني لاتحاد الكتاب العرب:

Email: alfikralsiyasi@mail.com

Website: <http://www.awu.sy>

شروط النشر في مجلة الفكر السياسي

- 1 - أن تتسم الأبحاث والدراسات بالجدة والمنهجية وسلامة اللغة.
- 2 - أن تكون ذات طابع فكري سياسي.
- 3 - ألا يزيد حجم البحث عن ثمانية آلاف كلمة، وتستثنى من ذلك الملفات.
- 4 - أن تُرفق بالبحث سيرة وجيزة تتضمن الاسم الثلاثي للباحث.
- 5 - أن يُرسل البحث مرفقاً بقرص مدمج (CD) أو عن طريق البريد الإلكتروني للاتحاد أو عن طريق موقع الاتحاد الإلكتروني.
- 6- أن توضع حواشي البحث ومصادره ومراجعته في نهاية المادة.
- 7 - أن توجه جميع المراسلات باسم رئاسة التحرير.
- 8 - ألا تُردّ المواد التي تتلقاها المجلة إلى أصحابها سواء نُشرت أم لم تُنشر.
- 9 - لا تقبل البحوث والدراسات غير الموثقة علمياً.

التوزيع في الجمهورية العربية السورية:

المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات
فكس: 2122532 / هاتف: 2127797 / ص.ب: 12035

ملاحظة: الأبحاث والمقالات المنشورة في المجلة تعبر عن آراء أصحابها،
وترتيبها يخضع لامتحانات فنية.

في هذا العدد:

الافتتاحية

مجلة الفكر السياسي ومسيرة خمسة أعوام د. جابر إبراهيم سلمان 5

الدراسات

- 11 - الصين العملاق القادم من الشرق نبيل فوزات نوفل 11
- 27 - سورية والصين ضرورة الحاضر أم رهان المستقبل؟ د. شاهر اسماعيل الشاهر 27
- 45 - تقديرات إسرائيلية حول مستجدات العلاقة بين إيران والصين إبراهيم عبد الكريم 45
- 77 - توصيف النظام العربي الراهن في علاقته بالفكرين القومي والقطري د. رحيم هادي الشمخي 77
- 101 - أمريكا تصنع داعش.. وتزعم أنها تجاربه د. عيسى الشماس 101
- 111 - كارل ياسرز فيلسوف التواؤم والخيانة لقيم الفلسفة صالح سميا 111

ترجمات

- تأثير الانتخابات الأمريكية على الاقتصاد والأسواق المالية بقلم: مورتن لوند وأندرس سفيندسن
- 127 تر: د. مصطفى العبد الله الكفري 127

قراءات

- قراءة في جدليات فكرية في المشهد الثقافي العربي - محسن علي السهيمي د. صلاح يونس 137

نافذة أخيرة

- جدلية العلاقة بين الأدب والسياسة الأرقم الزعبي 157

**من أقوال السيد الرئيس
بشار الأسد
رئيس الجمهورية العربية السورية**

« ... نبدأ الحوار من أجل أن نصل إلى ضوابط (...)
والخطط الناجحة تنطلق من الرؤى الاستراتيجية السليمة التي لا يمكن
الوصول إليها دون حوار بنّاء داخل المؤسسات وخارجها.. »

من كلمة سيادته أمام مجلس الشعب في الدور
التشريعي الثالث - الأربعاء في
2020/8/11م

مجلة الفكر السياسي وهسيرة خمس أعمار منصرمة

د. جابر إبراهيم سلمان

تنتهي الدورة التاسعة لمجلس اتحاد الكتاب العرب في سورية بعد رحلة خمسة أعوام من الجد والمثابرة والعمل الشاق والمضني، وما تميّزت به هذه الفترة الزمنية من مسيرة الاتحاد أنها كانت الأقسى في تاريخ سورية الحديث، حيث الحصار الذي طال مكونات الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في مختلف جوانبها.

وقد واكبت مجلة الفكر السياسي الفصلية الحدث طيلة السنوات الخمس، ونجحت - عبر كتابها والعاملين فيها من إداريين وأعضاء هيئة تحرير - في تتبّع ما جرى ويجري من وقائع وأحداث، وما تمخض عنها من نتائج، والعمل على تحليلها تحليلًا علميًا دقيقًا، وتقديم الرؤى والمقترحات لمواجهتها والحد من آثارها السلبية على المجتمع..

وما يُسجّل لمجلة الفكر السياسي التي تُعدّ واحدة من دوريات اتحاد الكتاب العرب الفصلية أنها - منذ نشأتها - حملت بُعدًا قوميًا ووطنياً نوعياً، ولاسيما في الأعوام الخمسة الأخيرة، دافعها تسليط الضوء على الحياة التي عاشها شعبنا وما رافق ذلك من مستجدات جراء الحرب الكونية التي شاركت في خوضها ضد سورية أكثر من مئة دولة في العالم، بتخطيط من مراكز صنع القرار في الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا الغربية، وتنفيذ أنظمة رجعية عربية وإقليمية وفصائل إرهابية تم استقدامها من شتى أصقاع الأرض، لهدم حضارات شعب المنطقة، والعودة به إلى ما قبل العصر الحجري؛ كي يتسنى للقوى المهيمنة على مراكز صنع القرار السيطرة على مقدرات شعبنا، ونهب خيراته، والحيلولة دون نهوضه والانطلاق إلى مواكبة ركب الحضارة البشرية..

وقد عملت المجلة على أداء رسالتها الوطنية الفكرية والسياسية، وغالباً ما كانت تُحقق سبباً في رصد الحدث وفي تحليله بأقلام كتّاب وباحثين من ذوي الخبرة والكفاءة العلمية ممن احترفوا الكتابة، وكانوا أمناء في صياغة أفكارهم ونقلها إلى قرائها بلغةٍ عصريّةٍ ميسرةٍ خاليةٍ من التعقيد أو التكلّف أو الابتذال..

وما يُسجلُ للمجلة أيضاً - في خلال تلك الفترة - ذلك التعاون البناء والمثمر بين مجلس إدارتها وهيئة تحريرها، والذي كان له الفضل في ترجمة المشروع الثقافي للاتحاد في دورته التاسعة الذي تبني شعار "ثقافة التوير" في مواجهة "ثقافة التكفير"، وكان ذلك خيراً وسيلةً لتحسين منظومة القيم الوطنية والقومية، ولتعميق الانتماء للوطن وللأمة..

وانطلاقاً من الشعار المذكور الذي اعتمده الدورة التاسعة برنامج عملٍ لمشروعها الثقافي تضافرت جهود الكتّاب والمثقفين للإضاءة على أبرز مفاصل المشهد السياسي المرتبطة بقضايا الوطن الكبرى، وكان لابد من العودة إلى التاريخ: قديمه وحديثه، فانبرت أقلامهم للتذكير بـ "الأسس التراثية للتوير العربي" التي جاءت ردّاً على القوى الظلامية الإقصائية في العصور القديمة، مع الإشارة إلى أنّ الصراع بين الحضارات قديمٌ تمتدُّ جذوره إلى تاريخ نشوء تلك الحضارات، وعقدوا مقارناتٍ بين ما جرى بالأمس البعيد منه والقريب وما يجري اليوم من صراعاتٍ فكرية: سياسية وثقافية واقتصادية، فكان ثمة من تحدّث عن "تركيا بين الطورانية (بالأمس) والعثمانية الجديدة (اليوم)"، وعن "العثمانية الجديدة ومشروعها الاستعماري في المنطقة"، وعن "تناغمها مع الخط الصهيوني المتطرف".

واستكمالاً لدائرة التوير الثقافي؛ كي تصبح أكثر قدرةً على مواجهة ثقافة الإقصاء التي اتخذتها منها التكفيريون الظلاميون أداة قمعٍ وتغييبٍ لمعارف العصر وعلومه عن عقول الناشئة من أبناء الأمة أسهب الكتّاب في الحديث عن "المشروع القومي العربي في مواجهة المشروع الصهيوني"، وعن "العروبة وموقعها الحضاري"، وعن "مفهومها... في ظل الحرب على سورية".

ومن الهمّ القومي إلى الهمّ الوطني الذي أبدع فيه الزملاء الكُتّاب عندما زوّدوا المجلّة بدراساتٍ فكريةٍ حملت من الحسّ الوطني ما حرّك الساكن لدى القارئ، ونبّهه إلى خطورة ما يتعرّض له الوطن من عدوانٍ غاشمٍ يستهدف وجوده ومقوّمات الحياة الحرّة الكريمة فيه..

وكان من أبرز الموضوعات التي كُتبت في هذا المجال:

- دور المؤسسات وأهمية الوحدة الوطنية في مواجهة الفكر التكفيري الإرهابي.

- بناء الدولة الوطنية السورية، والإصلاح الإداري بين الوطن والإنسان.

- الحرب الكونية الظالمة على سورية وخسائر الاقتصاد السوري.

- الهوية الوطنية السورية ودور الإعلام الوطني في مواجهة التطرف.

وفي القضايا الفكرية تحدّث الكُتّاب عن "الداعشية بين الوهابية والسلفية"، و"الثقافة بين الانتماء والتغريب"، وعن "اللغة والثقافة ودور المثقف في تطويعهما لخدمة قضايا الوطن والأمة".

كما تحدّثوا عن "الإرهاب وارتداداته على مصدّريه وداعميّه"، ووجدوا في "التفكير بداية التنوير".

فضلاً عن عناوين أخرى لها علاقة بالهوية الوطنية والقرار المستقل، كما لها علاقة بالمقاومة نهجاً وسلوكاً، ورسالة الأديب بين الأمس واليوم، وتحديات ثقافة التنوير والحرية الثقافية.

ولم يُغفلوا الحديث عن "الإرهاب بوصفه صناعةً غربيةً صهيونيةً"، وكذلك عن "التضليل الإعلامي ودوره في تزوير الحقائق وتغييبها"، كما لم يُغفلوا الإشارة إلى "الاستثمار الثقافي ودوره في بناء الإنسان"، وإلى "اللغة ودورها في تحصين الثقافة الوطنية".. إلى غير ذلك من الموضوعات: السياسية والاجتماعية العابرة لحدود الإقصاء الفكري الظلامي التكفيري..

وقد حملت المجلّة على صفحاتها ملفات غاية في الأهمية، فضلاً عن ندوتين فكريتين: ففي باب الملفات كان هناك خمسة ملفات نُشرت على صفحات المجلّة، هي:

- 1 - ملف عن القضية الفلسطينية من النكبة عام 1948م وحتى عام 2016م.
 - 2 - ملف عن الفكر القومي العربي.
 - 3 - ملف عن العلاقات العربية - الروسية: الجذور والآفاق.
 - 4 - ملف عن الجولان السوري المحتل.
 - 5 - ملف عن الحرب الاقتصادية على سورية.
- أما في الندوات الفكرية فقد تم تنفيذ ندوتين فكريتين:

عقدت الأولى تحت عنوان: الأحزاب والمنظمات والنقابات ودورها في المجتمع العربي السوري، بينما عقدت الندوة الثانية تحت عنوان: "القمم الاقتصادية العربية".

وقد صدر مع العدد رقم /63/ للعام 2017م كتابٌ ملحق بعنوان دور الولايات المتحدة في صناعة "ثورات" الشارع العربي، تأليف أحمد بن سعادة (وهو كندي من أصل جزائري)، وترجمة: وثام خلف الجراد.

وهكذا جاءت المدونة الفكرية للمجلة غنية بمادتها، دقيقة بمعطياتها، شاملة بعناوينها في خلال السنوات الخمس المنصرمة، وكانت ترجمة صادقة لمشروع الاتحاد الثقافي الذي اتخذ من "ثقافة التوير" شعاراً له، وما أشرنا إليه هو غيضٌ من فيض نشاطات الاتحاد وبرامجه الثقافية التي شاركت بمهمة إنجازها جمعياتُ الاتحاد وفروعه في المحافظات.

الدراسات

الصين العملاق القادم من الشرق؟ (طريق الحرير) و(الكورونا) بداية نظام عالمي جديد

نبيل فوزات نوفل*

مقدمة:

تعدُّ لفظة حضارة مثيرة للجدل وقابلة للتأويل واستخدامها يستحضر قيم (سلبية أو إيجابية) كالتفوق والإنسانية والرفعة، ويذهب بعضهم إلى اعتبار الحضارة أسلوباً معيشياً يعتاد عليه الفرد من تفاصيل صغيرة إلى تفاصيل أكبر يعيشها في مجتمعه، ولا يقصد من هذا استخدامه لأحداث وسائل المعيشة، بل تعامله هو كإنسان مع الأشياء المادية والمعنوية التي تدور حوله وشعوره الإنساني تجاهها. والحضارة كلمة مشتقة من الفعل حضر، وهي نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافى، وتتألف من عناصر أربعة: الموارد الاقتصادية، والنظم السياسية، والتقاليد الخلقية، ومتابعة العلوم والفنون؛ وهي تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق، لأنه إذا ما أمن الإنسان من الخوف تحررت في نفسه دوافع التطلع وعوامل الإبداع والإنشاء، وبعدئذ لا تنفك الحوافز الطبيعية تستهضه للمضي في طريقه إلى فهم الحياة وازدهارها، وباختصار الحضارة هي الرقي والازدهار في جميع الميادين والمجالات.

ترتكز الحضارة على البحث العلمي، والفن التشكيلي بالدرجة الأولى، فالجانب العلمي يتمثل في الابتكارات التكنولوجية وعلم الاجتماع، أمّا الفنّ التشكيلي فيتمثل في الفنون المعمارية والمنحوتات وبعض الفنون التي تساهم في الرقي، فالعلم والعلم عنصران متكاملان يقودان إلى حضارة (1).

* كاتب وباحث، عضو اتحاد الكتاب العرب - أمين تحرير مجلة الفكر السياسي.

ومن الممكن تعريف الحضارة على أنها الفنون والتقاليد والميراث الثقافي والتاريخي، ومقدار التقدم العلمي والتقني الذي تمتع به شعب معين في حقبة من التاريخ. وبالتالي الحضارة بمفهوم شامل تعني كل ما يميز أمة عن أمة من حيث العادات والتقاليد وأسلوب المعيشة والملابس والتمسك بالقيم الدينية والأخلاقية، ومقدرة الإنسان في كل حضارة على الإبداع في الفنون والآداب والعلوم.

وللتعرف على أي حضارة لأي شعب لا بد من دراسة طرق العيش والظروف الطبيعية والوضع الاقتصادي، والعلاقات الاجتماعية بين أفراد المجتمع وأنظمة الحكم السائدة فيه، والإنجازات العلمية والثقافية والعمرانية.

أشار الفلاسفة والمؤرخون وعلماء الآثار القديمة إلى أسباب كثيرة لقيام الحضارات وانهارها، وفي رأي/ هيجل/ تمر الحضارات بثلاث مراحل:
1 - حُكْم الفرد 2 - حكم طبقة من المجتمع 3 - حكم كل الناس، وكان **الفيلسوف أوزوالد سبنجلر** يعتقد أن الحضارات مثلها مثل الكائنات الحية تولد وتتضج وتزدهر ثم تموت، وفي كتابه انحدار الغرب (1918 - 1922م) ذكر أن الحضارة الغربية تموت، وسوف تحل محلها حضارة آسيوية جديدة، أما البريطاني **أرنولد توينبي** (1934 - 1961) في نظريته **التحدي والاستجابة** يعتقد أن الحضارات تقوم فقط حيث تتحدى البيئة الناس، وحينما يكون الناس على استعداد للاستجابة للتحدي، وأن الحضارات تنهار حينما يفقد الناس قدرتهم على الابتكار.

وقد شهدت البشرية ظهور حضارات كثيرة واندثار معظمها، وما تشهده المجتمعات البشرية اليوم من تحديات خطيرة - كظهور الأوبئة، والأزمات الاقتصادية، والتطورات العلمية - ستضع الحضارات القائمة على المحك، من خلال طريقة التصدي لهذه الأخطار، وامتلاكها الروح الإنسانية والتعاون أو الجشع والأنانية، وهذا ما تعاني منه بعض الحضارات الحالية، فهل تصمد وتتصمر؟ وهل التي تستند إلى قوتها العسكرية والمادية ستتنصر أو تلك التي تملك عناصر الحضارة الأساسية وإرادة التحدي؟ هذا ما سنحاول توضيحه من خلال الحديث عن الحضارة الصينية.

قوة الحضارة الصينية:

الحضارة الصينية عريقة تستند إلى / الكونفوشيوسية/ التي أرسى دعائمها / كونفوشيوس الذي عاش/ 551ق.م - 479ق.م/، وهو أول من أفلح في إقامة مذهب يتضمن كل التقاليد الصينية عن السلوك الاجتماعي والأخلاقي، وفلسفته قائمة على القيم الأخلاقية الشخصية، وأكد ضرورة أن تكون هناك حكومة تخدم الشعب تطبيقاً لمثل أخلاقية عليا، ولقد كانت تعاليمه وفلسفته ذات تأثير عميق في الفكر والحياة الصينية والكورية واليابانية والتايلوانية والفيتنامية، حتى أطلقوا عليه في الصين لقب المعلم أو الحكيم (ويكيبيديا).

ويمكن القول: إن الكونفوشيوسية (بالصينية 儒家) هي مجموعة من المعتقدات والمبادئ في الفلسفة الصينية، طُورت عن طريق تعاليم كونفوشيوس (孔夫子)، وأفكاره تتمحور في مجملها حول الأخلاق والآداب، وطريقة إدارة الحكم والعلاقات الاجتماعية.

أثرت الكونفوشيوسية في منهج حياة الصينيين، وحددت لهم أنماط الحياة وسُلّم القيم الاجتماعية، كما وفرت المبادئ الأساسية التي قامت عليها النظريات والمؤسسات السياسية في الصين. انتشرت هذه المدرسة في كوريا ثم اليابان وفيتنام، وأصبحت ركيزة ثابتة في ثقافة شعوب شرق آسيا، وعندما تم إدخالها إلى المجتمعات الغربية، جلبت الكونفوشيوسية انتباه العديد من الفلاسفة الغربيين.

تدور الكونفوشيوسية حول السعي إلى وحدة الذات الفردية وإله السماء (تيان)، أو مثلما يُقال: حول العلاقة بين الإنسانية والسماء، توفّق الكونفوشيوسية بين كل من القطبين: الداخلي والخارجي للتهذيب الروحي، أي تهذيب الذات التي جُمعت في المثل العليا، وهي تتسم بتشجيع الفضائل، وقد نادى كونفوشيوس بمبدأ سيادة الشعب، فهو يقول: إن الأمة هي صاحبة السيادة ومصدر السلطة، ورغم اعترافه بالحق الإلهي للأباطرة لم يرتب على هذه الفكرة نتائجها الطبيعية، إذ حارب السلطة المطلقة للأباطرة، وعدّ سلطة الملك غير مشروعة ما لم تقترن برضى الشعب، وحبّد الثورة على الحاكم الذي يستبد بالسلطة ويسيء استخدامها. وتميزت فلسفته باتجاهات اشتراكية واضحة،

وأكد أن مهام الحكومة هي توفير الحاجات الأساسية للشعب، وطالب بالعدالة الاجتماعية وإعانة المرضى والعاجزين في العمل، ورأى أن النظامين السياسي والاجتماعي يشكلان وحدة متكاملة.

يرى كونفوشيوس أن الدولة التي تمتلك موسيقى وشعائر خاصة بها، يتم اختيارها من بين الأعراف والتقاليد الموجودة، يمكن أن تنتج مواطنين سعداء يتمتعون بقدر كاف من الفضيلة، يجعل الدولة في غنى عن تشريع القوانين حتى تضمن حسن انضباطهم.

وتتمحور الفكرة العامة للأخلاقيات الكونفوشيوسية في طيبة القلب، وهي الفضيلة السامية التي تمثل أفضل ما في النفس البشرية، وإيثار الغير على النفس، وتطبيق القاعدة الذهبية "لا تفعل بالآخرين ما لا تحب أن يفعله الآخرون بك"، فضلاً عن الاستقامة واللباقة والتأدب.

دعا كونفوشيوس إلى حكومة أبوية (تسلطية) يقودها حاكم يحظى بالاحترام ومطاع بين رعيته، ورأى أنه ينبغي على الحاكم أن ينمي أخلاقه لتبلغ الكمال، حتى يكون مثلاً يحتذى به شعبه، وفي الميدان التربوي كانت لـ"كونفوشيوس" آراء تقدمية، حيث دعا إلى تعميم التعليم بين كل أبناء الشعب بغض النظر عن انتماءاتهم الطبقية (2).

وعندما قامت الثورة الاشتراكية الصينية بقيادة ماوتسيتونغ لم تتسلف معظم هذه القيم، وأخذت بعين الاهتمام هذه القيم والواقع الصيني، فأنتجت منطلقات فكرية وسياسية تتناسب وواقع الصين، واستمرت في التطور والتجدد، محافظة على جذرها الحقيقي، مستفيدة من كل التطورات العلمية في العالم (3).

ومن يقرأ تاريخ الصين، ويطلع على ماضيها وحاضرها، لا تعوزه الفطنة ليكتشف جملة من الحقائق أهمها:

1 - إذا كان ابن بطوطة - في رحلته إلى الصين في كتابه (تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) - قد رأى في الشعب الصيني أعظم الأمم وأكثرهم إحكاماً للصناعات وأشدهم إتقاناً فإن أهم سمات الشخصية الصينية اليوم هي التواضع وعدم المبالغة في إظهار التفوق، وإن الصينيين أصحاب حضارة

تقوم على العقل والإبداع والعمل، وتتجسد من خلال إيمانها بفكرة التجانس بين المختلفين التي تتمثل في أن كل شيء يختلف عن غيره، ولكن الأشياء المختلفة يُكمل بعضها بعضاً، إلى جانب فكرة "الاعتدال" التي تجعلها حضارة معتدلة متسامحة، وكذلك فكرة المحبة واحترام القيم الأخلاقية التي تساعد على التعايش السلمي بين الحضارات، وتعد الدعوة إلى كون الدنيا أسرة المثل الأعلى في هذه الحضارة التي لم تكن ديناً بل هي نظام للقيم العلمانية تميل إلى العقلانية والنفعية، حضارة تجعل من الصيني إنساناً يكره ظلم القوي للضعيف، وبالتالي هذه الحضارة لا يمكن أن تبادر إلى إثارة صراع (4).

2 - إن الصينيين حققوا نهضة ثقافية كبيرة من خلال تجاوز القومية الضيقة، والتمتع بصدر واسع، وإعادة بناء صين ثقافية، وهم في الوقت نفسه يرفضون الحضارة التي تسلخهم عن إنسانيتهم، وتبعدهم عن الحق، لذلك فهم يرفضون مقولة صدام الحضارات، ويعتبرونها مفهوماً خاطئاً، لأن الحضارة سلوك، وليست ابتكار أساليب القوة، وهي الحفاظ على القيم الإنسانية، فحيث يضطهد الإنسان فلا حضارة، وحيث يموت مهملاً وجائعاً فلا حضارة، فالذي يهمننا ونحترمه ونقدره هو قوة الحضارة وليس حضارة القوة (5).

ومن عوامل قوة الصين صفات وعادات المواطن الصيني وقيمه. إن العلماء الصينيين اتفقوا على الجمع بين السياسة والاقتصاد وبين السياسة الدولية وتاريخ الحضارات البشرية في أشياء بحوثهم، فسارت المناظرات منذ بداياتها على طريق حضاري يفيد الأوساط الفكرية الصينية التي تؤمن بحوار الحضارات وليس بصراع الحضارات، وهم يرون أن فكرة صدام الحضارات نابعة من العقلية المركزية الغربية، أو القيم الإمبريالية الضيقة، أو أنها آتية من الخوف من تحدي الحضارات غير الغربية على هيمنة الغرب وخاصة هيمنة الولايات المتحدة الأمريكية، لذلك لا يجوز النظر إلى الحضارات كأنها أحجار ثابتة لا تتغير ولا يحتك بعضها ببعض أبداً، وأن أفضل طريق لتجنب الصدام الحضاري هو زيادة التواصل الفاعل والمتكافئ بين الحضارات.

إن معظم العلماء الصينيين يعارضون مفهوم هنتونغ للحدثة، ويرون معيار الحدثة عنده غير كامل؛ لأنه يقتصر على النمو المادي السريع، بعيداً عن حدثة

المفاهيم والقيم والثقافة (6)، ويتفقون على أن المصالح الاقتصادية والصراع على السلطة السياسية هي العوامل الرئيسية المثيرة للصراعات الدولية.

3 - وعي القيادة الصينية لما يخطط للصين من قوى العولمة المتوحشة، إلى جانب الإيديولوجيا التي تدير عليها والتي تضع الإنسان في المرتبة الأولى وخاصة شعبها، فألى جانب النهضة العلمية والصناعية، بنت الإنسان المنضبط المسؤول عالي الانتماء للوطن، فكانت دولة شديدة الانضباط، واتبعت سياسة هادئة وموضوعية في التطور، فالانفتاح على العالم لم يتحقق بخطوة واحدة وإنما بالتدرج، وهو في كل الاتجاهات والمجالات، وعلى مختلف الصعد، وينطلق من إصلاح النظم الإدارية، وتطوير عقلية الموظفين، والأخذ بسياسة الحساب والثواب والعقاب، وإصلاح التشريعات الاقتصادية، وإصدار قوانين تُحدّد عمل الاستثمار الأجنبي وإصلاح هيكل الدولة بالاعتماد على (كوادر) من الخبراء والمتخصصين وأصحاب المواهب والقادرين على تنفيذ السياسة الجديدة بعقلية منفتحة، وإصلاح نظم الرقابة والمحاسبة، وتحديث الصناعة والزراعة والتقنية والتسليح، وتتخذ المحاكم الشعبية على مختلف المستويات في البلاد مكافحة الفساد والرشوة مهمة لدفع حركة مقاومة الفساد وتشجيع النزاهة والشرف والخدمة المباشرة للإصلاح والانفتاح والبناء الاقتصادي. وفي الوقت الذي تمسكت فيه بمبدأ المعاقبة الشديدة وفقاً للقانون، ركزت قواها في معاقبة جرائم ارتكبتها العاملون في الهيئات القيادية للحزب والحكومة والأجهزة الإدارية المنفذة للقوانين وأجهزة القضاء والهيئات الإدارية الاقتصادية، مثل جرائم الفساد والرشوة واختلاس الأموال العامة وتجاهل القانون لمنفعة الأقرباء وتحقيق المسحوبيات.

4 - امتلاك الصين لاقتصاد قوي، حيث تهتم الصين بالزراعة، وزيادة مساحة الغابات وتربية الماشية، وبناء منشآت الري في الأراضي المزروعة، والاهتمام بالصناعة، وزيادة المنتجات ذات العناصر التكنولوجية الكثيفة التي تحتاج إليها الأسواق. كما تعزز البناء الرئيس للدولة ومشروع الإسكان بشكل خاص، وارتفعت فوائد الاستثمار، وتطورت المواصلات والنقل تطوراً كبيراً، وتحسنت المنشآت الأساسية للسكك الحديدية والطيران المدني، وحافظت على استقرار الأسعار، واستفادت من الاستثمارات الأجنبية، وأحرزت السياحة تقدماً

كبيراً، كما زادت نفقات العلوم والتكنولوجيا، وأحرزت الأعمال العلمية والتكنولوجية نتائج جيدة، والأعمال الإبداعية التقنية تقدماً جديداً، حيث انتعشت سوق التقنيات بقوة وحيوية متزايدة، كما تطورت التربية والتعليم في مختلف المستويات تطوراً ملحوظاً، حيث فيها (1020) جامعة، وهناك التعليم الإجماعي حتى الصف التاسع. كما شهدت الصين تقدماً في قطاع الثقافة والصحة والرياضة، وازداد دخل أبناء الأرياف ازدياداً مطّرداً، وارتفع مستوى معيشتهم، وتطور الضمان الصحي، وتحسن الاهتمام بالبيئة.

5 - التطور الهائل الذي وصلت إليه الصين، وخاصة في الاختراع والإبداع، حيث كان نصيب الصين 58% من الاختراعات العالمية، وهي اليوم تنافس الأمريكان والروس في غزو الفضاء، وهي عضو في نادي غزو الفضاء، وتملك نظاماً دفاعياً جويًا متطوراً.

6 - المناصب القيادية لا يصل إليها إلا الأكفيااء وبعد اختبارات صعبة، وبناء على الخبرات، وتقارير الكفاءة، ولا يهم من أين يأتي المدير، المهم أن يكون على درجة عالية من الكفاءة، وهذا هو نظام اقتصاد السوق الاشتراكي، حيث لا بد أن يكون المدير مستعداً لقيادة سيارته بنفسه من دون سائق، ويستخدم الكمبيوتر بنفسه، ويجيد لغة أجنبية واحدة على الأقل، وكل أعضاء القيادات لا بد أن ينضموا إلى دورات دراسية في مدرسة الحزب للتعلم في فهم وتطبيقات الفكر الجديد، ومن لا يجتاز الامتحان بنجاح يفقد وظيفته حتى لو كان وزيراً.

7 - التغيير في الصين يتمحور في اتجاهات ثلاثة هي الإصلاح والانفتاح والتحديث، حيث استطاعت الصين خلال العقد الأخير تحقيق معادلة اقتصادية تحسد عليها، فهي لم تتخل عن نهجها الاشتراكي، ولم تتخرط كلياً في اقتصاد السوق المنفلت من الضوابط، بل كانت الخطوات دائماً محسوبة ومدروسة، وهي مرشحة لأن تكون من عمالقة الاقتصاد في العالم.

إن أولويات الصين هي البناء الاقتصادي وتقوية البيت الصيني وتطوير التسليح مع ترتيب علاقاتها الإقليمية توطئةً لقيامها بدورها في نظام عالمي جديد.

8 - الصين واعية جداً لدورها العالمي المستقبلي، وهي تدعو بثبات إلى إقامة علاقات بين الدول على أساس المبادئ الخمسة للتعايش السلمي، وتسوية مختلف

النزاعات سلمياً عن طريق التشاور المتكافئ. وتعارض الصين بحزم اللجوء إلى استخدام القوة أو التهديد بالقوة، وهي تقف موقفاً عادلاً تجاه القضايا العالمية، ومنها قضية فلسطين التي ترى أنها عملية معقدة وطويلة، وعلى الكيان الصهيوني أن ينسحب من جميع الأراضي العربية المحتلة بما فيها القدس، وأن يعترف بحق الفلسطينيين في تأسيس دولتهم المستقلة وعاصمتها القدس، وإن الهدف الرئيس للصينيين هو إعادة تايوان وتحقيق توحيد الصين اليوم.

9 - لقد بدأت الصين بناء قوتها، لتكون قوة كبيرة ودولة محورية في العالم، فبدأت مجموعة من الخطوات العلمية والثقافية والتعليمية والإدارية، وتعزيز العلاقات مع معظم بلدان العالم على أساس الاحترام المتبادل، والمصالح المشتركة وخاصة مع روسيا ومجموعة بريكس وإيران ومعظم دول آسيا، ولتحقيق ذلك تعمل الصين اليوم على:

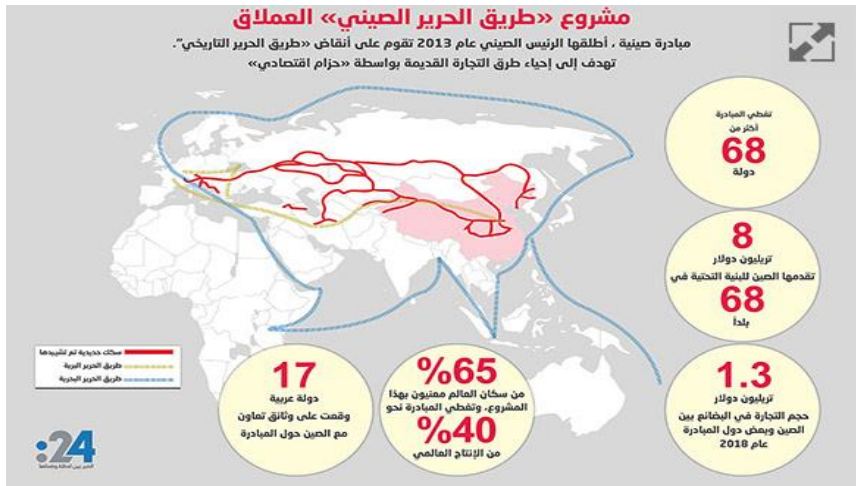
أولاً: البدء في مبادرة الحزام والطريق، وهي مبادرة صينية قامت على أنقاض طريق الحرير في القرن التاسع عشر من أجل ربط الصين بالعالم لتكون أكبر مشروع لبنية تحتية في تاريخ البشرية (7) (ويكيبيديا)، وهو مشروع عابر للقارات تشارك فيه 123 دولة، ويعرف هذا المشروع العملاق اليوم باسم طريق الحرير الجديد، والهدف منه جعل الصين محور العلاقات الاقتصادية العالمية، وهو مبادرة صينية طموحة كشفت النقاب عنها في عام 2013م، لإعادة إحياء طريق الحرير التاريخي، ورغم أن مشروع الحزام والطريق انطلق لربط الصين بأوروبا فإنه اتسع وتجاوز حدود أوراسيا ليضم أفريقيا وأمريكا اللاتينية ومنطقة الكاريبي ومنطقة جنوب الباسيفيك، وحتى يوليو (تموز) 2018، وقعت أكثر من 100 دولة ومنظمة دولية وثائق تعاون مع الصين في إطار مبادرة الحزام والطريق، ونفذت 28 مشروعاً في دول عدة مختلفة باستثمارات تبلغ 5.4 مليارات دولار، كما بنت الصين شبكة كبيرة من خطوط السكك الحديدية في إطار المبادرة التي وصلت إلى 4 آلاف خط يربط بينها وبين دول آسيوية وأوروبية، وتخطت الاستثمارات الأجنبية بين دولة الصين ودول المبادرة 70 مليار دولار. ويتضمن المشروع فرعين رئيسيين هما:

"حزام طريق الحرير الاقتصادي البري" و"طريق الحرير البحري"، وتقضي المبادرة إقامة حزام بري من سكك الحديد والطرق عبر آسيا الوسطى وروسيا، و**طريق بحري** يسمح للصين بالوصول إلى أفريقيا وأوروبا عبر بحر الصين والمحيط الهندي، وتتضمن المبادرة تشييد شبكات من السكك الحديدية، وأنابيب نفط وغاز، وخطوط كهرباء، وإنترنت وبنى تحتية بحرية، مما يعزز اتصال الصين بالقارة الأوروبية والإفريقية. أما برأ فتشمل المبادرة /6 ممرات اقتصادية أساسية تشكل عصب شبكة التجارة والنقل، والتنمية الإقليمية والدولية القادمة، وهذه الممرات هي الجسر القاري الأوراسي الجديد ممر الصين منغوليا روسيا، وممر الصين آسيا الوسطى غرب آسيا، ممر الصين شبه الجزيرة الهندية، ممر الصين باكستان، ممر بنغلادش الصين الهند ميانمار. وفي البحر تركز المبادرة على بناء روابط بين الموانئ الرئيسية، ومن الممرات البحرية المقترحة ممر يربط الموانئ الصينية بالمحيط الهادئ عبر بحر الصين الجنوبي، وآخر يربط الموانئ الصينية بأوروبا. **وتهدف الصين من هذا المشروع إلى:**

- 1 - **ربط الصين بالعالم**، عبر استثمار مليارات الدولارات في البنى التحتية على طول طريق الحرير الذي يربطها مع آسيا وأوروبا، ليكون أكبر مشروع بنية تحتية في تاريخ البشرية، ويشمل بناء مرافئ وطرق سكك حديدية ومناطق صناعية، وتضخ هذه المبادرة دماء حيوية ونبضاً عصرياً جديداً في طريق الحرير، وللتعاون الآسيوي والأوراسي.
- 2 - تعزيز الحوار ومبادلات العملة والتواصل بين الشعوب، ولم الشمل والتجارة الحرة بالشكل الذي يخدم السلام ويحققه.
- 3 - إضفاء عصر ذهبي للتجارة يستفيد منه (الجميع)، وتقول بكين: إنها "ستقدم في نهاية المطاف ما يصل إلى 8 تريليونات دولار للبنية التحتية في 68 بلداً
- 4 - إنشاء طرق وممرات تجارية تربط أكثر من 68 دولة، وتشكل هذه الدول مجتمعة 65٪ من سكان العالم، وتنتج نحو 40٪ من الإنتاج العالمي.
- 5 - تعهدت الصين بأن تكون مشروعات "طرق الحرير الجديدة" صديقة للبيئة (مستدامة) مالياً.

6 – تسريع وصول منتجاتها إلى الأسواق العالمية وربط الصين بالقارة الأوروبية.

لقد بدأت الصين تجني ثمار مبادرتها، ففي عام 2017 ارتفعت صادراتها إلى دول المسارين، الحزام والطريق بنسبة 16%، ونمت وارداتها 27%، ونفذت العديد من المشاريع، منها على سبيل المثال: في تنزانيا تكفلت الأموال الصينية بتحويل مدينة ساحلية صغيرة إلى ميناء قد يصبح أكبر موانئ القارة الإفريقية، وفي أوروبا تمكنت شركات صينية من شراء ميناء/ بيرايوس/ القريب من العاصمة اليونانية أثينا في عام 2016، وذلك عقب الأزمة الاقتصادية التي ألقت بظلالها على اليونان لسنوات عدة، وفي أوغندا تم تعبيد طريق حديث يبلغ طوله 50 كم إلى المطار الدولي بالأموال الصينية. وتعد روسيا وباكستان أبرز الدول الداعمة للمشروع، بينما تعلن أمريكا والأوروبيون عداؤهما لهذا المشروع وقلقهما منه، والاستثناء الأوروبي الوحيد كان رئيس الوزراء الإيطالي/ جوزبي كونتي/ الذي انضمت بلاده إلى المبادرة الصينية في مارس (آذار) الماضي، لتكون أول دولة من مجموعة السبع، تُقدم على هذه الخطوة.



إن إيطاليا بخطوتها هذه ستصبح أول قوة اقتصادية كبرى في أوروبا ، وهي ستستفيد من الأموال التي تعرضها الصين ، وتتقدها من الركود الاقتصادي الذي دخلته في أواخر 2018م ، وأصبحت ضمن أعلى الديون في منطقة اليورو .

لقد جاء العرض الصيني على هذه الخلفية ، فالتمويل الصيني بإمكانه أن يعيد الحياة للموانئ الإيطالية التاريخية الواقعة على طريق الحرير البحري ، خاصة في ظل إهمال الأوروبيين لإيطاليا التي باتت ترى مصلحتها مع الصين ، وهذا سيفيد الصين من خلال اعتراف إيطاليا بالمبادرة الصينية التي يعطيها رونقاً ، ويثبت أن للصين دوراً عالمياً جديداً

وقد جاءت المبادرة الصينية (الحزام والطريق) في توقيت حساس للأوروبيين والاتحاد الأوروبي ، حيث تسود مشاعر القلق تجاه الصين ، والكيفية التي ينبغي أن تتعامل بها أوروبا والاتحاد الأوروبي مع عالم متغير ، وهذا يجعلنا نعرف لماذا الكورونا ضربت إيطاليا بعد الصين وإيران؟؟ ولماذا أرسلت الصين لإيطاليا الخبراء والمساعدات؟! السبب هو أن إيطاليا هي أول دولة من الدول السبع الكبار التي تجرأت ووقعت في الشهر الثالث من العام 2019 اتفاقيات كبرى مع الصين ضمن مبادرة الصين العظيمة (الحزام والطريق لبنى التحتية أو ما يُعرف بطريق الحرير الجديد) ، فقد زار إيطاليا الرئيس الصيني على رأس وفد صيني كبير لمدة ثلاثة أيام ووقع مع رئيس الوزراء الإيطالي تسعاً وعشرين اتفاقية اقتصادية ، وبلغ مجموع العقود ما يقارب ثلاثة بلايين دولار في قطاعات الطاقة والحديد وأنابيب الغاز.

لم تُعر حكومة إيطاليا التي تسعى لتمثيل مصلحة المواطن العادي اهتماماً لكل اعتراضات الولايات المتحدة التي ما انفكت تجادل بأن الصين تشكل تهديداً للمستقبل المالي والسياسي للغرب ، وكان رد رئيس الوزراء الإيطالي على ذلك: (إن مصلحة إيطاليا هي الأولى لدينا والمقدّمة عند بناء علاقاتنا الاقتصادية مع الدول الأخرى).

تعارض أمريكا والدول الأوروبية العلاقات المتنامية بين الصين وإيطاليا ، وتحاول عرقلة مشروع الصين الجديد ، وترى واشنطن أن من شأن هذه العلاقات -وخاصة في مجال الاتصالات - أن تشكل مجالاً للتجسس على الغرب ،

وأصدرت المفوضية الأوروبية تصريحاً تطرق إلى "نفوذ الصين الاقتصادي والسياسي المتنامي"، وإلى ضرورة إعادة النظر في العلاقات مع بكين، ويحاول الغرب تحريض بعض القوى السياسية في إيطاليا لرفض هذا التعاون مع الصين، ورغم ذلك فإن دولاً أوروبية أخرى قد تقبلت الاستثمارات الصينية من خلال ما يطلق عليه مصرف استثمارات البنى التحتية الآسيوي.

والجدير بالذكر أن بريطانيا كانت من أولى الدول التي قبلت هذه الاستثمارات ثم تبعتها كل من فرنسا وألمانيا وإيطاليا وغيرها من الدول، ويتوقع أن الدول الأوروبية المجاورة لإيطاليا ستحذو حذوها وتتضم إلى مبادرة الحزام والطريق.

إن مشروع طريق الحرير الجديد سيغير التجارة العالمية، وكذلك موازين القوى عالمياً، فمبادرة الحزام والطريق - بكل ما فيها من موانئ وسكك حديد وطرق سيارات مموله من شركات صينية تحت إشراف الدولة الصينية - هي إشارة إلى الدور الذي تريد الصين أن تلعبه على المستوى العالمي، وقد وقعت الصين في قمة مبادرة الحزام والطريق بتاريخ 2019/4/28م اتفاقيات بقيمة 64مليار دولار.

إن هذا المشروع سيرسم ملامح عالم جديد، لن يكون فيه للقوى الإمبريالية الرأسمالية الاستعمارية الكلمة الأولى الوحيدة، وسيحقق توازناً في العلاقات الدولية، وسيحد من الهيمنة على الدول النامية، ويعطي الصين المكانة الأولى إلى جانب أمريكا.

انتصار الصين أخلاقياً في الحرب البيولوجية على أمريكا:

يؤكد مختصون بالأسلحة البيولوجية أن / كورونا / لا تخرج عن نطاق الفيروسات التي تم تطويرها كسلاح بيولوجي، ومنهم فرانسيس بويل خبير الأسلحة البيولوجية الذي يكشف عن أن اختبارات تطوير كورونا تمت في جامعة كارولينا الشمالية في الولايات المتحدة. بويل الذي وضع قانون مكافحة الأسلحة البيولوجية يؤكد أن أنشطة مختبرات جامعة كارولينا جزء من الحرب البيولوجية التي تتم فيما يعرف بمختبرات السلامة البيولوجية من المستوى الرابع والتي يوجد منها اثنا عشر مختبراً في الولايات المتحدة، داعياً إلى إغلاق هذه

المختبرات والتحقيق مع المتورطين في هذه الحرب، مشيراً إلى إدارة الدواء والغذاء الأمريكية والقيادة الطبية في الجيش الأمريكي، هذه المعطيات تعزز نظرية الحرب البيولوجية الأميركية، ولاسيما أن أمريكا لها سوابق في هذا المجال، فتجربة هجمات الإنتراكس عام 2001م بعد أسبوع من هجمات سبتمبر/أيلول 2001 دليل على تورط أجهزة طبية وسياسية وأمنية أميركية في هذه الحرب التي ترقى - بحسب الخبراء - إلى وصفها بالإرهاب البيولوجي.

إنها معركة الجشع الإنساني لقوى الرأسمال العالمي التي تستثمر في دم وجراح وآلام الناس وحياتهم، إنها ثقافة الليبرالية المتوحشة والرأسمالية المجردة من القيم الأخلاقية، وهذا تجسد من خلال سياسات الرأسمالية المتوحشة أو ما يسمى النيوليبرالية التي انطلقت من بريطانيا وأمريكا منذ الثمانينيات، وعبرت عن انعدام إنسانيتها ليس ضد شعوب العالم فحسب بل ضد شعوبها، من خلال السياسات التي اتبعتها، وهي لا قيود على الأرباح، وتقليص برامج الضمان الصحي والاجتماعي.

وعندما لم تستطع العولمة المتوحشة إخضاع إرادة بعض الشعوب نتيجة الحصار والحروب التقليدية والتدخل العسكري انتقلت الإدارة الأمريكية لحروب الجيل الخامس والسادس وأخطرها الحروب الجرثومية التي استخدمتها أكثر من مرة، ولكن هذه المرة خرجت عن السيطرة، فكما أوردت بعض التقارير أن /ترامب/ أراد تصنيع سلاح كورونا، وهو أصله من غاز السارين، لضرب إيران بعد عجزه عن المواجهة والصفعة التي وجهتها له رداً على اغتيال الفريق سليمان، فأجرى الاختبار في أفغانستان، ولكنه فشل فأصيب 67 جندياً أمريكياً، وكي يخفي جريمته أرسلهم للمشاركة في البطولة الرياضية العسكرية في الصين فتسببوا بإصابة بعض الصينيين بهذا الفيروس، وتبعت الدولة الصينية لهذا الفعل الإجرامي الخطير فسارعت لمواجهته، ولكن الشيطان الأمريكي لم يكتفِ بجريمته فأخذ يسوق دعاية أن الصين وراء جرثومة كورونا بسبب الخفافيش والثعابين وغير ذلك، ووصلت الوقاحة عند الرئيس ترامب أن اتهم الصين علانية بأنها هي من صنع هذا الفيروس، واغتيال البرفيسور التونسي محمود عبد القادر البزرتي في ألمانيا الذي أعلنت ألمانيا عن اكتشافه للدواء المضاد لكورونا بتاريخ 2020/3/31م يزيد الاحتمال بأن

شركات أجنبية كبرى هي وراء انتشار الوباء، وكما نعلم أن هذه الشركات مملوكة لآل روتشيلد وروكفلر وتشرف عليها المخابرات المركزية الأمريكية والموساد الصهيوني.

لكن عظمة الصينيين وحضارتهم العريقة استطاع إفشال المؤامرة، فهبت الدولة قيادة وشعباً للتصدي للوباء فاتخذت قرارات مشددة عبرت عن حكمة القيادة والتزم الشعب الذي عبر بسلوكه عن حضارة متقدمة ووعي مميز واستتفر العلماء في مخابريهم، فاستطاعت تطويق الفيروس وانتصرت الحضارة الإنسانية على مدعي الحضارة الشياطين المجرمين في أمريكا، وعرّت بدعة الحضارة الغربية من خلال مواقفها الإنسانية لمد يد لها لمساعدة الشعوب المصابة وتقديم الخبرة للبلدان التي لم تتعرض للإصابة، فعرت ما يسمى حضارة الغرب التي تخلت حكوماتها عن شعوبها، وبرزت للعيان النظرة المادية والصراع بين الشركات على من يحتكر الدواء، وبعضهم كبريطانيا خاطب شعبه بالقول: استعدوا للموت.

ها هو القناع يسقط عن الشيطان وحضارته، فما قام به الصينيون كان معجزة العصر، جسدوا من خلال القيم الأخلاقية والحرص على الجنس البشري بغض النظر عن الاختلاف وحالات الصراع والعداء، فكانوا بحق منارة للشعوب وقدوة في المثل العليا، وأسقطوا الكثير من البدع. وإن العلم المسلح بالأخلاق هو طريق الحفاظ على الإنسانية، وبذلك وضعوا الشيطان في القفص، ونعتقد أن العالم بعد / كورونا / غير ما قبلها، فما فعلته أمريكا سيجعلها تُلَاقِي مصير بريطانيا بعد مشاركتها بالعدوان الثلاثي على مصر عام 1956م التي أدت إلى تراجع قيادة بريطانيا في النظام الدولي، فأزمة / كورونا / كشفت عن إمكانية قيادة الصين للنظام الدولي على حساب الولايات المتحدة الأمريكية، وذلك بسبب انتصارها على كورونا من خلال ما قامت به من إجراءات أذهلت المجتمعات البشرية، ومن خلال قيادة الرئيس الصيني المتميزة وما قدمته للمجتمعات البشرية من مساعدة، وهذا سيؤدي بالمجتمعات البشرية للصحة والخروج من السحر الأمريكي الذي وقعت فيه خلال السنوات الماضية، وستتشكل قوة تقف ضد الأمريكي القبيح، وها هي دول العالم -وعلى رأسها الصين وروسيا وإيران وكوبا وكوريا الديمقراطية- تواجه سموم الشيطان الأمريكي، وهي ستضعه في القفص كمقدمة لإراحة البشرية منه.

حقاً إن المصائب هي محك لمعدن الشعوب، ولقد أثبت الصينيون صدقية حضارتهم ومبدئيتهم وإنسانيتهم، إنهم الحق والإمبريالية الباطل، والحق منتصر والباطل منهزم، وبالتالي يمكننا القول: إن انتصار الصين في مواجهة الحرب البيولوجية وموقفها الإنساني أعاد الهبة للأنظمة الشمولية.

إن انتصار الصين على الحرب البيولوجية الأمريكية، إلى جانب البدء في مشروع طريق الحرير الجديد وقطعها أشواطاً مهمة، بالإضافة إلى قرارها الاستراتيجي، بإلغاء الربط بالدولار في تعاملات البورصة والتعامل الرسمي والربط الرسمي باليوان الصيني بدل الدولار، سيجعل من الصين قوة عظمى.

إن المطلوب لعالم خال من التوحش هو التعاون بين دول العالم لتطوير سلاح لمواجهة السلاح الجرثومي في الدول الاستعمارية وخاصة أمريكا، والأمل معقود على روسيا والصين وإيران وكوبا وكوريا الشمالية، وكل القوى الخيرة في العالم، وكما يدل تاريخ البشرية أنه مع كل حدث عالمي خطير، تجري تحولات هامة، وإعادة رسم معالم عالم جديد، تتراجع قوى وتتقدم أخرى، سواءً على الصعيد المحلي أم العالمي، ونتوقع تراجع القوى الرأسمالية، وأدوار القوى الغيبية في السياسة وتقدم البحث العلمي والعاملين فيه، وخاصة في مجال الطب والغذاء.

وما يهمنا نحن العرب ما هو موقعنا في القادم من الأيام والسنين؟ هل سنبقى كومبارس على المسرح الدولي؟ أو سيكون لدينا دورٌ يليق بأمة عمرها آلاف السنين وتملك حضارة عظيمة؟ هل سيشمّر العلماء والمفكرون والمثقفون عن سواعدهم، ويشحذوا الهمم لرسم خارطة طريق جديدة للأمة العربية تملك من خلالها المفاتيح للدخول إلى المستقبل، وأساس ذلك هو وحدتها والعلم وبناء دولة المواطنة واحترام العقل وتقديسه؟!

هذا ما ستجيب عنه الأيام القادمة..

قائمة المصادر والمراجع

- 1 - د.حسين مؤنس، الحضارة، 1977 سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب: الكويت.
- 2 - للاستزادة يمكن العودة إلى:
 - britannica.com. britannica.com. "معلومات عن كونفوشية على موقع" (في 27 يوليو 2019 مؤرشف من الأصل).
 - psh.techlib.cz. psh.techlib.cz. "معلومات عن كونفوشية على موقع" (في 13 ديسمبر 2019 من الأصل).
 - meshb.nlm.nih.gov. meshb.nlm.nih.gov. "معلومات عن كونفوشية على موقع" (في 24 يوليو 2019 مؤرشف من الأصل).
 - Thoraval ، Joël (2016). "Heaven, Earth, Sovereign, Ancestors, Masters: Some Remarks on the Politico – Religious in China Today". Occasional Papers (5). Paris: Centre for Studies on China, Korea and Japan. مؤرشف (في 16 يناير 2018 من الأصل).
 - Hagen ، Kurtis. "Confucian Key Terms – Tian 天". State University of New York at Plattsburgh. مؤرشف من الأصل (في 03 ديسمبر 2014).
 - Dubs ، Homer (1960). "Theism and Naturalism in Ancient Chinese Philosophy". *Philosophy East and West*. 9 (3–4). University of Hawaii Press. صفحات 172–163.
 - Runes ، Dagobert D. (1983). (المحرر)، *Dictionary of Philosophy*. Philosophical Library. 338 صفحة. ISBN 9783 – 2388 – 8022 – 0. (في 16 مارس 2020 مؤرشف من الأصل).
- الكونفوشيوسية
- موسوعة المورد، منير البعلبكي 1991
- مؤلفات ماوتسي تونغ المختارة، المجلدات 4/3/2/1، دار النشر للغات الأجنبية، بكين 1970م - 3
- 4 - د.عبد اللطيف ياسين قصاب، رحلتي إلى الصين/العملاق الصاعد، دمشق، إصدار خاص، 2012م.
- 5 - المصدر السابق نفسه.
- 6 - صاموئيل هنتغتون، ، سايمونوشوستر، 1969 نُقلها للعربية د.محمد خلف، ود.مالك شهوة.
- 7 - ويكيبيديا، الموسوعة الحرة.
- 8 - جاك مارتن، عندما تحكم الصين العالم، ترجمة د.فاطمة نصر، دار سطور، القاهرة، 2010م.

سورية والصين ضرورة الحاضر أم رهان المستقبل؟

د. شاهر إسماعيل الشاهر*

الملخص:

ارتكزت السياسة الخارجية الصينية تجاه سورية على تقاطع عاملي المصلحة والأيديولوجيا، وهذان العاملان كانا ومازالا محددان أصليين لسياسة الصين الخارجية، ولهما جذورهما في الفكر السياسي الصيني. فبين ما تشكله سورية من أهمية جيوسياسية واقتصادية للصين، وبين سياسة الصين الثابتة والمتمثلة في رفض التدخل في الشؤون الداخلية للدول وتحقيق العدالة وإرجاع الحقوق، استطاعت بكين أن تضع ملامح سياستها الخارجية تجاه سورية بانسجام تام بين تحقيق مصالحها الوطنية والدفاع عن المبادئ التي تؤمن بها، والتي شكلت هوية خاصة للسياسة الصينية.

إن موقف الصين من الحرب على سورية استند - بالإضافة إلى اعتبارات المصلحة والأيديولوجيا - إلى اعتبار سعي الصين لحفظ وتعزيز نفوذها في معادلة توازنات القوى الدولية في منطقة الشرق الأوسط. فبكين باتت أحد الأقطاب الرئيسية في العالم، وما التطور في السياسة الخارجية الصينية تجاه سورية إلا انعكاس لتصاعد مكانة الصين وقوتها.

وعندما بدأت الحرب على سورية كان موقف الصين من الدولة السورية إيجابياً وبنّاءً، إذ رأت أن ما يحدث في سورية هو نزاع مسلح بين الدولة الشرعية

* كاتب وباحث سوري، عضو اتحاد الكتاب العرب.

ومجموعات مسلحة متطرفة خارجة على القانون، فرحبت بجهود حلّ الأزمة السورية بشكل سلمي ضمن إطار مؤتمر جنيف. فدمشق بالنسبة لبكين تُمثل "استثناءً أيديولوجياً على صعيد الشرق الأوسط، من حيث نمط الخيارات الفكرية والأيديولوجية المؤطرة للدولة والسياسة السورية، فضلاً عن التنوع الحضاري للمجتمع السوري، وتعدديته الثقافية والاجتماعية.

مقدمة :

الصين ثاني أكبر اقتصاد في العالم، وحققت إنجازات لفتت أنظار العالم في السنوات الأخيرة بفضل سياسة الإصلاح والانفتاح وتبني اقتصاد السوق الاشتراكي، وهناك الكثير من التجارب في هذا المجال. ويأتي اهتمام الصين بسورية كجزء من الاهتمام بالشرق الأوسط الذي يُمثل بالنسبة للصين رهان المستقبل أكثر من كونه ضرورة الحاضر.

وعادة ما تميل الصين إلى استخدام مصطلح "غرب آسيا وشمال أفريقيا" كبديل عن مصطلح "الشرق الأوسط" (1)، حيث يدور في هذه المنطقة تنافس دولي حاد بين القوى الكبرى لأسباب عدة، نلخصها بما يأتي:

- 1 - يتوسط الشرق الأوسط دائرة تضم القارات الثلاث آسيا وإفريقيا وأوروبا التي يعيش عليها أكثر من ثلاثة أرباع سكان الكرة الأرضية، وفيه تتضارب المصالح السياسية والاقتصادية والاجتماعية، المحلية والعالمية، وما يتفرع عنها من تناقضات على مختلف الصعد (2).
- 2 - تشرف المنطقة على أكبر مجموعة مائية من البحار والمحيطات، وهي: بحر قزوين، البحر الأسود، البحر المتوسط، البحر الأحمر، الخليج العربي والمحيط الهندي.
- 3 - تحتوي على العديد من الأنهار المهمة، مثل: النيل - دجلة - الفرات - نهر الأردن، إضافة إلى الأنهار الصغيرة، وهي في أغلبها صالحة للملاحة. وتتحكم في الشرق الأوسط مجموعة من المداخل الرئيسية، مثل: قناة السويس، مضيقي البوسفور والدرديل، ومضيق باب المندب، ومضيق هرمز (3).

4 - تتميز المنطقة بالاتساع والعمق، ومن ثم فهي تتيح نشر القواعد العسكرية في أوقات الحرب، ولها مقدرة على امتصاص الضربات العسكرية حتى غير التقليدية.

5 - تتميز هذه المنطقة بوفرة وتعدد المصادر الطبيعية والثروات المعدنية ومصادر الطاقة، هذا فضلاً عن تنوع المناخ الذي يتميز بالاعتدال في أغلبه، وبذلك فإن الخصائص الجيولوجية للشرق الأوسط جعلته يمثل نقطة تماس استراتيجي وساحة تنافس دولي كبير بين العديد من القوى الكبرى التي دخلت في تنافس شديد عليه.

فالصين ترى أن موقع سورية على البحر المتوسط يُمكن أن يجعل منها مركز انطلاق للسلع الصينية المتجهة نحو أوروبا، خاصة إذا جرى تصنيع هذه السلع كلياً أو جزئياً في داخل الأراضي السورية، لتتقل بعد ذلك عبر ميناءي اللاذقية وطرطوس(4).

الأهمية الاستراتيجية لسورية:

يرى نابليون بونابرت أنّ السياسة الخارجية لأي دولة تكمن في موقعها الجغرافي. ويعد العامل الجيوستراتيجي من العوامل المهمة في سياسة الدولة الخارجية، لأن تلك السياسة تكمن في أهميتها الجغرافية، ويرى المختصون في مجال العلاقات الدولية أنّ هناك علاقة وثيقة ومتراصة بين الجغرافيا والسياسة، لهذا أطلق على هذه العلاقة الوثيقة تسمية علم الجغرافيا السياسية (الجيوبوليتكس) الذي يمكن تعريفه بأنه العلم الذي يهتم بالدولة؛ لا على أساس أنها مفهوم جامد بل كائن حي، وأنه يبحث بالدرجة الأولى علاقة الدولة ببيئتها وحيزها، والعمل على محاولة حلّ المشكلات جميعها الناتجة عن العلاقات المكانية .

فأهمية سورية لا تأتي فقط من أهميتها الجغرافية، بل من الدور الذي تلعبه في محيطها الإقليمي. فكون سورية أهم دولة في منطقة الشرق الأوسط - هذه حقيقة استراتيجية وليس إدراك مبالغ فيه للمكانة الإقليمية -، لذا بدأ السعي إلى تحويل سورية من دولة ناشطة جيوسراتيجياً (دولة مؤثرة)، إلى دولة مهمة جيوسياسياً (دول متأثرة). ولعل أكبر انتصار في مواجهة الحرب على سورية هو بقاء الدولة السورية، وقد أخفقوا في تقسيمها أو إنهاء وجودها.

- تكمن الأهمية الاستراتيجية لسورية بالآتي(5):
- 1 - سورية مركز لكل توازنات القوى الإقليمية في المنطقة.
 - 2 - سورية في الوقت عينه هي متنفس لبنان الجغرافي.
 - 3 - تتجاور سورية مع فلسطين بحيث تشكل عبر جنوبها الغربي الرئة الجغرافية والتاريخية لها.
 - 4 - سورية من أهم مناطق التداخل بين القوى البرية والبحرية والجوية التي تشكل جزءاً حساساً للغاية من منطقة مصير العالم ، وفق طرح عالم الجيوبوليتيك المارشال ألكسندر دو سيفرسكي عن القوى الجوية عندما قال: هذه المنطقة العربية هي المعبر الذي يربط قارتي آسيا وأفريقيا بأوروبا ، وهي مفتاح الدفاع الجوي عن قارتي أفريقيا وأوروبا.
 - 5 - تلعب سورية دوراً مهماً في محيطها الطبيعي عبر موقعها الجيواستراتيجي كبوابة آسيا إلى أوروبا.
 - 6 - تقف سورية عقدة بوجه ما سمي بـ "الربيع العربي" الذي ترجم عن كونه وكيلاً للمصالح الأمريكية في المنطقة.
 - 7 - سورية باتت خط الدفاع الأول عن الأمن السياسي والاقتصادي الروسي والصيني والإيراني ، خاصة بعد أن اعتمدت استراتيجية البحار الخمسة وطريق الحرير التي تلاقحت مع استراتيجية الصين لكسر الطوق الأمريكي عليها في مضيق ملقا.
 - 8 - اكتشافات الغاز المؤكدة في سورية ولبنان ومياهما الإقليمية ، والتي أثارت المتصارعين على امتلاك الطاقة للتحكم بمصير القرن الحالي .
 - 9 - سورية عقدة مواصلات الغاز ، وعليها يتوقف مصير غاز نابوكو ، وتركيا والولايات المتحدة الأمريكية وقطر تعمل لتحرير أوروبا من قبضة غاز (بروم) الروسية ومنافستها على امتلاك هذا السوق الكبير .
 - 10 - سورية لم ترضخ لمشية الولايات المتحدة الأمريكية والغرب ، بل عملت مع إيران على تقويض السياسة الأمريكية والأطلسية والإسرائيلية وإفشالها عبر دعم المقاومات في لبنان والعراق وفلسطين.

11 - سورية مهد الشعوب السامية: يعود ذلك إلى موقعها الجغرافي الاستراتيجي الفريد، ومن الحضارات التي ظهرت الحضارة السامية التي انحدر منها السومريون، الأكاديون، الكنعانيون، الفينيقيون، الآشوريون، الحيثيون، الأراميون، الكلدانيون، الأنباط، الغسانيون العرب، وكذلك اليونانيون والرومان.

12 - ارتبطت أهمية سورية السياسية والاقتصادية طوال تاريخها بمركزها في ملتقى ثلاث قارات وثقافات عدة. وكانت سورية بفضل موقعها الجغرافي الاستراتيجي محوراً للتجارة العابرة بين العديد من بلدان الشرق الأوسط، كما كانت عاملاً حيوياً في تحديد السياسة والصراع العربي - الإسرائيلي.

وفي المحصلة النهائية فإن هذه الميزات الجيوبوليتيكية جميعها جعلت من سورية بلداً ذا منفعة حيوية للدول المعنية بالمنطقة، كما جعلت منه نقطة استقطاب مهمة لمطامح هذه الدول اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً، مما يعني موضوعياً تحويله إلى مركز تجاذب، فالصراع الحقيقي على سورية هو بين قوى تريد تغيير الخرائط وقوى تريد الحفاظ عليها.

لمحة تاريخية عن العلاقات الصينية - السورية:

تعود العلاقات الصينية - السورية إلى مئات السنين، فسورية - وبحكم موقعها بين القارات الثلاث - شكلت الطريق التجاري الذي ربط بين الصين والدول العربية، والذي سمي سابقاً طريق الحرير(6).

وتعد سورية الرابط الأساسي لمشروع البجار الخمسة الذي طرحه السيد الرئيس بشار الأسد، المتوافق مع مشروع الحزام والطريق الصيني.

وقعت الصين وسورية في العام 1955 اتفاقية في مجال التجارة، وتعود العلاقات الدبلوماسية بين البلدين إلى العام 1956 وهي أقدم علاقة دبلوماسية بين الصين والدول العربية(7). وفي العام 1957 وقفت الصين إلى جانب سورية في التصدي للأسطول السابع الذي أرسلته تركيا لتهديدها بتحريض أمريكي. لكن الخلاف الصيني مع الاتحاد السوفياتي هو ما أعاق تطور العلاقات

الصينية السورية(8). وعلى الرغم من انحياز سورية للاتحاد السوفييتي فقد حرصت الصين على استمرار تواصلها السياسي معها، وتوقيع مجموعة من الاتفاقيات، منها: اتفاقية زيادة التعاون التجاري عام 1963، وأخرى للتعاون الثقافي عام 1965، وقد شكلت أول تعاون ثقافي بين الدولتين.

وبعد توقيع مصر معاهدة كامب ديفيد عام 1978، باتت سورية نقطة التوازن الوحيدة في منطقة الشرق الأوسط في وجه السيطرة الغربية، مما أسهم في تحسن العلاقة مع الصين. وعندما قامت الحرب العراقية - الإيرانية (1980 - 1988) تحسنت العلاقات السورية الصينية بسبب موقفهما الموحد من هذه الحرب، فوقعت الصين مع سورية عام 1982 اتفاقاً تجارياً طويل الأجل حلّ محلّ اتفاقية عام 1963، وأبدت بكين استعدادها لتزويد سورية بتكنولوجيا الصواريخ متوسطة المدى، بعد أن رفض الاتحاد السوفييتي هذا الطلب(9).

وفي عام 1985 قدمت بكين مساعدات عسكرية وصفقات شراء أسلحة، وقامت بتدريب الخبراء السوريين على كيفية استخدامها، وساعدت الحكومة السورية في بناء المصانع.

ووقع الجانبان العديد من الاتفاقيات منها: اتفاقية تشجيع وحماية الاستثمارات المتبادلة، والاتفاق على تقديم قرض بقيمة مئة مليون يوان لمدة عشر سنوات، لاستخدامه في تمويل مشاريع بترولية ومعامل إنتاج الغزل عام 1996. كما قدمت الحكومة الصينية منحاً عدة بقيمة عشرين مليون يوان على شكل هبات لا تُردُّ خلال عام 1999. وشهد التبادل التجاري بين البلدين تطوراً ملحوظاً، فارتفع من سبعين مليون دولار أمريكي عام 1989 إلى مئة وخمسين مليون دولار أمريكي في عام 2000.

ورفضت الصين المبدأ الذي تتبناه الولايات المتحدة والدول الغربية والذي يقوم على فرض العقوبات على الدول التي تتعارض مع سياساتها كالعراق وإيران وسورية وكوريا الشمالية. ففي أواسط التسعينيات من القرن الماضي قامت بتزويد سورية بمئة وخمسين صاروخ أرض - أرض مضاد للدبابات، متمردة على قرار الحظر الذي فرضته الولايات المتحدة على البلدان العربية، وخاصة سورية، لشراء الأسلحة، وقد ساعد ذلك على تطوير العلاقات العسكرية بين الصين وسورية(10).

وفي العام 2004 قام الرئيس الأسد بزيارة الصين لأول مرة، وتم التركيز في هذه الزيارة على التعاون الاقتصادي بين البلدين، حيث تؤمن سورية سوقاً جديدة للصين، وشملت الاستثمارات الصينية في سورية عقود ناقلات النفط والطاقة، ومرافق التصنيع.

وفي الفترة ما بين (2004 و 2005) وقع الطرفان الصيني والسوري على اتفاقات للتعاون في مجالات النفط والغاز والزراعة والصحة والعلوم الطبية والسياحة والتعليم والثقافة والموسيقى والمسرح.

موقف الصين من الحرب على سورية :

اتسم موقف الصين تجاه الأزمة السورية بالاختلاف عن موقف الولايات المتحدة تجاهها، وهو تباين في المواقف ليس جديداً. فطالما تناقضت التوجهات السياسية للصين مع مثيلاتها الأمريكية في الحقبة الأخيرة، في ظل سياسة خارجية صينية براغماتية تحكمها تقاطعات الأيديولوجيا بالمصالح. إلا أن الجديد في موقف الصين تجاه الأزمة السورية هو أنه تعدى حدود الاختلاف الموقفي المعهود مع سياسات الولايات المتحدة في منطقة الشرق الأوسط، وبلغ حد التصادم والمواجهة السياسية في سابقة تعد الأولى من نوعها في هذه المنطقة. ويسهم تدخل الصين في واقع توازنات معادلة القوى في الشرق الأوسط - إلى جانب كل من روسيا وإيران في مواجهة الولايات المتحدة والدول الغربية - في إحداث تطور جديد على تلك المعادلة، خصوصاً في ظل تصاعد أزمات المنطقة إلى حد النزاعات المسلحة التي تعكس واقع تلك التوازنات(11).

الموقف الصيني من الأزمة السورية يمثل رداً مباشراً على الإعلان الأمريكي عن تحول في الاستراتيجية الأميركية نحو منطقة المحيط الهادئ الآسيوية، وهي منطقة تنامي النفوذ الصيني، وهو ما يعني وجود توتر بين الطرفين في هذه المنطقة، مما يجعل الصين تعمل على الرد في مناطق أخرى(12)، وقد شكّلت الأزمة السورية فرصة للقيام بذلك، إضافة إلى اتهام الصين للولايات المتحدة الأمريكية بالتمسك بمصالحها الجوهريّة، إما عن طريق بيع أمريكا أسلحة لتايوان، وإما عبر تشجيعها للمجموعات الانفصالية في التبت، وبالتالي فإنّ الصين اتخذت المناكفة في الأزمة السورية كجزء من الرد، ولو سياسياً فقط.

وفي العام 2013 نشر البنتاغون خطة رايت التي هدفت إلى تقسيم سورية وإنشاء " دولة جديدة" تمتد بين العراق وسورية لقطع طريق الحرير بين بغداد ودمشق(13). وقد تكفلت داعش بهذه المهمة، مما جعل الصين تغير مسار طريقها لتتلاقى في الصدام مع الولايات المتحدة، ولعدم التورط في صراعات المنطقة. فقررت بكين نقل مساره عبر مصر، والاستثمار في مضاعفة قناة السويس، وإنشاء منطقة صناعية ضخمة على بعد 120 كيلومتراً من القاهرة(14).

فإذا كانت برلين قد شهدت ولادة الحرب الباردة بين الشرق والغرب، فإن دمشق شهدت ولادة التحول التاريخي في السياسة الخارجية الصينية. فقد اتسم الموقف الصيني بشأن الأزمة السورية برفض التدخل الخارجي بصفة عامة، والتدخل العسكري على وجه التحديد، ومن ثم رفض أي إجراء في مجلس الأمن من شأنه أن يفتح الطريق أمام احتمال هذا التدخل، وهو ما يفسر استخدامها الفيتو مرات متتالية ضد قرارات بشأن سورية(15). وهي المرة الأولى في تاريخ حق النقض التي يستخدم من أجل دولة عربية. كما أن سورية هي الدولة الوحيدة التي استخدمت الصين من أجلها حق الفيتو /6/ مرات. فسورية تُعد رصيماً استراتيجياً للصين، لا من ثروتها الطبيعية بل من زاوية ثقلها الجيوسياسي على صعيد الموقع الجغرافي والمكانة الحضارية، والدور الذي تلعبه في معادلات السياسة الشرق أوسطية. وترى بكين أن الفيتو الروسي - الصيني المشترك سيفتح "نافذة من الفرص" لحل الأزمة السورية.

المبادرات الصينية لحل الأزمة في سورية:

تخلت الصين عن سياسة النأي وعدم التدخل في الأزمات الواقعة خارج نطاق مصالحها المباشرة أو فضائها الجيوسياسي المباشر، وذلك للمرة الأولى في تاريخها الحديث، فعلى الرغم من جميع المطالبات الغربية أبقت الصين سفارتها في دمشق مفتوحة طوال فترة الحرب على سورية، وطرحت وزارة الخارجية الصينية في شباط 2012 مبادراتها لحل الأزمة السورية، والتي افترضت إيقاف إطلاق النار في 10 نيسان 2012، ويمكن إجمال هذه المبادرة بالنقاط الآتية(16):

- ترحيب الصين بتعيين المبعوث الخاص المشترك للأمم المتحدة وجامعة الدول العربية كوفي عنان لمتابعة القرار السياسي.
- تعرب الصين عن دعم الدور القيادي للأمم المتحدة في تنسيق جهود الإغاثة، وقالت: إن الأمم المتحدة أو أي كيان آخر غير متحيز ينبغي أن يقيّم الوضع الإنساني في ظل شرط احترام سيادة سورية.
- يجب على المجتمع الدولي احترام استقلال وسيادة ووحدة وسلامة أراضي سورية، وتقديم المساعدة اللازمة وحث الفصائل السياسية المختلفة في سورية لإطلاق الحوار، واحترام نتائجه.
- عدم الموافقة على التدخل المسلح أو الضغط من أجل تغيير النظام في سورية، وتعتقد بكون أن استخدام القوة أو التهديد بفرض عقوبات لا يساعد على حل هذه المشكلة بشكل مناسب.
- يجب أن يلتزم مجلس الأمن الدولي بمقاصد ومبادئ ميثاق الأمم المتحدة والأعراف الأساسية التي تحكم العلاقات الدولية.
- وفي 30 حزيران 2012 عقد اجتماع في جنيف (مؤتمر جنيف1) لمجموعة العمل حول سورية التي تضم الولايات المتحدة والصين وروسيا وفرنسا والمملكة المتحدة وتركيا وجامعة الدول العربية والاتحاد الأوروبي، واتفقت على مبادئ مرحلة انتقالية. وتنص الخطة على إقامة "حكومة انتقالية ذات صلاحيات كاملة" عبر "توافق مشترك"، لكنها لا تحدد مصير الرئيس الأسد، فاختلقت الأطراف المعنية بالنزاع على تفسير هذه المبادئ، وبعد الاجتماع عدت واشنطن أن الاتفاق يفسح في المجال أمام مرحلة "ما بعد الأسد" (17)، في حين أكدت موسكو وبكين أنه يعود إلى السوريين وحدهم تقرير مصير رئيسهم.
- وأهم ما نص عليه مؤتمر جنيف (1) الآتي(18):
- ❖ تشكيل حكومة انتقالية توافقية مكونة من الحكومة السورية والمعارضة.
- ❖ إجراء حوار وطني شامل لجميع فئات الشعب السوري، على أن يخرج بنتائج تساهم في وضع الأساس الأول للبناء الدستوري والقانوني للنظام السوري وإجراء انتخابات حرة ونزيهة.

وفي تشرين الثاني 2012 قدمت الصين مقترحات جديدة للأخضر الإبراهيمي مبعوث الأمم المتحدة وجامعة الدول العربية، تضمنت وقف إطلاق النار على مراحل، وتشكيل حكومة انتقالية.

وفي 30 أيلول 2015 قدمت مبادرة دعت إلى حل سياسي للأزمة السورية على أن يتم استبعاد الأداة العسكرية (19)، مع العمل على مكافحة الإرهاب من جانب آخر.

يُسجّل للصين الاستخدام المتكرر لحق النقض في مجلس الأمن، على الرغم من أنها الدولة الوحيدة دائمة العضوية التي لم تستخدم هذا الحق إلا نادراً، كما أنها لم تلجأ إلى استخدامه لتقويض إصدار قراراتين مشابهين وجّهاً ضد ليبيا في عهد الرئيس معمر القذافي في فترة ما سمي "الثورة الليبية"، رغم اعتراضها على صدورهما. وترى بكين أن استخدامهما للفييتو ينطلق من معارضتها لأي تدخل غربي في سورية، بعد أن أساء حلف شمال الأطلسي استخدام قرار مجلس الأمن في ليبيا، فتدخل لإسقاط الدولة الشرعية فيها، لا حماية المدنيين كما ادّعى الغرب والولايات المتحدة الأمريكية.

إن موقف الصين من الأزمة السورية واستخدامها حق الفيتو في مجلس الأمن الدولي، شكل بداية لبروز لاعب جديد في الشرق الأوسط، بما يؤكد رغبة بكين في لعب دور دبلوماسي وسياسي عالمي يتناسب مع تنامي قدراتها الاقتصادية والعسكرية. فالفييتو الصيني يعد تطوراً نوعياً مهماً ليس فقط في أسلوب تعامل الصين مع منطقة الشرق الأوسط الغنية بموارد الطاقة الضرورية للمحافظة على نموها الاقتصادي المتسارع، وإنما أيضاً في نظرة بكين إلى دورها الدبلوماسي والسياسي على الساحة العالمية.

وترى الصين أيضاً أن محاولات الولايات المتحدة لزعزعة استقرار المنطقة العربية يأتي لسدّ الطريق أمام إمدادات النفط التي تصل إليها، مع اعتقادها أنّ التعاون الاقتصادي يحتاج إلى توافر الأمن والسلم في العالم؛ الأمر الذي يفسر مساعيها للتهديّة وحلّ المشكلات الدوليّة بطرق دبلوماسية من خلال استراتيجية تقوم على أساس علاقة صفر (مشاكل) مع العالم الخارجي (20)، كذلك سعت إلى المحافظة على علاقتها التجارية مع الحكومات الجديدة في الدول التي

اجتاحتها الأحداث. وتخشى الصين من أن يؤدي سقوط النظام الوطني في سورية إلى صعود نظام جديد يكون أقرب إلى الغرب، فتفقد حليفاً مهماً لها في منطقة الشرق الأوسط، كما أن أي تدخل غربي في سورية من شأنه أن يمتد ليصل إلى العراق الذي يشكل مورداً نفطياً مهماً للصين.

وفي ضوء ذلك انطلقت الصين من ثلاثة معطيات تعمل على ترسيخها دوماً في رؤيتها الاستراتيجية للمنطقة العربية والعالم، وهي: ضمان حصتها من الطاقة، وزيادة علاقتها الاقتصادية بما يضمن تلبية احتياجاتها المتزايدة، إضافة إلى تأكيدها الدائم على حل النزاعات عبر التعاون والتفاوض(21).

أهمية الصين بالنسبة لسورية:

تدرك سورية أهمية العلاقة مع الصين، نظراً للدور الصيني الكبير والملتامي في السياسة الدولية، وتعول على موقف الصين المتوازن الذي يعترف بمصالح جميع الأطراف، والداعم للدولة والشعب في سورية. وترى أن هناك دروساً يمكن الاستفادة منها من التجربة الصينية، مثل العلاقة بين الحزب الشيوعي الصيني والدولة في الحكم، والتجربة الصينية في مسألة الإصلاح الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والانتقال بالصين سريعاً إلى مصاف الدول المتقدمة. وتخشى سورية أن لا تكون الصين مهتمة بأن تكون سورية جزءاً من مبادرة الطريق والحزام التي أطلقها الرئيس الصيني شي جين بينغ في العام 2013. وترى سورية أن الإرهاب بات اليوم شأنًا عالمياً، وكل الدول معنية بمكافحته، إذ لم يعد له وجودٌ جغرافي محدد، وهو آخذ بالظهور في بيئات عديدة ومختلفة، وهناك دول تستثمر فيه، ولن تكون الصين في مأمن من الإرهاب، وقد وصل هذا المرض إليها بالفعل عبر الإيغور الذين نشطوا في سورية، واستطاع الجيش العربي السوري القضاء على أعداد كبيرة منهم. فمكافحة الإرهاب ليست عسكرية وأمنية فحسب، بل البداية هي مكافحته فكرياً وتمويماً واقتصادياً وسياسياً واجتماعياً، واتخاذ الإجراءات ومتابعة التنظيمات الإرهابية عبر تنظيم ذلك بين الدول، من خلال التركيز على مجموعة من النقاط أهمها: كشف وتعرية الفكر المتطرف، وتوضيح المفاهيم الخاطئة، وإرساء قيم المحبة والسلام والتسامح، وإعداد دعاة معتدلين.

وترى الحكومة السورية أن الصين تخطئ في إرسال شبابها لتعلم الدين في السعودية التي لا تعلمهم إلا الوهابية المتخلفة والمتطرفة، فغالبيت الإرهابين الصينيين الذين قدموا للجهاد في سورية كانوا قد تعلموا في السعودية .

وإذا كانت العلاقات الدبلوماسية السورية الصينية عمرها 60 عاماً، فالعلاقات الاقتصادية بين البلدين تمتد لمئات السنين، إذ شكلت سورية نقطة هامة من طريق الحرير الذي ربط الصين بالبلدان العربية. وكان التطور الأهم على صعيد الدور الاقتصادي هو ذلك الذي تجسد في بناء المدينة الصناعية الحرة في عدرا، التي منحت الصين فرصة كبيرة للوصول إلى أسواق الشرق الأوسط وأوروبا(22).

وبعد الحرب على سورية التي تسببت بتدمير البنى الاقتصادية للدولة السورية، وخسائر كبيرة في الناتج المحلي الإجمالي، وفي الرأسمال البشري والبنى التحتية، جاءت العقوبات الاقتصادية التي فرضت على سورية لتؤدي إلى أضرار كبيرة في قطاعات اقتصادية واجتماعية رئيسة. وتُجمع التقديرات على أن الحد الأدنى لتكاليف الحرب قارب 500 مليار دولار، وقد تصل إلى 1000 مليار.

وبعد تحرير العديد من الأراضي السورية والقضاء على تنظيم داعش في العديد من المناطق أعلنت الحكومة السورية عن البدء في مرحلة إعادة الاعمار والتي يجب أن يكون للصين والدول الصديقة التي وقفت إلى جانب سورية دورٌ محوريٌّ فيها، خاصة أن هناك توجيهاً رسمياً للحكومة السورية بالتوجه نحو الشرق، أي نحو آسيا والصين تحديداً التي تعد الشريك الاقتصادي الأول لسورية بنسبة تجاوزت 7% من التجارة الخارجية السورية، كما أن عمليات التبادل التجاري بين سورية والصين استمرت حتى خلال الأزمة، وتجاوزت مليار دولار، ومستقبل السوق السورية واعد، وهي بحاجة إلى مشاريع واستثمارات كبيرة في عملية إعادة البناء. وعلى الصين أن تسعى لأخذ حصتها من الآن، وألا تنتظر حتى تحقيق الاستقرار السياسي الكامل، فغالبيت الجغرافيا السورية مستقرة بكل المعايير والوضع فيها جاهز للبدء في الاستثمار. وتتطلع سورية لاستثمارات صينية كبرى في الصناعة والزراعة والبنى التحتية والتكنولوجيا (ولا سيما الاتصالات والنظم المصرفية) التي تشكل اليوم عصب الاقتصاد المعاصر والتي تعاني سورية تراجعاً فيها نتيجة العقوبات المفروضة عليها.

ومنذ ما قبل الأزمة حاولت سورية استلهام النموذج الصيني في التنمية بخطوطه العامة، مع إدراك الاختلاف في الشروط. وكشفت الأزمة أن الاستلهام كان انتقائياً. وبعد الحرب تبدو العودة ملحة إلى ذلك النموذج والاستفادة من مكامن القوة فيه. وتسعى الحكومة السورية لحل ملف اللاجئين السوريين في الخارج، لقناعتها بأنه أصبح ملفاً للاستثمار السياسي من الدول المعادية لسورية، وإن حل هذا الملف يحتاج إلى خطوات تمهد للوصول إلى النتيجة المطلوبة، منها على المستوى الداخلي: ضرورة الانتقال من التسويات إلى المصالحة الوطنية؛ والعمل على تأمين متطلبات العودة (السكن، الخدمات، البنى التحتية)، أي مستلزمات البقاء؛ والعمل على تجديد التشريعات لتسوية أوضاع هؤلاء، فهم فئات مختلفة قد يكون لبعضهم مشكلات أمنية أو سياسية، لكن هناك الكثير منهم كان قد هرب من الإرهاب.

وتعمل الحكومة السورية على ضمان حقوق اللاجئين في العودة أو في الملكية؛ وتبديد المخاوف التي يبديها بعضهم والتي تستثمر سياسياً وإعلامياً، فملف اللجوء له وجه إنساني ووجه سياسي، إذ تم استغلاله بوصفه ورقة سياسية بيد الدول التي حاولت التأثير في مجريات الحرب على سورية. ويجري التواصل مع اللاجئين في دول اللجوء لتفهم احتياجاتهم والإضاءة على التعديات والانتهاكات التي يتعرضون لها، بهدف إعادة بناء الثقة والتغلب على الحساسيات والانقسامات.

وتسعى سورية إلى الاستفادة من النموذج الصيني في إعادة البناء في مجال التنمية البشرية، واستلهام التجربة الصينية في الثقافة والتعليم، كدور اتخاذ القرار التعليمي، ودور مؤسسات الفكر والرأي والجامعات ووسائل التواصل.. وهذا قد يكون عنواناً للتعاون مستقبلاً بين مراكز الأبحاث في البلدين.

إن السوريين بحاجة إلى المزيد من التعرف على الثقافة الصينية، (فالغرب يهيمن على ثقافة العالم كله وليس عليها في سورية فقط)، ولا سيما أن التجربة الصينية في إدارة التنوع الثقافي والمشكلات التي واجهتها، وكيفية اتخاذ القرار بحلها، تشكل محط إعجاب الحكومة السورية(23).

ويجب الاستفادة من النموذج الصيني في معالجة بعض القضايا، حيث استخدمت بكين التكنولوجيا الحديثة لحل بعض المشكلات ومنع تحولها إلى أزمات مزمنة، وخاصة قضايا الإرهاب الدولي، والتمييز العنصري، والتطهير العرقي، والنزاعات الطائفية. كما قامت بتأسيس مركز التكوين المهني في إقليم شينجيانغ لمنع حدوث الهجمات الإرهابية قبل وقوعها، لأن المناطق الفقيرة والمتخلفة من السهل أن يظهر فيها الإرهاب، لذا يجب تأمين الإعداد المهني الذي يكسب الناس المهارات اللازمة للحصول على العمل. وفي الوقت نفسه يجب تعميم القانون على هؤلاء ليعرفوا ما هي الأعمال الخارجة عن القانون، كذلك تعليمهم اللغة الرسمية للدولة ليجتهدوا في العمل بشكل أسهل. فبفضل هذه الجهود لم تشهد الصين أي حوادث إرهابية كبيرة في الإقليم منذ سنوات.

كما يجب الاستفادة من استراتيجية التنمية الكبرى التي تنتهجها الحكومة الصينية لردم الفجوة بين المناطق الشرقية والغربية، وتنمية شرق البلاد للوصول إلى استراتيجية وطنية لمكافحة الفقر. فبفضل سياسة الإصلاح والانفتاح التي أطلقتها الصين قبل أكثر من 40 عاماً نجحت في إخراج أكثر من 700 مليون فقير صيني من حالة الفقر، ولم يبق سوى 20 مليون فقير في الصين، ورسم الحزب الشيوعي الصيني خطة طموحة لتخليص هؤلاء من الفقر في الذكرى المئوية لتأسيسه بحلول عام 2021.

الخلاصة:

هناك انطباع خاطئ لدى الشعب الصيني والمفكرين الصينيين عن الأوضاع الأمنية في سورية اليوم، حيث ما زالوا يعدونها منطقة حروب واضطرابات وتوترات، وأن الصراع في سورية طويل ومعقد، وهو ما يجعل رجال الأعمال والشركات الصينية يترددون في التوجه إلى سورية، لأن رأيهم تشكل من خلال وسائل الإعلام الغربية، وهذا غير دقيق.

لقد استمرت الحرب على سورية أكثر من 8 سنوات، مما يجعل عملية إعادة الإعمار والمصالحة الوطنية ليست بالأمر السهل، وهذا يحتاج إلى جهود دؤوبة من الحكومة السورية من ناحية، وإلى مشاركة نشطة من المجتمع الدولي من الناحية الأخرى، وتسعى الصين إلى لعب دور في هذا الإطار لأنها مقبولة من جميع الأطراف في سورية (الشعب - الحكومة - المعارضة).

وصحيح أن التنمية تحتاج إلى استقرار سياسي وأمني، لكن يجب ألا يمنع ذلك من البحث عن حلول للمشكلات التي قد تعوق التعاون الاقتصادي أو المشاركة في إعادة الإعمار. ومن المفيد تعزيز وتشجيع الحوار المشترك بين رجال الأعمال السوريين والصينيين، خاصة فيما يتعلق بإيجاد حلول للمشكلات المرتبطة بإعادة الإعمار والتمويل مثلاً، والعمل على الانتقال من تعاون اقتصادي إلى شراكة اقتصادية حقيقية بين البلدين، من خلال الربط الطرقي والسككي وربط خطوط الطاقة بين كل من إيران والصين والعراق وسورية، وهو المشروع الذي كان قد طرحه الرئيس الأسد في العام 2002 كاستراتيجية لتحويل سورية إلى قاعدة لنقل الغاز ومنطقة تجارة حرة تصل الشرق بالغرب، عبر ربط البحار الخمسة، وهو ما رأت فيه الصين إحياءً لطريق الحرير، لتشكيل أطول ممر اقتصادي رئيس في العالم، من سورية إلى الصين، وهذا يتوافق مع مبادرة الحزام والطريق الصينية التي طرحها الرئيس الصيني شي جين بينغ عام 2013. كما تحتاج سورية إلى تطوير النظام المصرفي فيها، وهي بحاجة إلى خبرة الصين في هذا المجال، والبحث عن آليات دفع تعتمد على غير الدولار الأمريكي. ومن المفيد تعزيز العلاقة بين الغرف التجارية والصناعية والزراعية وإقامة غرف مشتركة على هذا الصعيد بين الدولتين، وغير ذلك من مجالات التعاون....

النتائج التي توصل إليها الباحث:

- ينطلق موقف الصين من الحرب على سورية من أمرين، هما: **المكانة الخاصة لسورية في المنظور الاستراتيجي الصيني**، وقناعة الصين بأن البيئة الدولية بدأت تتغير وأن الظروف مواتية لتأخذ الصين مكانها في هرم النظام الدولي. **ورغبة بكين في لعب دور دبلوماسي وسياسي عالمي يتناسب مع تنامي قدراتها الاقتصادية والعسكرية.**

- معارضة الصين لأي تدخل في الشؤون الداخلية للدول كان ومازال محددًا للسياسة الخارجية الصينية، لأن بكين سبق وعانت من التدخل الأجنبي في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ناهيك عن العقوبات التي فرضت عليها بقيادة الولايات المتحدة لسنوات طوال في أثناء الحرب الباردة.

التوصيات:

أقترح الإسراع في افتتاح مركز ثقافي صيني في دمشق، وإرسال بعض خريجي قسم اللغة العربية من الصين ليكملوا دراستهم العليا في سورية، وتأمين فرصة عمل لهم في المركز الثقافي من خلال تدريسهم للغة الصينية هناك. وفتح منح لتعليم الطلاب السوريين في الصين في المرحلة الجامعية وما بعدها؛ وتعليم الصينية في الجامعات السورية بدعم من الحكومة الصينية؛ والعمل على ترجمة الأدبيات الصينية، الأمر الذي يؤسس لعلاقات على مستوى الشعوب.

الهوامش:

- (1) - ياسر علي هاشم، مستقبل الصين في النظام الدولي الجديد، القاهرة: دار المعارف، 2004، ص17.
- (2) - سمير أمين وآخرون، العولمة والنظام الدولي الجديد، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 2004، ص15 - 20.
- (3) - علاء طاهر، العالم الإسلامي في ظل الاستراتيجية العالمية المعاصرة، بيروت: مركز الدراسات العربي الأوروبي، ط1، 1998، ص17 - 20.
- (4) - حيث تصل إلى أوروبا خلال أقل من عشرة أيام، بينما تحتاج إلى أربعين يوماً عندما تتطلق البضائع من الموانئ الصينية.
- (5) - شاهر إسماعيل الشاهر، تجليات الحرب على سورية، دمشق: اتحاد الكتاب العرب، 2008.
- (6) - "طريق الحرير القديم كان يربط الصين بأوروبا عبر وادي فرغانة وإيران، وسورية، وذلك من القرن الثاني إلى القرن الخامس عشر.
- (7) - كانت سورية ومصر أول دولتين في المنطقة تقيمان علاقات دبلوماسية مع الصين في عام 1956، بينما لم تعترف المملكة العربية السعودية بها حتى عام 1990، ولم تقم "إسرائيل" علاقات دبلوماسية معها حتى عام 1992.
- (8) - Susan V.Lawrence. U.S. CHINA RELATIONS: AN OVERVIEW OF POLICY ISSUES, Congressional Research Service, August 1,2013.
- (9) محمد نبيل، "الصناعات العسكرية الصينية ومبيعاتها لدى الشرق الأوسط"، مجلة السياسة الدولية، نيسان 2000، على الرابط:
Serial=219828&eid=39875http://digital.ahram.org.eg/articles.aspx
- (10) المرجع السابق.....
- (11) - سنية الحسيني، "سياسة الصين تجاه الأزمة السورية هل تعكس تحولات استراتيجية جديدة في المنطقة؟"، مجلة المستقبل العربي، العدد 440، تشرين الأول 2015، ص41.
- (12) محمد السيد سليم، "واقع ومستقبل التحالفات في آسيا"، مجلة السياسة الدولية، السنة 47، العدد183، كانون الثاني، 2011، ص52.
- (13) - وكذلك الثورة البرتغالية في أوكرانيا 2004 - 2005 لقطع الطريق الأوروبي، والاضطرابات في نيكاراغوا عام 2018 لعرقلة بناء قناة جديدة تربط المحيطين الهادي والأطلسي.

- (14)- « *La Chine se déploie au Proche – Orient* », par Thierry Meyssan, Réseau Voltaire, 25 janvier 2016.
- (15)- استخدمت الصين حق الفيتو ضد مشاريع قرارات دولية ذات صلة بالأزمة السورية، ولم تكتفِ بالامتناع عن التصويت كما كانت تفعل سابقاً حيال أزمات المنطقة.
- (16) – مجموعة باحثين: أحمد يوسف أحمد، نيفين مسعد، محرران، **حالة الأمة العربية (2011 - 2012) معضلات التغيير وآفاقه**، ط1، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2012، ص52.
- (17) UNHCHR, Report of the Fact – Finding Mission on Syria pursuant to Human Rights Council resolution S - 16/1, Geneva, Office of the High Commission for Human Rights, 18 August 2011, viewed 3 July 2012, http://reliefweb.int/sites/reliefweb.int/files/resources/Full_Report_965.pdf
- (18)- إسراء غريب محمد، "أثر السياسة الخارجية الروسية على منطقة الشرق الأوسط: دراسة حالة الأزمة السورية (2011 - 2017)", المركز الديمقراطي العربي، 2017.
- (19)- See AFP, 'China's Syria policy guided by principle: analysts', France 24, 7 June 2012, viewed 3 July 2012: <http://www.france24.com/en/20120607 - chinas - syria - policy - guided - principleanalysts%ns>
- (20) - يزيد صايغ، "موقف الصين حيال سورية"، مركز كارنيغي للشرق الأوسط (9 شباط 2012، على الرابط: <http://carnegie - mec.org/publications/%fa=47149&reloadFlag=1>
- (21) - مدحت أيوب، "استعادة التوازن.. الثورات العربية وإعادة تعريف نمط الصعود الصيني"، ملحق مجلة السياسة الدولية، العدد (190)، القاهرة: مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية، 2012، ص27.
- (22) - ضمت نحو 600 معمل ومصنع لحوالي مئتي شركة صينية، تنتج العديد من السلع الصناعية وتصدرها من الموانئ والمنافذ السورية إلى 17 دولة، هي العراق والسعودية ولبنان ومصر وليبيا وتونس والجزائر والمغرب وتركيا وجورجيا وأوكرانيا ومولدافيا ورومانيا وبلغاريا واليونان وقبرص.
- (23) - حيث يوجد في الصين 56 قومية، وحوالي 20 مليون مسلم.

تقديرات إسرائيلية حول مستجدات العلاقات بين إيران والصين

إبراهيم عبد الكريم*

مقدمة..

أولت الأوساط الاستراتيجية الصهيونية اهتماماً ملحوظاً للتطورات الجديدة على صعيد العلاقات بين إيران والصين، وتجلت مظاهر هذا الاهتمام بالعديد من المتابعات التي راحت تتناول طبيعة المسارات الجديدة التي كشف عنها في تلك العلاقات، بمضامينها وتفاعلاتها وتأثيراتها على الجانبين، كما عمدت إلى تحري ما يخص "إسرائيل" والموقف الأمريكي، وقدمت لهذه الغاية قراءات عدة ومقترحات تتناول المسألة المثارة.

في هذه المتابعة الدراسية التوثيقية الخاصة بمجلة "الفكر السياسي" محاولة لرصد تقديرات ورؤى إسرائيلية نوعية حول التغيرات في البيئة الجيوسياسية التي اتضح أنها تتشكل حالياً بين إيران والصين، المستندة إلى معلومات جديدة بخصوص اتفاقية شاملة بينهما، وتقديم قراءات، مباشرة أو فيما بين السطور، للطريقة التي يفكر فيها المهتمون الإسرائيليون بشأن هذه البيئة، مع التذكير بأن هوية المادة الإسرائيلية تخضع لأصول وضوابط نمطية محكومة بالمصالح الإسرائيلية أساساً على قاعدة ارتباطها العضوي بالمصالح الأمريكية وبالقوة التحالفية بينهما.

* كاتب وباحث فلسطيني، ورئيس تحرير في مؤسسة الأرض للدراسات الفلسطينية

الحدث / الوثيقة ..

أفضت تحقيقات خاصة أجراها فريق لصحيفة "نيويورك تايمز"، ضم فرناز فاسيهي Farnaz Fassihi وستيفين لي مايرز Steven Lee Myers، وساهم في ذلك دافيد سانجر David E. Sanger وكليفو Claire Fu في بكين، إلى الانفراد بالكشف عن "وثيقة سرية"، تحدثت الصحيفة عنها بتقريرها في 2020/7/11 الذي حدثته بعد ذلك، وتبين فيها أن إيران والصين تقتربان من الشراكة التجارية والعسكرية بينهما في عملية تتحدى الولايات المتحدة(1).

وأوضحت الصحيفة أن من اقترح هذه الشراكة -لأول مرة- هو الرئيس الصيني شي جين بينغ خلال زيارة لإيران، حين التقى بنظيره الإيراني حسن روحاني في عام 2016، حيث أعدت إيران والصين بهدوء شراكة اقتصادية وأمنية شاملة من شأنها أن تمهد الطريق لمليارات الدولارات من الاستثمارات الصينية في الطاقة وقطاعات أخرى، مما يقوض جهود إدارة ترامب لعزل الحكومة الإيرانية بسبب طموحاتها النووية والعسكرية. ويقول تقرير "نيويورك تايمز": إن اتفاقية الشراكة المفصلة التي تتألف -في اتفاق مقترح- من 18 صفحة وحصلت عليه الصحيفة "ستوسع بشكل كبير الوجود الصيني في البنوك والاتصالات والموانئ والسكك الحديدية وعشرات المشاريع الأخرى". وفي المقابل ستحصل الصين على إمدادات منتظمة - وفقاً لمسؤول إيراني وتاجر نفط- منخفضة للغاية من النفط الإيراني على مدى السنوات الـ 25 المقبلة. وتصف الوثيقة أيضاً "تعميق التعاون العسكري، مما يمنح الصين موطئ قدم في منطقة كانت تشغل بال الولايات المتحدة استراتيجياً منذ عقود. وتدعو إلى تدريبات وتمارين مشتركة، وبحوث مشتركة وتطوير الأسلحة وتبادل المعلومات الاستخباراتية، كل ذلك لمحاربة "المعركة غير المتوازنة مع الإرهاب وتهريب المخدرات والبشر والجرائم عبر الحدود". وتنقل الصحيفة عن وزير الخارجية الإيراني محمد جواد ظريف قوله (أوائل تموز 2020): إن الشراكة - التي اقترحها الزعيم الصيني شي جين بينغ لأول مرة خلال زيارة لإيران عام 2016 - وافقت عليها حكومة الرئيس حسن روحاني في حزيران 2020. كما صرح المسؤولون الإيرانيون علانية أن هناك اتفاقية معلقة مع الصين، وأكد مسؤول إيراني - بالإضافة إلى العديد من الأشخاص الذين ناقشوها مع الحكومة

الإيرانية - أن الوثيقة التي تحمل عنوان "النسخة النهائية" بتاريخ حزيران 2020 لم يتم تقديمها بعد إلى البرلمان الإيراني للموافقة عليها أو الإعلان عنها، "مما أثار الشكوك في إيران بشأن مدى استعداد الحكومة للتخلي عن الصين".

ويقول تقرير "نيويورك تايمز": "لم يكشف المسؤولون في بكين، عن شروط الاتفاقية، وليس من الواضح ما إذا كانت حكومة شي جين بينغ قد وقّعت، أو إذا كانت قد أعلنت، متى قد تعلنها، وإذا تم تفعيلها - كما هو مفصل - فإن الشراكة ستخلق نقاط وميض جديدة وخطيرة في العلاقة المتدهورة بين الصين والولايات المتحدة، وإنها تمثل ضربة قوية لسياسة إدارة ترامب العدوانية تجاه إيران منذ التخلي عن الاتفاق النووي الذي توصل إليه الرئيس باراك أوباما وزعماء ست دول أخرى في عام 2015 بعد عامين من المفاوضات الشاقة، حيث نجحت العقوبات الأمريكية المتجددة - بما في ذلك التهديد بقطع الوصول إلى النظام المصرفي الدولي لأي شركة تمارس نشاطاً تجارياً في إيران - في خلق الاقتصاد الإيراني من خلال تخويف التجارة الخارجية والاستثمار للذين تشتد الحاجة إليهما"، "لكن يأس طهران دفعها إلى أحضان الصين التي تمتلك التكنولوجيا والشهية للنفط الذي تحتاجه إيران". وكانت إيران واحدة من أكبر منتجي النفط في العالم، بيد أن صادراتها - أكبر مصدر لإيرادات طهران - تراجعت منذ أن بدأت إدارة ترامب فرض العقوبات في 2018، فيما تحصل الصين على نحو 75 في المئة من نفطها من الخارج، وهي أكبر مستورد في العالم (أكثر من 10 ملايين برميل يومياً عام 2019م). وفي الوقت الذي تعاني فيه الولايات المتحدة من الركود والكورونا، وتزداد عزلتها دولياً، تشعر بكين بالضعف الأمريكي. وبحسب الصحيفة "تُظهر مسودة الاتفاقية مع إيران أنها على عكس معظم الدول، تشعر الصين أنها في وضع يمكنها من تحدي الولايات المتحدة، قوية بما يكفي لتحمل العقوبات الأمريكية، كما فعلت في الحرب التجارية التي شنّها الرئيس ترامب". وطبقاً لصيغة الوثيقة التي كشفتها "نيويورك تايمز": تقول الوثيقة في الجملة الافتتاحية: "إن ثقافتين آسيويتين قديمتين، وشريكتين في قطاعات التجارة والاقتصاد والسياسة والثقافة والأمن مع نظرة متشابهة للعديد من المصالح الثنائية ومتعددة الأطراف سوف ينظران إلى شركاء استراتيجيين آخرين". وطبقاً للصحيفة: "الاستثمارات الصينية في إيران

(...) يمكن أن تحفز المزيد من الإجراءات العقابية ضد الشركات الصينية التي استهدفتها الإدارة بالفعل في الأشهر الأخيرة".

وتذكر "نيويورك تايمز" أن متحدثة باسم وزارة الخارجية الأمريكية كتبت رداً على أسئلة حول مسودة الاتفاقية جاء فيه: "ستواصل الولايات المتحدة فرض تكاليف على الشركات الصينية التي تساعد إيران أكبر دولة راعية للإرهاب في العالم (على حد قول الصحيفة). وبالسماح للشركات الصينية أو تشجيعها على القيام بأنشطة خاضعة للعقوبات مع النظام الإيراني، تقوض الحكومة الصينية هدفها المعلن المتمثل في تعزيز الاستقرار والسلام". وتتابع الصحيفة: "إن توسيع المساعدة العسكرية والتدريب وتبادل المعلومات الاستخباراتية سينظر إليه بقلق شديد في واشنطن، حيث تتشابك السفن الحربية الأمريكية بالفعل بانتظام مع القوات الإيرانية في المياه المزدحمة في الخليج، وتتحدى مطالبة الصين المتنازع عليها دولياً في معظم أنحاء بحر الصين الجنوبي، وقد أعلنت استراتيجية البنتاغون للأمن القومي أن الصين خصم".

ظهرت تقارير عن اتفاقية استثمار طويلة الأمد مع إيران في أيلول 2019، رفضت وزارة الخارجية الصينية السؤال على الفور، ورداً على سؤال حول هذا الموضوع مرة أخرى، ترك المتحدث تشاو لي جيان الباب مفتوحاً أمام احتمال أن الصفقة كانت قيد التنفيذ. وقال: "إن الصين وإيران تتمتعان بصداقة تقليدية، وكان الجانبان على اتصال بشأن تطوير العلاقات الثنائية. ونحن على استعداد للعمل مع إيران لدفع التعاون العملي بشكل مطرد".

وتبعاً للصحيفة: المشاريع - التي تم ذكر نحو 100 منها في مسودة الاتفاقية - تتماشى إلى حد كبير مع طموحات شي جين بينغ لتوسيع نفوذ الصين الاقتصادي والاستراتيجي عبر أوراسيا من خلال "مبادرة الحزام والطريق" (BRI - Belt and Road Initiative)، وهو برنامج مساعدة واستثمار واسع النطاق. وستشمل المشاريع المطارات والسكك الحديدية عالية السرعة ومطرو الأنفاق، وستطور الصين مناطق للتجارة الحرة في ماكو شمال غرب إيران وفي عبادان، حيث يتدفق نهر شط العرب إلى الخليج، وفي جزيرة قشم الخليجية. كما تتضمن الاتفاقية مقترحات للصين لبناء البنية التحتية لشبكة اتصالات G5،

وتقديم نظام تحديد المواقع العالمي الصيني الجديد ، Beidou ، ومساعدة السلطات الإيرانية على فرض سيطرة أكبر على ما يتم تداوله في الفضاء الإلكتروني. وبحسب "نيويورك تايمز": تشمل الحملة الأمريكية ضد شركة اتصالات صينية كبرى، هواوي، قضية جنائية ضد رئيسها المالي، **منغ وانزهو**، لسعيه إلى إخفاء الاستثمارات في إيران من أجل التهرب من العقوبات الأمريكية. ومنعت إدارة ترامب شركة Huawei من المشاركة في تطوير جيل G5 في الولايات المتحدة، وحاولت، من دون نجاح كبير، إقناع الدول الأخرى بالقيام بالشيء ذاته. ويبدو أن المضي قدماً في برنامج استثمار واسع النطاق في إيران يشير إلى نفاذ صبر بكين المتزايد مع إدارة ترامب بعد تخليها عن الاتفاقية النووية. وتقول "نيويورك تايمز" عن **علي غولي زاده** - باحث إيراني في الطاقة في جامعة العلوم والتكنولوجيا الصينية في بكين - قوله: "إن كل من إيران والصين تنظران إلى هذه الصفقة على أنها شراكة استراتيجية ليس فقط في توسيع مصالحهما الخاصة، ولكن في مواجهة الولايات المتحدة. إنها الأولى من نوعها لإيران الحريصة على امتلاك قوة عالمية كحليف". وتدعي "نيويورك تايمز" أن الشراكة المقترحة أثارت جدلاً حاداً في داخل إيران، وواجه، وزير الخارجية **جواد ظريف** - الذي سافر إلى بكين في تشرين الأول 2019 للتفاوض بشأن الاتفاقية - استجاباً معادياً بشأنه في البرلمان. لكن ظريف قال: إن الاتفاقية ستعرض على البرلمان للموافقة النهائية. وقال مسؤولان إيرانيان: إن الوثيقة تحظى بدعم الزعيم الأعلى الإيراني آية الله **علي خامنئي**، ومما جاء على لسان **علي آغا محمدي** - كبير المستشارين الاقتصاديين في إيران - "إن إيران بحاجة إلى زيادة إنتاجها النفطي في اليوم إلى 8.5 ملايين برميل على الأقل، لكي تبقى لاعباً في سوق الطاقة، ولهذا فهي بحاجة إلى الصين".

بالمقابل تغمر "نيويورك تايمز" من طرف مكشوف بأن النقاد عبر الطيف السياسي في إيران أثاروا مخاوف من أن الحكومة "تبيع" البلاد سراً للصين في لحظة ضعف اقتصادي وعزلة دولية، واستشهدوا بمشاريع استثمارية صينية سابقة تركت دولا في أفريقيا وآسيا مديئة في النهاية للسلطات في بكين. وكان مصدر القلق الخاص هو مرافق الموانئ المقترحة في إيران، بما في ذلك اثنان على

طول ساحل بحر عمان؛ أحدهما في جاسك - خارج مضيق هرمز مباشرة - مدخل الخليج، الذي سيعطي الصينيين نقطة استراتيجية على المياه التي يمر بها معظم نفط العالم، هذا المقطع له أهمية استراتيجية حاسمة بالنسبة للولايات المتحدة التي يقع مقر أسطولها الخامس في البحرين. وقد قامت الصين بالفعل ببناء سلسلة من الموانئ على طول المحيط الهندي، مكونة قلادة من محطات إعادة التزود بالوقود وإعادة الإمداد من بحر الصين الجنوبي إلى قناة السويس.

ومن الواضح أن الموانئ التجارية ذات طبيعة تجارية، ومن المحتمل أن تكون للموانئ قيمة عسكرية أيضاً، مما يسمح للبحرية الصينية سريعة النمو بتوسيع نطاقها، وتشمل هذه الموانئ في هامبانتوتا في سريلانكا وجوادار في باكستان، التي يتم انتقادها على نطاق واسع على أنها موطن قدم لوجود عسكري محتمل، على الرغم من أنه لم يتم نشر أي قوات صينية رسمياً فيها. لكن ثمة ما يشير إلى أن الصين عززت تعاونها العسكري مع إيران، حيث زارت البحرية التابعة لجيش التحرير الشعبي الشواطئ الإيرانية، وشاركت في مناورات عسكرية ثلاث مرات على الأقل، منذ العام 2014، وكان آخر هذه المناورات في كانون الأول 2019، عندما انضمت مدمرة الصواريخ الصينية، شينينغ، إلى مناورة بحرية مع البحرية الروسية والإيرانية في خليج عمان. ونقلت وكالة أنباء الصين الجديدة (شينخوا) المملوكة للدولة عن قائد البحرية الإيرانية الأدميرال حسين خانزادي أن التدريبات أظهرت أن "عصر الغزوات الأمريكية في المنطقة قد انتهى".

سواء من حيث التوقيت، أو من حيث التفاصيل التي تضمنتها الوثيقة التي كشفتها "نيويورك تايمز"، يبدو أننا أمام خرق استراتيجي نوعي لا نظير له، ليس فقط على صعيد العلاقات الإيرانية الصينية، بل أيضاً على صعيد التحدي الهائل الذي تتطوي عليه في مواجهة الولايات المتحدة وحلفائها في المنطقة، وعلى خلفية هذا الكشف كان من الطبيعي أن تهرع الأوساط البحثية والسياسية ودوائر تكوين الرأي، في النطاق الإسرائيلي، إلى دراسة الحدث الجديد ومحاولة تحديد ملامحه وتأثيراته في المجالات التي يعمل ضمنها أو يلامسها.

مرحلة جديدة في الشراكة الاستراتيجية بين إيران والصين

تحت هذا العنوان، تناولت دراسة تحليلية مكثفة - نشرها د. مردخاي تشازيزا - (محاضر أول في قسم السياسة وفي كلية عسقلان الأكاديمية في إسرائيل، متخصص في العلاقات الخارجية الصينية والاستراتيجية) - عبر ورقة "وجهات نظر" في مركز بيغن/ السادات للدراسات الاستراتيجية (BESA) في 2020/7/21 - توصلَ إيران والصين إلى ما وصفها "مرحلة جديدة في شراكتهما الاستراتيجية" (2)..

في البداية، لاحظ تشازيزا أن زيارة الرئيس الصيني شي جين بينغ لطهران في كانون الثاني 2016 وضعت الأسس لاتفاقية الشراكة الاستراتيجية الشاملة بين إيران والصين (JCPOA)، ورأى أن البلدين الآن في المراحل النهائية من التفاوض على شراكة اقتصادية وأمنية لها آثار عسكرية، وبرأيه من شأن هذا أن يخلق بؤر توتر جديدة يحتمل أن تكون خطيرة في ميزان القوى في الشرق الأوسط، وسوف تساهم في التدهور المستمر للعلاقات الصينية الأمريكية. وتتبع تشازيزا مسار قيام الصين وإيران في السنوات الأخيرة، في الإعراب عن رغبة مشتركة بإضفاء الطابع الرسمي على شراكتهما الاستراتيجية الشاملة (التي لم تدخل بعد حيز التنفيذ)، من خلال التعاون في مجالات، مثل: التجارة والطاقة والقدرة الإنتاجية، مُعللاً استعدادهم للعمل معاً بأنه ينشأ من الروابط التاريخية التي تعود إلى "طريق الحرير القديم"، وكذلك من المصالح الاقتصادية والسياسية التكميلية.

وتشكل الشراكة الاستراتيجية بين طهران وبكين فوزاً لكلا المجموعتين من المصالح الوطنية. ولاحظ تشازيزا أن الاتفاقية في الأساس بيان نوايا؛ وأنه تم إصدار بيان مشترك في 2016/9/23 حول الشراكة الاستراتيجية الشاملة بين البلدين، وتشمل الشراكة خمسة مجالات رئيسية: السياسة؛ التعاون التنفيذي؛ الاهتمامات الإنسانية والثقافية؛ القضاء والأمن والدفاع؛ والاهتمامات الإقليمية والدولية. كما اتفق الجانبان على تطوير خارطة طريق للشراكة للسنوات الـ 25 المقبلة وزيادة التجارة إلى 600 مليار دولار على مدى السنوات العشر المقبلة. ولكن لم يعمل أي من البرامج التي تمت مناقشتها في الوثائق بشكل كامل

حتى الآن. وفي أيار 2018 أعلن الرئيس ترامب أن الولايات المتحدة تنسحب من خطة العمل الشاملة المشتركة. وقد دفع هذا إلى إعادة فرض عقوبات ثانوية على إيران استؤنفت بالكامل في تشرين الثاني من ذلك العام. وفي الوقت الذي أدت فيه تحركات واشنطن إلى تعقيد الشراكة الاستراتيجية الشاملة بين إيران والصين إلى حد ما، قالت بكين: إنها ستحافظ على التبادل الاقتصادي والتجاري الطبيعي مع طهران على الرغم من إجراءات ترامب. وفي شباط 2019، استضاف الرئيس شي جين بينغ وفداً إيرانياً ضم وزير الخارجية الإيراني جواد ظريف، ووزير النفط بييجن زنفه، ورئيس البرلمان علي لاريجاني. وتحدث شي جين بينغ مع لاريجاني عن الصداقة الدائمة بين البلدين، وقال: "إن تصميم بكين على تطوير شراكتها الاستراتيجية الشاملة لم يتغير بالرغم من التغييرات في الساحتين العالمية والإقليمية". وفي أيار 2019 خلال اجتماع مع ظريف في بكين، قال عضو مجلس الدولة الصيني ووزير الخارجية وانغ يي: "إن الصين تدعم الجانب الإيراني لحماية حقوقه ومصالحه المشروعة". وفي آب 2019 قدم ظريف خريطة طريق إلى نظيره الصيني من شأنها تحديث الشراكة الاستراتيجية الشاملة بين الصين وإيران عبر صفقة مدتها 25 عاماً تتضمن استثماراً صينياً بقيمة 400 مليار دولار في إيران. ولم يتم الإعلان عن معظم التفاصيل الرئيسية لهذا الترتيب للجمهور، على الرغم من أنها تمثل تحولاً مادياً محتملاً في التوازن العالمي لقطاع النفط والغاز.. ويقتبس تشازيزا من موقع Petroleum Economist، تأكيداً على أن "الركيزة الأساسية للخطة الجديدة هي أن تستثمر الصين 280 مليار دولار في قطاعات النفط والغاز والبتروكيماويات في إيران، وأنه قد يتم تحميل هذا المبلغ مقدماً في فترة السنوات الخمس الأولى من الصفقة على أساس الفهم بأنه سيتم توفير المزيد من المبالغ في كل فترة خمس سنوات لاحقة، رهناً باتفاق الطرفين، وسيكون هناك استثمار صيني آخر بقيمة 120 مليار دولار في تطوير البنية التحتية للنقل والتصنيع في إيران، والتي قد يتم تحميلها مرة أخرى من الأمام ثم إضافتها في كل فترة خمس سنوات لاحقة". والأهم من ذلك، برأيه، أن "الاتفاقية سوف تعمق التعاون العسكري الصيني الإيراني من خلال التدريب والتمارين المشتركة، والبحوث المشتركة وتطوير الأسلحة، وتبادل المعلومات الاستخبارية

لمكافحة الإرهاب وتهريب المخدرات والبشر والجرائم عبر الحدود". ويتابع تشازيزا: "ستتمكن الصين من شراء أي من منتجات النفط والغاز والبتروكيماويات بحسم مضمون بحد أدنى 12٪ إلى السعر المنخفض المتداول لمدة ستة أشهر للمنتجات القياسية المماثلة، وقال وزير الخارجية الإيراني ظريف للمُشَرِّعين الإيرانيين: "ليس هناك ما نخفيه بشأن الصفقة، وكانت كل مرحلة منها شفافة، وبمجرد الانتهاء منها سيتم الإعلان عن التفاصيل". ويذكر تشازيزا أنه، وفقاً لطهران، الطرف الإيراني وافق في حزيران 2020م على مسودة خريطة الطريق التي كانت قيد العمل لمدة أربع سنوات، ومع ذلك لا يزال المحتوى المحدد مفتوحاً للجدل والتكهنات الساخنة، وإذا وافق البرلمان الإيراني على مسودة خريطة الطريق فسوف تمثل إهانة خطيرة لسياسة إدارة ترامب لعزل إيران اقتصادياً.

ويتساءل تشازيزا حول أنه لطالما نظرت إيران غرباً نحو أوروبا بحثاً عن شركاء تجاريين واستثمانيين، فلماذا تنظر شرقاً الآن؟.. ويحاول الإجابة عن هذا فيعزوه للأسباب الآتية:

أولاً - انسحاب المزيد من الدول الأوروبية المحبطة التي عارضت سياسة إدارة ترامب تجاه إيران بهدوء من أنواع الصفقات التي وعدت بها خطة العمل الشاملة المشتركة ذات مرة. ورؤية القيادة في إيران أن الشراكة الاستراتيجية مع الصين ستحمي مصالح طهران على المستوى الدولي.

ثانياً - لأن إعادة فرض العقوبات على إيران، بما في ذلك التهديد بقطع الوصول إلى النظام المصرفي الدولي لأي شركة تتعامل مع طهران، يخنق الاقتصاد المحلي من خلال تخويف التجارة الخارجية والاستثمار اللذين تشدد الحاجة إليهما. وتعد الصفقة مع الصين ذات أهمية خاصة لقطاع الطاقة الإيراني الذي يحتاج إلى جذب استثمارات بقيمة 134 مليار دولار في قطاع النفط الأولي و 52 مليار دولار إضافية في صناعة البتروكيماويات. ووفقاً لشركة China Global Investment Tracker، إن قيمة الاستثمار والبناء في صناعة الطاقة الضعيفة في إيران تتجاوز 11.1 مليار دولار في الفترة 2005 -2019.

ثالثاً- يمكن أن تشير المرحلة الجديدة في الشراكة الاستراتيجية الشاملة بين إيران والصين إلى تغير الحسابات الاستراتيجية للدول في فترة ما بعد خطة العمل الشاملة المشتركة. وببطء، ولكن بثبات، تقوم إيران والصين، إلى جانب باكستان وربما العراق وسورية ولبنان، بتشكيل محور يمكن أن يعطل توازن القوى الإقليمي، ويمتد نفوذ الصين إلى حد كبير في الشرق الأوسط. ووفقاً لمسودة الاتفاقية ستتمكن الصين من الوصول إلى مرافق الموانئ في إيران، مما سيمنح الصينيين موقعاً استراتيجياً على المياه التي يمر بها معظم نفط العالم.

رابعاً- في عصر الكورونا، مع ارتداد الولايات المتحدة بسبب الركود وعزلة متزايدة دولياً، تشعر الصين بضعف أمريكا. وتُظهر مسودة الاتفاقية مع إيران أن بكين تعدّ نفسها في موقع جيوسياسي لتحدي الولايات المتحدة، وتشعر أنها قوية بما يكفي لتحمل العقوبات من جانب واحد، كما فعلت خلال الحرب التجارية، ويمكن أن يؤدي الاستثمار الصيني في إيران إلى تحفيز المزيد من العقوبات الصارمة ضد الشركات الصينية التي فرضتها بالفعل الإدارة الأمريكية.

يضيف تشازيزا إلى كل هذه العوامل، بحسب تقديره، أن المشاريع الواردة في مسودة الاتفاقية (المصرفية، والمطارات، والاتصالات عبر شبكات الجيل الخامس، والموانئ، والسكك الحديدية، وعشرات أخرى) متوافقة مع هدف الصين الطموح لتوسيع نفوذها الاقتصادي والاستراتيجي عبر أوراسيا من خلال "مبادرة الحزام والطريق" (BRI) التي تحتل الجمهورية الإسلامية فيها موقعاً جغرافياً استراتيجياً حيوياً يمتد على منطقتين غنيتين بالنفط؛ بحر قزوين والخليج، مما يجعلها لا غنى عنها لـ (BRI).. ويخلص تشازيزا إلى أنه "في حقبة ما بعد خطة العمل الشاملة المشتركة، تواجه العلاقة بين الولايات المتحدة والصين أخطر تحد لها منذ أربعة عقود، وتحتاج القوتان إلى التصالح والتوقف عن مواجهة بعضهما البعض". ويعود تشازيزا للتشديد على أنه "إذا تم وضع الاتفاقية حيز التنفيذ فإن الشراكة الناتجة ستخلق بؤراً جديدة ومحملة الخطورة في العلاقات المتدهورة بين الصين والولايات المتحدة".

لدى محاولة تفسير الحكم الذي أطلقه تشازيزا حول هذه "البؤر الجديدة"، يتعين الوقوف عند مفاصل العلاقات بين "إسرائيل" والولايات المتحدة والصين

وإيران، حيث لن تسمح "إسرائيل" والولايات المتحدة لإيران بالخروج من دائرة العقوبات عبر المنفذ الصيني، وفي هذه الحالة سينشأ احتكاك بين المصالح الصينية والأمريكية، وستُعنى "إسرائيل" بتغذية التوتر بينهما، مع تقديم لفتات للأمريكيين بشأن تقليص الاستثمارات الصينية في البنية التحتية الإسرائيلية. والمهم لـ "إسرائيل" هو حرمان إيران من أن تكون اتفاقاتها مع الصين رافعة اقتصادية وأمنية واستراتيجية تتيح لإيران إجراء تعديلات على الخلل الذي أوجدته العقوبات الأمريكية. وبغياب رافعة كهذه تحلم "إسرائيل" بأن إيران لن تكون قادرة على المضي في مشروعها النووي وفي تحديث ترسانتها العسكرية، كما ستتأثر قدرتها على مواصلة دعم القوى الحليفة لها في المنطقة.

خطة إيران والصين لمدة 25 عاماً : تقييم أولي

نشرت الباحثة أوفيرا سيليكيتار (أستاذة إسرائيلية متفرغة في كلية جراتس، بنسلفانيا)، وفرهاد رضائي (أستاذ العلاقات الدولية بجامعة يورك في تورونتو) "ورقة وجهات نظر" في 2020/7/21 نشرها مركز بيغن /السادات للدراسات الاستراتيجية BESA (3)، لاحظا فيها أن الشراكة الشاملة بين إيران والصين لمدة 25 عاماً التي تم الإعلان عنها حديثاً غير مسبوقه في نطاقها، وفيها "بند غامض" يمنح الصين السيطرة على كيفية إنفاق إيران لمواردها، وهو ما قد يصل في النهاية إلى بيع إيران لسيادتها لبكين، على حد زعمهما. كما أن للتعاون العسكري الوثيق بين البلدين آثاراً كبيرة على الهيمنة الأمريكية على الخليج التي امتدت لعقود على امتدادات واسعة من المحيط الهندي. ويذكر سيليكيتار ورضائي أنه في 23 حزيران 2020، أعلنت الحكومة الإيرانية عن الشراكة الشاملة بين إيران والصين لمدة 25 عاماً، ووفقاً لمسودة مسربة للاتفاقية المكونة من 18 صفحة، فإن ذلك يعد بمثابة تعاون اقتصادي وعسكري وتكنولوجي غير مسبوق بين الدولتين. ويتتبع الباحثان ازدهار العلاقات بين طهران وبكين، التي تعود إلى سياسة الرئيس الإيراني محمود أحمددي نجاد، بالتعاون مع الرئيس الصيني شي جين بينغ الذي يدفع "مبادرة الحزام والطريق" BRI الطموحة. ووفقاً للصين، تهدف BRI إلى إنشاء سوق موحدة ضخمة في آسيا والشرق الأوسط وأفريقيا من خلال استثمارات ضخمة في

البنية التحتية والتعليم والتكنولوجيا، فيما ينظر النقاد إلى BRI على أنها محاولة مستترة رقيقة لتحقيق الهيمنة الاستراتيجية والاقتصادية الصينية على مساحة كبيرة من العالم. وستعمل إيران كمركز إقليمي لـ BRI، مما يمنح الصين مهلة غير عادية عبر مجموعة واسعة من النشاط الاقتصادي، وهذا يشمل إنتاج البتروكيماويات والطاقة المتجددة والطاقة النووية المدنية، والسكك الحديدية عالية السرعة، والطرق السريعة، ومترو الأنفاق، والمطارات، والصناعات البحرية. ومن بين المشاريع المذكورة نظام للسكك الحديدية يربط الشبكة الشرقية والغربية للسكك الحديدية بالإضافة إلى تطوير ساحل مكران على بحر عمان، وهو منفذ إيران إلى المحيط الهندي. ويذكر سيليكتر رضائي أنه في المرحلة الأولى، التزمت الصين بتطوير ميناء جاسك، وبناء المدن الصناعية، وتطوير السياحة في منطقة مكران. ووعدت بكين بإنشاء ثلاث مناطق للتجارة الحرة في ماخو وعبدان وجزيرة كيش الخليجية، لتعزيز الاقتصاد المحلي. ويتعمد سيليكتر ورضائي التركيز على جزء من مسودة الاتفاقية يكشف عن مستوى عالٍ للغاية من التعاون العسكري بين البلدين، وهذا يشمل، من بين أمور أخرى، التطوير المشترك للصناعات الدفاعية، وتبادل المعلومات الاستخبارية، والمناورات العسكرية المشتركة.

وتشير تقارير سابقة إلى أن الصين وإيران تعملان على صفقة أسلحة كبيرة يتم توقيتها لتتزامن مع إنهاء حظر الأسلحة الذي فرضه مجلس الأمن الدولي. ووفقاً للمصادر فقد وعدت الصين باستثمار ما يصل إلى 400 مليار دولار خلال مدة الاتفاقية، وفي المقابل ستزود إيران الصين بتسليم النفط بانتظام، بحسم كبير كما يُزعم. كما تلزم الاتفاقية إيران باستخدام تكنولوجيا الاتصالات وأنظمة الإنترنت من الجيل الخامس في الصين. ويتقدير سيليكتر ورضائي: فوائدها لهذا الترتيب للصين واضحة؛ فهي ستحقق تحولها الاستراتيجي إلى منطقة المحيط الهادئ والهندي، وقد قامت الصين بالفعل ببناء سلسلة من موانئ المحطات اللوجستية على طول المحيط الهندي إلى جيبوتي وقناة السويس، وإن السيطرة على إيران ستعطي الصين وجوداً جانبياً في الخليج ولا سيما عبر ميناء جاسك، الذي يقع خارج مضيق هرمز مباشرة، ويمر عبره معظم نفط العالم. كما أن جاسك مهم أيضاً للولايات المتحدة التي يقع مقر أسطولها الخامس في

البحرين القريبة، وإن الوجود الصيني القوي هناك سوف يزيل عقوداً من الهيمنة الاستراتيجية الأمريكية على الخليج ومساحات من المحيط الهندي. ويشدد سيليكتر ورضائي على أنه بالنسبة للإيرانيين الذين يعملون تحت ضغط شديد من العقوبات الأمريكية، ستكون الصفقة شريان الحياة، وتتص الاتفاقية على أن البلدين مصممان على تنفيذها "في مواجهة ضغوط من دولة ثالثة"، وهي إشارة لا لبس فيها إلى الولايات المتحدة. وفي هذه العبارات ضمناً تهديد صيني للعمل ضد العقوبات القاسية التي تفرضها إدارة ترامب. وسرعان ما أشارت صحيفة كيهان، الناطقة باسم آية الله خامنئي، إلى أن الصين كبيرة وقوية بما يكفي لتحمل البلطجة الأمريكية. ومع ذلك أكد العديد من المحللين أن اللغة القاسية - وربما حتى الاتفاقية بأكملها - هي أكثر من ممارسة للعلاقات العامة، و "إعلان نوايا" من البلدين لتحدي الولايات المتحدة. ويلاحظ هؤلاء المحللون أن العديد من المشاريع التي نفذتها الصين لبناء أكثر من مئة مشروع قد لا تؤتي ثمارها أبداً. ويعتقد سيليكتر ورضائي أن عبارة "الطريقة المثلى" لاستثمار إيران للأموال تشير إلى تأثير أكبر لشراكة 25 عاماً، فالاستقرار ضروري إذا أرادت الصين أن تستفيد من استثماراتها البالغة 400 مليار دولار، وبكين مستعدة للضغط على إيران للامتناع عن مغامرات السياسة الخارجية.

بصدد الاستقرار المشار إليه هذا، ثمة ما هو أكثر من تلميح إلى أن الصين لن تماشي إيران في توجهاتها الإقليمية، وضمناً في موضوع المواجهة بين محور إيران وحلفائها في المنطقة ومحور خصومها، فما تريده الصين عبر التركيز على الاستقرار هو إطلاق عملية اقتصادية أمنية استراتيجية تحقق شراكات ثنائية أو جماعية بشأن أهداف تخفيض الذهب في المنطقة وحماية خطوط الملاحة والمواصلات البرية.

الصفقة الصينية الإيرانية.. بالون تجريبي برسالة واضحة

وفق هذا الحكم يقدم د. جيمس م. دورسي (زميل أول غير مقيم في مركز بيغن /السادات للدراسات الاستراتيجية BESA "ورقة وجهات نظر" في 22/7/2020(4)، يذهب فيها إلى أن إيران اكتشفت سلاحاً جديداً في ظل اتفاق تعاون مع الصين ينقل رسائل إلى خصومها، وذلك بسبب العقوبات الأمريكية

القاسية والانكماش الاقتصادي العالمي، وأنها ترى للصين الفضل في هذا الترتيب أيضاً، وإن كان أقل ضعفاً من الناحية الاقتصادية. ويلاحظ دورسي أن اتفاقية تعاون صيني - إيراني مهنية مدتها 25 عاماً تثبت أنها أعمال جيدة، وأن مجموعات المقالات والتحليلات وتعليقات النقاد حولها تضمن تسليم رسائل البلدين بصوت عال وواضح، فالعديد من الاتفاقيات التي وقعها الرئيسان شي جين بينغ وحسن روحاني خلال زيارة الزعيم الصيني للشرق الأوسط في عام 2016، إذا تم تنفيذها، ستوسع العلاقات الاقتصادية بين البلدين بقيمة من 10 إلى 600 مليار دولار وتعزيز التعاون العسكري بشكل ملحوظ، حيث أبرمت تلك الاتفاقيات، التي أشارت إلى ميل صيني محتمل تجاه إيران، في وقت كان يُتوقع فيه تخفيف كبير للعقوبات الأمريكية ضد إيران كجزء من الاتفاقية الدولية لعام 2015، التي قيدت برنامج إيران النووي، وقد تحطمت هذه الآمال عندما انسحب الرئيس دونالد ترامب من الاتفاقية في عام 2018، وأعاد فرض العقوبات الموقوفة. ومنذ ذلك الحين التزمت الصين بشكل عام بالقيود الأمريكية.

وبعد ذلك يتوقف دورسي عند بدء إيران (تموز 2020) بوضع الجسد على الهيكل العظمي لاتفاق بين بكين وطهران من خلال تسريب مسودة نهائية مزعومة لاتفاقية شراكة مدتها 25 عاماً تتوخى ما يصل إلى 400 مليار دولار من الاستثمارات الصينية لتطوير قطاعات النفط والغاز والنقل الإيرانية. ومع أنه لا يوجد شيء نهائي حول المسودة، فليس هناك، بتخمين دورسي، أكثر من بالون تجريبي، لكن هذا جيد لطهران وبكين، حتى لو كان الطرفان يرغبان في التعاون على نطاق أكبر بكثير إذا سمحت الظروف الجيوسياسية بذلك. ويرى دورسي أنه، في الوقت الحالي، لا يزال هناك طريق تفاوضي طويل لإبرام اتفاق، وهو بالتأكيد ليس جاهزاً للتنفيذ بعد، ولكن هذا لا يعني أنه لا يوجد اتجاه صعودي على الفور.. وفي متابعة قراءة الحدث يبين دورسي أنه من خلال تأجيل الحديث عن اتفاق وشيك، تشير إيران إلى أن إدارة بايدن المحتملة بعد الانتخابات الرئاسية الأمريكية في تشرين الثاني 2020، والسياسات الأوروبية قد تدفع الجمهورية الإسلامية إلى أحضان بكين. كما سيسمح لإيران بتمرير اقتراح على السعودية بأنه عندما تنخفض الرقائض، ستكون طهران، وليس الرياض،

التي ستتجه إليها الصين، وأن الصين تستفيد من الهواء الساخن الإيراني من خلال تضخيم رسائلها تجاه الولايات المتحدة والمملكة، مع أن دورسي مقتنع بأن رد فعل الصين اقتصر رسمياً على صيغة غير ملزمة وتسجيل شبه رسمي، وكان المتحدث باسم وزير الخارجية تشاو لي جيان - وهو من دعاة النهج الصيني الحازم للدبلوماسية الذي تم تبنيه حديثاً - لبقاً بشكل استثنائي في تعليقه، بيد أن دورسي يشكُ بحقيقة أن الصين وإيران تتمتعان بصدقة تقليدية، وكان الجانبان على اتصال بشأن تطوير العلاقات الثنائية. ويسوق دورسي رأياً للباحث في الشرق الأوسط فان هونغدا في صحيفة شنغهاي أوبزيرفر، وهي صحيفة تابعة للحزب الشيوعي، مفاده أن الاتفاق، على الرغم من أنه ليس قريباً من التنفيذ، لكنه يسلط الضوء على "لحظة مهمة من التطور" في وقت سمحت فيه التوترات الأمريكية الصينية لبكين بدفع مبالغ أقل للالتفات إلى السياسات الأمريكية. وعند قول هذا، كان فان هونغدا يردد تحذير الصين من أن الولايات المتحدة تعرض الكثير من المخاطر من خلال تصعيد التوترات بين أكبر اقتصادين في العالم، ويمكنها دفع الصين إلى النقطة التي لم تُعدْ تُعدُّ فيها التكلفة المحتملة لمواجهة السياسة الأمريكية مرتفعة بشكل محذور، ويعطي دورسي أهمية لرؤية قدمها نيو شين تشون، مدير دراسات الشرق الأوسط في معاهد الصين للعلاقات الدولية المعاصرة (CICIR)، التي يُنظر إليها على نطاق واسع على أنها أكثر مراكز الفكر تأثيراً في الصين، وفيها يقول تشون: "بالنسبة للصين إن الشرق الأوسط دائماً ما يكون على مقربة من الاستراتيجيات العالمية الاستراتيجية للصين بشأن COVID-19، ومع الاقتران بأزمة أسعار النفط سيتغير الشرق الأوسط بشكل كبير، وهذا سيغير نموذج الاستثمار الصيني في الشرق الأوسط. ومن العينات التي يناقشها دورسي حدوث تحول مثير للاهتمام، يمكن أن يشير إلى شهية الصين للعب البطاقة الإيرانية قريباً، حيث أسقطت إيران الهند كشريك في تطوير خط للسكك الحديدية من ميناء تشابهار في أعماق البحر المدعوم من الهند بسبب التأخير في التمويل الهندي، وأعفت إدارة ترامب تشابهار من نظام العقوبات الخاص بها. وافتتح وزير النقل والتنمية الحضرية الإيراني محمد إسلامي مؤخراً خط السكة الحديدية الأول الذي سيربط في النهاية تشابهار بأفغانستان. وقال مسؤولون إيرانيون: إن طهران

ستمول خط السكة الحديدية بنفسها، لكن الصين وإيران عبرتا عن اهتمامهما بربط تشابهار بميناء جوادر، ميناء بحر العرب المدعوم من الصين، الواقع على بعد 70 كيلومتراً من الساحل الباكستاني. وقد أدى الانكماش الاقتصادي نتيجة الوباء إلى إحياء الشكوك حول جدوى جوادر، جوهر التاج في الممر الاقتصادي الصيني الباكستاني (CPEC) الذي يبلغ حجمه نحو 60 مليار دولار، وهو أكبر استثمار منفرد في الصين يتعلق بمبادرة BRI. ويعتقد دورسي أن الولايات المتحدة قد لا ترى أن صفقة بين إيران والصين من المحتمل أن تغير قواعد اللعبة أصبحت وشيكة، لذا تمسكت إدارة ترامب بسياساتها طويلة الأمد حتى الآن. وقال متحدث باسم وزارة الخارجية الأمريكية: "ستواصل الولايات المتحدة فرض تكاليف على الشركات الصينية التي تساعد إيران، (التي تزعم أمريكا) أنها أكبر دولة راعية للإرهاب في العالم".

في هذه المعالجة أيضاً محاولة لاستكناه بنية التفاعلات الجديدة بين إيران والصين، وكأن الأمر يتعلق بالإصرار على معرفة التفاصيل المرتبطة بها، لأنه تكمن في هذه التفاعلات مفااتيح تأثيرات العلاقات الإيرانية الصينية على شبكة المصالح الأمريكية الغربية الإسرائيلية في المنطقة، وخاصة في المجالات التي تمتلك فيها إيران ميزات نسبية في النطاقات البرية والبحرية التي قد تثير مشكلات وتجرب تعقيدات جديدة على تلك الشبكة.

هل تستعد إيران والصين لاتفاقية استراتيجية طويلة المدى؟

تحاول الإجابة عن هذا التساؤل، ورقة بحثية مشتركة نشرها مركز دراسات الأمن القومي بجامعة تل أبيب (نظرة عليا = مباط عال 2020/7/22)، لثلاثة باحثين متخصصين هم: (سيما شاين، وإيال فروفر، ويات حان فلدمان) (5)، يلاحظون فيها بداية أن مسودة الاتفاق الاستراتيجي بين الصين وإيران لـ 25 عاماً، التي نشرتها صحيفة "نيويورك تايمز"، تعطي الصين أفضلية في الاستثمارات في مشاريع بنى تحتية في إيران، في مجالات عدة بينها المواصلات، الموانئ، الشوارع، القطارات، البنوك والاتصالات، وذلك إلى جانب التعاون في مجالات الأبحاث والتطوير والاستخبارات، إضافة إلى إمكانية إجراء تدريبات عسكرية مشتركة. وفي المقابل تلتزم إيران بتزويد منتظم للنفط والغاز

للصين، وبتخفيض أسعار لفترة طويلة. وتتص مسودة الاتفاق أيضاً على تشكيل لجنة عسكرية مشتركة للصناعات العسكرية وتطوير أسلحة.. ويذكر الباحثون (شايين وفروفر وفلدمان) أن المداولات بين الجانبين حول الاتفاق جاءت استمراراً لزيارة الرئيس الصيني شي جين بينغ لطهران عام 2016، التي جرى خلالها تحسين العلاقات وتحويلها إلى "تعاون استراتيجي شامل". وجرى خلال زيارة شي جين بينغ لإيران توقيع 17 اتفاقاً، والاتفاق على توسيع التبادل التجاري بعشرة أضعاف، ليصل إلى 600 مليار دولار، "وثمة شك إذا كانت الصين ستفي بغايته حتى لو لم تسحب الولايات المتحدة من الاتفاق النووي عام 2018، وفرضت عقوبات اقتصادية واسعة على إيران أدت إلى تراجع حجم التبادل التجاري بين الصين وإيران". ومع أن الكثير من الاتفاقيات بين الجانبين "بقيت حبراً على ورق" بعد أربع سنوات من زيارة شي جين بينغ، إلا أن الصين استمرت في استيراد النفط من إيران. ويجزم الباحثون (شايين وفروفر وفلدمان) بأن لإيران مصلحة باتفاق كهذا مع الصين في ظل العقوبات الأمريكية، وأن الرئيس حسن روحاني عبّر عن أمله بتوقيع الاتفاق في آذار 2020.. ويحاول الباحثون التشويش على الحدث الجديد، بالحدث عن تعالي الانتقادات والتخوفات في شبكات التواصل الاجتماعي من أن إيران ستتحول إلى "محمية صينية"، وأن الصين تقمع أقلية الإيغور المسلمة. بينما في الواقع تعالت أصوات مؤيدة للاتفاق، وترى فيه حبل الإنقاذ الهام للاقتصاد الإيراني. كما أن الزعيم الأعلى لإيران، السيد علي خامنئي، عبر عن تأييده لهذا الاتفاق. وتمت الإشارة إلى أن "للتعاون بين الصين وإيران مصلحة واضحة لطهران"، خاصة أن إيران موجودة الآن في إحدى أصعب الفترات التي شهدتها، بسبب الوضع الاقتصادي المتدهور إثر العقوبات الأمريكية، وانخفاض سعر النفط وتبعات وباء كورونا، وبسبب اغتيال قاسم سليمانى وكارثة إسقاط الطائرة الأوكرانية، والضغط الأمريكي لتمديد حظر بيع الأسلحة لإيران، والتفجير في نطنز (تموز 2020). ويقدر شايين وفروفر وفلدمان أن إيران تأمل بأن الانشغال بالاتفاق سيضمن استمرار معارضة الصين لمحاولة أمريكية لتمديد سريان حظر الأسلحة على إيران في مجلس الأمن الدولي، وسيسمح لها لاحقاً بالتسلح بسلاح صيني، وربما يُحسن ذلك من مكانتها في المفاوضات لشراء أسلحة من روسيا، ويُخفي الصينيون اهتمامهم

باتفاق كهذا مع إيران، والجهات الرسمية تكاد لا تتطرق إليه، باستثناء المتحدثة باسم وزارة الخارجية التي قالت: "إن الصين تتعامل باهتمام مع التعاون مع دول أخرى. وإيران دولة صديقة تحظى بتعاون طبيعي مع الصين". وفي موازاة علاقات الصين مع إيران، فإن ثمة علاقات وثيقة لها، تعززت في السنوات الأخيرة مع السعودية والإمارات اللتين تصفهما الصين بأنهما "شريكان استراتيجيان" أيضاً. ومن المرجح أن تدرس بكين، كجزء من قرارها بالمصادقة على الاتفاق مع إيران، التبعات على علاقاتها مع الشركيات الخليجيات الأخريات، وستحاول تحييد قسم من التخوفات والتكهنات التي ظهرت في وسائل الإعلام العربية، على خلفية التعاون بين الصين وإيران، وخاصة في السياق العسكري.

وفيما يتعلق بـ"إسرائيل"، يقدر شاين وفروفر وفلدمان أن الصين ستحافظ على التوازن في علاقاتها مع إيران ومع دول الخليج العربية، وهدف الاتفاق مع إيران ليس إبرام حلف عسكري ضد الولايات المتحدة أو السعودية و"إسرائيل". وبعقدهم أن أهمية "إسرائيل" في هذه الحالة ضئيلة بالنسبة للصين، ولا تؤخذ بالحسبان في مجمل اعتباراتها، باستثناء التخوف الصيني من هجوم عسكري إسرائيلي على المنشآت النووية في إيران، الذي قد يشعل حرباً إقليمية، ويؤدي إلى تقويض الاستقرار في المنطقة، وسيدرس الصينيون مستوى المخاطر لدى مصادقتهم على اتفاق كهذا، وسيترددون في دفعه قدماً إذا شعروا أن استثماراتهم المالية ستستهدف بسبب استمرار نشاط إيراني مُتحدٍ سينعكس على استقرار المنطقة واستقرار إيران الداخلي أيضاً. وجدير أن تستعرض "إسرائيل" هذا الجانب مقابل الجهات الصينية الرسمية.

الاتفاق بين الصين وإيران يوجب على "إسرائيل" البدء في الابتعاد عن بكين

ضمن هذا العنوان الصارخ، ثمة دعوة صريحة أطلقها البروفيسور ياكوف نيغيل (عميد احتياط، هو زميل أبحاث في معهد الدفاع عن الديمقراطيات (FDD)، ويعمل كأستاذ زائر في كلية الطيران والفضاء في التخنيون، وعمل سابقاً كمستشار للأمن القومي لرئيس الوزراء نتنياهو والرئيس الفعلي لمجلس الأمن القومي.. ومارك دوفوفيتش) مستثمر ومدير سابق في سوق رأس المال

والتكنولوجيا الفائقة، ويعمل حالياً كرئيس تنفيذي لشركة FDD ، حيث يركز على إيران والصين.(6)

وباعتقاد نيغيل ودوفوفيتش، يُعدّ الاتفاق المتحقق بين إيران والصين اتفاقاً "منقذاً للنظام"، وشراكة واسعة اقتصادياً وأمنياً، فالصينيون سيستثمرون نحو 400 مليار دولار على مدى 25 سنة في إيران، مقابل نفط إيراني بتنزيلات كبرى، وسيتم الاتفاق بالطبع بالعقوبات الشديدة المفروضة على التجارة مع إيران، والجهد الأمريكي لعزلها في استراتيجية "أقصى الضغط". وبالنسبة "لإسرائيل" يجب على الصفقة بين شريك اقتصادي مركزي(اليوم) "لإسرائيل" وعدوها الأساس أن تشكل جرس إنذار مقلق؛ فالصين ليست صديقة "إسرائيل"، وبالتأكيد ليست بديلاً عن الدعم الأمريكي. ويستذكر نيغيل ودوفوفيتش أن الصفقة مع الصين، التي أقرها مجلس الوزراء الإيراني، ستوسع الوجود الصيني في البنوك، وفي وسائل الإعلام، وفي الموانئ والمطارات، وفي القطارات وفي مشاريع البنى التحتية في إيران. وسيضمن الاتفاق تعاوناً عسكرياً، وسايبر وتكنولوجيا، وتأهيلات وتدريبات مشتركة وكذلك التعاون في تطوير السلاح والاستخبارات.

ومرة أخرى ظهرت إشارة إسرائيلية إلى ردود الفعل في إيران، وقد كانت سلبية، وفي حاشية الرئيس روحاني شجبهه، فبحسب فهمهم أن إيران الضعيفة ستنتهي كطرف خاسر في الصفقة، وفي نهاية العملية تنشأ رافعة تسمح للصينيين بالسيطرة على البنى التحتية الحرجة وعلى المقدرات الطبيعية في الدولة. والطريقة هي جزء من الاستراتيجية الصينية، المسماة "مبادرة الحزام والطريق"، التي تنفذ في أكثر من مئة دولة. أما النظام في طهران بالمقابل فيفهم أن الصفقة يمكنها أن تنقذ الاقتصاد الإيراني، وستكون بمثابة "إصبع في العين" للولايات المتحدة، وستسمح للنظام بالاعتماد على الصين وعلى قدراتها، مع التشديد على نموذج التعقب للمواطنين، مما سيزيد احتمالات حماية الحكم.. فالعقوبات الأمريكية على إيران، التي ردت بنوكاً صينية وشركات طاقة عن التقدم في صفقات هامة في إيران، سيفتح فرصاً رائعة للتعاون. ويقدر نيغيل ودوفوفيتش أنه -بالنسبة لـ"إسرائيل" - مجرد الحديث

عن الاتفاق هو إشارة واضحة إلى أنه حان الوقت لتغيير السياسة وللبداء بالانفصال عن الصين، فإيران هي العدو الأكثر خطراً على "إسرائيل"، وزعماءؤها يقسمون على إبادة الدولة اليهودية ويطورون برنامجاً نووياً وصواريخ باليستية قادرة على حمل الرؤوس المتفجرة النووية. وتمول إيران وتسليح حماس والجهاد وحزب الله الذي جمع أكثر من 150 ألف صاروخ على الحدود الشمالية، مع وجود إيران وحزب الله في عملية متواصلة من إدخال قدرات السلاح الموجّه الدقيق إلى المنطقة، قدرات تغير قواعد اللعب وتهدد بالمس برموز الحكم، وبالمنشآت العسكرية، وبالبنى التحتية وبالمراكز المدنية وإلحاق ضرر كبير بـ"إسرائيل". ويشير نيغيل ودوفوفيتش إلى أن الصين هي الخصم الخطير للولايات المتحدة الحليفة الأهم لـ"إسرائيل"، والصينيون ينشرون تكنولوجيايات النووي والصواريخ للأنظمة -التي يسميها - المارقة، مثل: إيران وكوريا الشمالية وباكستان، ويهددون هونغ كونغ، وتايوان وبحر الصين الجنوبي، ويسرقون ملكية فكرية وينفذون خروقات فظة لحقوق الإنسان.

ويقول نيغيل ودوفوفيتش:

لقد كتب الصينيون وأخفوا معلومات حيوية عن الكورونا كان يمكنها أن تساعد العالم على منع المصيبة الإنسانية والاقتصادية.. ويناقدان المعضلة بالنسبة لـ"إسرائيل"، فيقدران أن الانفصال لن يكون بسيطاً، فالصين هي أحد الشركاء الاقتصاديين المركزيين ومصدر مهم للاستثمارات المالية، بعد الولايات المتحدة وأوروبا، فقد بلغت التجارة الصينية - الإسرائيلية في عام 2018 نحو 15.3 مليار دولار، بمعدل 4.400 في المئة زيادة عن عام 1995، وترى الصين في البنى التحتية الحرجة في "إسرائيل" جزءاً من مشروعها للتوسع العالمي، وهذا يشمل ميناء حيفا الذي يتسبب بالتوتر بين "إسرائيل" والولايات المتحدة، وميناء أسدود، والأنفاق في الكرمل، والقطار التحتي في تل أبيب، ومنشآت تحلية المياه وغيرها، ومن ثمّ فالأهمية الاستراتيجية للبنى التحتية واضحة، ولا سيما في ضوء حقيقة أن جزءاً منها يعمل إلى جانب منشآت عسكرية، ومراكز تجارية وغذاء وخدمات حيوية أخرى. ويشدد نيغيل ودوفوفيتش على أن الصين حددت التكنولوجيا العليا (الهاي تك) الإسرائيلية كمصدر تكنولوجي حيوي في بناء أسلحة الجيل القادم حتى وإن كان تحت غطاء استثمارات "مدنية"، ووجدت

شركات "الانطلاق" الإسرائيلية 325 مليون دولار من مستثمرين صينيين في ثلاثة أرباع عام 2018، مقابل 67 مليون دولار في عام 2013، والاستثمارات الصينية استراتيجية وتستهدف استخدام العلم الإسرائيلي في مجالات الذكاء الاصطناعي والحواسيب المتطورة والسيارات المتحركة بالتحكم الذاتي... إلخ، هذه التكنولوجيات اعترف بها البنتاغون كحيوية لجهود الحداثة العسكرية، حتى لو كانت "مدنية" في تطبيقها الحالي ..

وفي إطار التوصيات التي يقدمها نيغيل ودوفوفيتش، تظهر دعوة "إسرائيل" لأن تعيد تقويم العلاقات مع الصين، لأن الحديث يدور عن مصلحة استراتيجية مركزية لضمان عدم تآكل التفوق العسكري الإسرائيلي والأمريكي، إذ إن مخططي الاستراتيجية الإسرائيليين كفيكون بأن تغريهم فكرة أن العلاقات الاقتصادية بين الصين و"إسرائيل" ستؤثر على الشراكة الكبرى لبكين مع طهران، وهذا بالطبع وهم؛ فالصينيون سيكسبون ما يمكنهم، وفقاً لاحتياجاتهم، من "إسرائيل" ومن إيران، من دون تفضيل أو خوف، أما إذا اضطرت الصين إلى الاختيار، فلا شك أنها ستختار إيران القادرة على أن توفر لها الطاقة الحرجة لوجودها، والتي لا يمكن "لإسرائيل" أن توفرها، فعدد سكان إيران أكبر بثمانية أضعاف، والأرض أوسع بـ 75 ضعفاً. وفضلاً عن كل هذا فإن إيران هي عدو أمريكا اللدود الذي يمكن للصين أن تستخدمه في المنافسة العالمية أمام الولايات المتحدة، وكل هذا يضع الولايات المتحدة و"إسرائيل" في جانب واحد والصين وإيران في الجانب الآخر في الحرب الباردة الناشئة بين القوى العظمى. وكمحصلة لهذه العوامل، يجزم نيغيل ودوفوفيتش بأنه لا مفر "لإسرائيل" غير الوقوف في الجانب الأمريكي، بما في ذلك في السياسة الرسمية، وأصحاب القرار في "إسرائيل" ليسوا مطالبين بأن يقرروا أنظمة أو تشريعات تخنق القطاع الخاص؛ فهم ببساطة ملزمون بأن يضمنوا ألا تتخذ القرارات المتعلقة بالاستثمارات الاستراتيجية من البيروقراطيين الذين لا تحركهم إلا أجندة محلية ضيقة. وبحسب نيغيل ودوفوفيتش: إن حكومة "إسرائيل" ملزمة بأن تساعد المستثمرين في التكنولوجيا عندها على استخدام قدرات الشراكات الاستراتيجية مع الهند واليابان وأستراليا وكندا وسنغافورة ودول مشابهة، إلى جانب العلاقات مع دول الخليج (وحماية المصالح الأمنية)،

هذا الاستخدام الحيوي لتشخيص رأسمال بديل للاستثمارات الصينية. ودون أي موارد يؤكد نيغيل ودوفوفيتش - أنه إلى جانب التجسيد باللموس للالتزام الإسرائيلي بفك الارتباط عن الصين - ستتشأ فرص أخرى لتعميق التعاون بين "إسرائيل" والولايات المتحدة، فالتعاون التكنولوجي والعسكري والاستخباري سيرتفع درجة أخرى، وسيعمق التعاون السياسي، وعندما يعمل الصينيون على إمكانية التعاون مع أسوأ أعداء "إسرائيل"، فلا بديل لـ "إسرائيل" غير التقرب من صديقتها الأفضل والإبقاء على مسافة مع خصمها الأكبر.

ومن منظور تحليلي محايد، تتصف طروحات نيغيل ودوفوفيتش حول السلوك الإسرائيلي إزاء الاتفاقية بين إيران والصين، بقدرتها على تحديد مكان المصالح الإسرائيلية الأمريكية المشتركة، فهما ينطلقان من موقع إمكانية تأذي هذه المصالح جرأً أيّ مساع إيرانية لتجاوز العقوبات والتضييق على إيران. ومن الواضح أنه في خلفية هذه الطروحات دراية بماهية الحدث الجديد وبالنتائج الواعدة على المدى الطويل لصالح إيران.

تعبيرات أخرى عن المخاوف والغضب الإسرائيلي:

وفق النمطية ذاتها تناول المحلل السياسي البارز يوني بن مناحيم، الخبير في "مركز القدس للشؤون العامة والسياسية"، في مقال تحليلي نشره موقع نيوز ون 2020/7/19، قدر فيه منذ المقدمة أن "إسرائيل" تحتاج إلى إعادة النظر في سياستها تجاه الاستثمارات الصينية في البلاد، وفي الوقت ذاته تسريع الحرب السرية ضد البرنامج النووي الإيراني. وأوضح فيه أن "إسرائيل" تراقب عن كثب التقارب بين إيران والصين والتوقيع المحتمل بينهما على اتفاقية أمنية اقتصادية بسبب العقوبات الأمريكية المفروضة على إيران وعلى خلفية المواجهة التجارية بين الولايات المتحدة والصين، مبيناً أن إيران تبحث عن شريان حياة جديد بعد أن يتعرض اقتصادها لخطر الانهيار بعد العقوبات الأمريكية الفعالة، حيث ستستثمر الصين 400 مليار دولار في صناعة الطاقة الإيرانية والصناعات الأخرى المتضررة من العقوبات الأمريكية، وهي استثمارات في مجالات البنية التحتية والاتصالات والبنوك والموانئ والسكك الحديدية مقابل توريد النفط بسعر مخفض لمدة 25 عاماً، كما أن الاتفاقية لها جانب عسكري، وهذا ما يقلق

"إسرائيل"، حيث سيساعد الصينيون إيران في التعاون الاستخباراتي، في تطوير الأسلحة، بما في ذلك القدرات السيبرانية والمناورات العسكرية المشتركة، ومن المتوقع أيضاً أن يزود الصينيون إيران بأحدث أنظمة الأسلحة، خاصة في المجال الجوي، وليس من المستبعد أن تشتري إيران طائرات مقاتلة جديدة مصنوعة في الصين أو تقنيات متقدمة للطائرات الإيرانية. ويلفت بن مناحيم إلى أنه قد يصبح الصينيون أيضاً مع مرور الوقت شركاء في البرنامج النووي الإيراني، وبمجرد دخول الصين في المشروع النووي الإيراني، قد يقلل هذا من حرية "إسرائيل" في العمل ضد برنامج إيران النووي، وتتبع الصين مسار روسيا نحو تحقيق مصالحها في إيران، ووقعت أيضاً على الاتفاق النووي الذي انسحب منه الرئيس ترامب في عام 2018 بما يرضي "إسرائيل". ومع أنه ليس من الواضح لـ/بن مناحيم/ إذا ما كانت الاتفاقية الجديدة بين الصين وإيران ستؤدي إلى تغيير في موقف الصين ضد البرنامج النووي الإيراني، لكن هذا الاحتمال لا يمكن استبعاده، فبمجرد التوقيع على الاتفاقية سيزيد من ثقة إيران في نفسها، فإن الإيرانيين مصممون على مواصلة مشروعهم النووي، وسوف يستمدون الكثير من التشجيع من هذا الاتفاق، وستوفر الاتفاقية صناعة النفط الإيرانية وتحييد العقوبات الأمريكية التي خفضت صادرات النفط الإيرانية من 3 ملايين برميل من النفط يومياً إلى 100 ألف برميل على الأقل يومياً، وتستورد الصين 10 ملايين برميل قد يصبح النفط يومياً، وإيران هي التي تزود الصين بنسبة 90 في المئة من كمية النفط التي تحتاجها كل يوم. ويؤكد بن مناحيم كغيره من المحللين الإسرائيليين أن الاتفاقية تمثل ضربة صينية للولايات المتحدة في المواجهة التجارية بينهما ولسياسة الرئيس ترامب، وستزيد من مشاركتها في الشرق الأوسط، وتعزز مرونة إيران تجاه العقوبات الأمريكية، وتسمح لها بتطوير قدراتها العسكرية وزيادة التهديد "إسرائيل"، ولم يتضح بعد متى ستوقع، لكنها قد تحدث في غضون بضعة أشهر.. وحول كيف تتصرف إسرائيل؟، ينبّه بن مناحيم إلى أنه يمكن للاتفاق بين إيران والصين أن يشير بالتأكيد إلى أن الصين قد غيرت سياستها تجاه إيران، وأصبحت مصالح مهمة فيما يتعلق بها، ومن ثم فـ"إسرائيل" التي لديها علاقات جيدة مع الصين تحتاج إلى إعادة فحص علاقاتها معها، وخاصة بعدما حذر الأمريكيون "إسرائيل" من تورط الصين في الاستثمارات الإسرائيلية، حيث

قام وزير الخارجية مايك بومبيو بزيارة خاصة إلى "إسرائيل"، وحذر المستوى السياسي من أن مشاركة الصين في الاستثمارات الإسرائيلية يمكن أن يكون لها عواقب وخيمة على علاقات "إسرائيل" مع الولايات المتحدة، ويطالب الأمريكيون "إسرائيل" بإلغاء أو تقليص الاتفاقية التي وقعتها مع شركة صينية بشأن تشغيل ميناء حيفا، وعليها أن تدرس ذلك بجدية وأن تدرس سياستها فيما يتعلق بالتعاون مع الشركات الصينية في مجالات التكنولوجيا والبنية التحتية للنقل. ويربط بن منحيم بين آفاق الاتفاقية والأحداث الجديدة المتمثلة بالهجمات السيبرانية المتبادلة بين إيران و"إسرائيل" والانفجار الذي وقع في منشأة الطرد المركزي المتقدمة في نطنز والذي تمكن من تأخير عملية تخصيب اليورانيوم في طريقها إلى أول قنبلة نووية، ويشير إلى أن التقارير الواردة من إيران تفيد بأن الإيرانيين ينوون إعادة تأهيل المنشأة ونقلها عميقاً إلى الأرض للدفاع ضد المزيد من الهجمات الإسرائيلية أو الأمريكية. ويذكر بن منحيم أن مشاركة الصين المحتملة في المشروع النووي الإيراني بعد الاتفاقية المتوقع توقيعها يعد علامة حمراء "لإسرائيل"، ويتطلب منها الإسراع في الحرب السرية على البرنامج النووي الإيراني حتى قبل أن تصبح الصين في الواجهة وشريكاً مساعداً لإيران في المشروع. ويزعم بن منحيم أن "إسرائيل" يمكن أن تستخدم علاقاتها الجيدة مع الصين لتهدئة إيران، ولكن التقييم في "إسرائيل" هو أن هذا أمر ميؤوس منه، وأن الإيرانيين يسرعون نحو القنبلة النووية. ويخلص بن منحيم إلى أن الإيرانيين يلعبون لعبة الشطرنج في البحر المتوسط بحكمة، فبمجرد أن تغلق الولايات المتحدة و"إسرائيل" أبوابهما، يفتحان طرقاً جديدة للتحايل على العقوبات الأمريكية، ويحاولان كسب الوقت على أمل أن تؤدي نتائج الانتخابات الأمريكية المقبلة إلى تغيير كبير في موقف الإدارة تجاه إيران. ويتفق بن منحيم مع الرأي السائد بأن تعزيز علاقات إيران مع الصين يضر بالولايات المتحدة و"إسرائيل"، لذا يوصي المستوى السياسي بوجود التصرف العاجل(7).

ورغم أنه لم يصدر تعليق رسمي إسرائيلي على اتفاق الشراكة الاستراتيجية بين إيران والصين، لكن يُستشف من متابعة مهتمين على صلة بالمؤسسة الإسرائيلية الحاكمة وجود صدى للغضب الإسرائيلي بشأن الاتفاق. ومن العينات المثيرة للاهتمام تحليل رون بن يشاي، محلل الشؤون الأمنية في

صحيفة "يديعوت أحرونوت"، الذي يبين فيه أن تطبيق هذا الاتفاق سيشكل "طوق نجاة للاقتصاد الإيراني الغارق تحت العقوبات الأمريكية، وسيزيد من مكانة الصين كقوة (دولية) ومن انخراطها في الشرق الأوسط، كما، سيوجه ضربة قوية لسياسات الرئيس دونالد ترامب في الشرق الأوسط ولمكانة الولايات المتحدة كقوة دولية". وبحسب بن يشاي: إن الاتفاق "في المستقبل البعيد، قد يهدد "إسرائيل"، وإن ما يثير اهتمام "إسرائيل" والولايات المتحدة بشكل خاص هو الجزء المتعلق بالتعاون التكنولوجي والعسكري، فبحسب مسودة الاتفاق، ستنشئ الصين شبكة اتصالات خليوية من الجيل الخامس (G5)، وستحصل إيران على إمكانية الوصول إلى نظام التموضع العالمي (GPS) التابع لشبكة الأقمار الصناعية الصينية "بايدو"، بالإضافة إلى تدريبات مشتركة للبحريتين الصينية والإيرانية، كما يتحدث الاتفاق عن أبحاث عسكرية مشتركة وعن تعاون استخباراتي، وينص الاتفاق "بشكل واضح، على تعاون صيني مع إيران للدفاع السيبراني، مثل مشروع "فاير وول" الصيني الضخم. ويتقدير بن يشاي ستكون تأثيرات واضحة لحصول إيران على خدمات مشروع "فاير وول". ورجح بن يشاي أن تتأثر العلاقات الإسرائيلية الصينية، بسبب أن الاتفاق يقوِّض أولاً مكانة الولايات المتحدة كقوة عالمية وعامل مؤثر في الشرق الأوسط، بالإضافة إلى أن تطبيق الأجزاء المتعلقة بالتعاون التكنولوجي والعسكري سيضرّ بقدرة الولايات المتحدة و"إسرائيل" على إحباط البرنامج النووي الإيراني، خصوصاً إن قرّرت إيران الحصول على قنبلة وكانت هناك حاجة لإحباط ذلك بوسائل عسكرية. وأضاف بن يشاي أن استخدام إيران تقنيتي GPS و G5 الصينيتين بالإضافة إلى التعاون الاستخباراتي "سيصعب على "إسرائيل" تتبّع ما يجري في إيران، وسيؤدّي إلى أن يحسّن الإيرانيون منظومات تدقيق الصواريخ بكل أنواعها، عندهم وعند حلفائهم في لبنان وسورية واليمن، أمام الوسائل الدفاعية التي تشغلها "إسرائيل". لكنّ بن يشاي طرح فرضية أخرى، هي أن يكون الاتفاق عاملاً كابحاً لإيران، "وهذا ما قد يصبّ في صالح "إسرائيل"، بشكل غير مباشر، فالصين قد تكبح الطموحات النووية الإيرانية ونشاطاتها في الشرق الأوسط بسبب أن الصينيين لا يريدون القضاء على استثماراتهم في البنى التحتية الإيرانية والمنشآت الحساسة في أي مواجهة عسكرية كبيرة أو عبر مواجهة

سيبرانية ضخمة بين "إسرائيل" وإيران أو بين الولايات المتحدة وحلفائها العرب وبين إيران". ويفترض بن يشاي أن سياسات الصين تجاه إيران، إن طُبّق الاتفاق، "ستكون مشابهة جداً لسياسات الصين تجاه كوريا الشماليّة، وسياسات روسيا تجاه سورية"، أي "الامتناع عن التداخل في المواجهة طالما أن مصالحها لم تتضرر" (8).

وكتب **عاموس هرتيل**، محلّل الشؤون الأمنية في صحيفة "هآرتس"، تحليلاً شرح فيه سلسلة الأحداث الأمنية في إيران التي تزيد الضغط على النظام، وأن جزءاً من الرد عليها يأتي على شكل اتفاقية اقتصادية وأمنية مع بكين التي تحقق موطئ قدم مهم في المنطقة، ويمكن أن تكون بمثابة ثقل موازن للاحتكاك الأمريكي الإسرائيلي مع النظام. ويصف هرتيل الاتفاق بأنه "اصطفاف صيني واضح إلى جانب إيران، وأنه سيخفف الضغط الاقتصادي على طهران، وفي ظروف متطرفة أكثر بإمكان الصين أن توازن الاحتكاك الأمريكي - الإسرائيلي مع النظام الإيراني حول البرنامج النووي". وبعد أن افترض هرتيل، نظرياً، وجود تصعيد إضافي (في الضغط الاقتصادي)، دعا إلى وجوب الأخذ بالحسبان - وبشكل جدّي - رد الفعل المحتمل لبكين (9).

.. أما **يعكوف كاتس**، رئيس تحرير صحيفة "جيزوزاليم بوست"، فكان أكثر اندفاعاً، فكتب مقالاً استهجن فيه كيف لا تزال "إسرائيل" تعمل مع بكين؟، منطلقاً من أن الأمر لا يتعلق بـ "إسرائيل" لصالح الولايات المتحدة التي هي في حرب تجارية مع الصين، بل يتعلق الأمر بحماية الأمن القومي الإسرائيلي. وبهذا الصدد دعا **يعكوف كاتس** "إسرائيل" إلى عدم منح الصين مناقصات ضخمة في البنى التحتية الإسرائيلية، من المقرر أن تقدّم أوراقها نهاية آب المقبل. وقال كاتس: "إن الشركات الصينية التي قدّمت مناقصات للعمل في البنى التحتية الإسرائيلية تعمل في إيران أيضاً، مثل شركة CREC، التي تسعى للحصول على مناقصة لبناء محطة طاقة "ألون تابور" الإسرائيلية (بالشراكة مع شركات إسرائيلية)، وتعمل في بناء خطّ قطار طهران - أصفهان.

وأوضح كاتس أن جميع الشركات الصينيّة العاملة في "إسرائيل" مملوكة من الحكومة، إما مباشرة وإما بشكل غير مباشر، وقادرة على تقديم أسعار

أقل بكثير من المنافسين الإسرائيليين، وأن الولايات المتحدة نجحت في أيّار الماضي في سحب مناقصة بناء محطة لتحلية مياه البحر في "إسرائيل" من شركة صينيّة، بالإضافة إلى إغلاق الباب أمام استثمار الصين في شبكة G5 الإسرائيليّة.

وكشف كاتس عن أنه في نهاية آب 2020، ستقدم مجموعة من مجموعات البناء الدولية عروضها مقابل مناقصة تقدر بـ 15 مليار شيكل (نحو 4 مليارات دولار) لإنشاء الخطّين الأخضر والأرجواني للسكك الحديدية الخفيفة في تل أبيب. هذا هو واحد من أكبر مشاريع البنية التحتية في التاريخ الإسرائيلي، ويهدف إلى ربط أجزاء من غوش دان في الوسط بمركز تل أبيب، وما يجعل العطاء جديراً بالملاحظة هو أنه من بين المجموعات الست التي تمت الموافقة عليها مسبقاً لتقديم مقترحات، تشمل ثلاث منها شريكاً صينياً، وبالإضافة إلى ذلك إن جميع الشركات الصينية الثلاث مملوكة للدولة. ويتساءل كاتس: لماذا هذا مهم؟، ويجيب: لأن الصين وإيران صاغتا بهدوء شراكة اقتصادية وأمنية ستشهد استثمار مليارات الدولارات الصينية في مشاريع البنية التحتية الإيرانية، وبعبارة أخرى، بينما تتعامل الصين مع العدو الأول لـ "إسرائيل"، فإن "إسرائيل" تتعامل مع الصين، ويمكن للمرء أن يقول: إنه بينما تقيد التقارير أن إسرائيل تشن معركة سرية ضد البرنامج النووي الإيراني بيد واحدة (سلسلة الانفجارات الأخيرة في جميع أنحاء البلاد)، من ناحية أخرى فإنها تمنح الصين مليارات الدولارات التي يمكن أن تشق طريقها بعد ذلك إلى إيران. إحدى المجموعات المتنافسة على المناقصة تشمل CRRC، وهي شركة صينية مملوكة للدولة فازت قبل عامين بمناقصة لتزويد عربات السكك الحديدية للخط الأحمر مقابل 1.2 مليار شيكل. وتعمل CRRC بالفعل في إيران، وقبل بضع سنوات، وقعت على عقود ضخمة لتزويد الإيرانيين بسيارات مترو الأنفاق. كما تشمل مجموعة CREC، أكبر شركة بناء في الصين، وتعاونت مجموعة ثالثة مع China Harbour Engineering، التي شاركت في بناء ميناء أشدود، وفازت شركة China Harbour Engineering بعطاء بقيمة 1.9 مليار شيكل مع شريك إسرائيلي لشراء محطة ألون تافور للطاقة، وهي أولى خمس محطات

كهرباء تابعة لشركة الكهرباء الإسرائيلية سيتم خصصتها، وكل من هذه الشركات هي أيضاً في إيران CREC . وكمثال، في منتصف بناء مشروع السكك الحديدية بين طهران وأصفهان، علمت شركات البناء الإسرائيلية أن NTA Metropolitan Mass Transit System المسؤولة عن تصميم وبناء نظام البنية التحتية في تل أبيب منحت عقداً لشركة صينية لبناء جسر في وسط تل أبيب، وهو مشروع كان من الممكن أن تنفذه شركة بناء إسرائيلية، ولكن تم منحه بدلاً من ذلك إلى الصين. ويبين يعكوف كاتس أن كل هذا تتم ملاحظته في واشنطن، حيث تستمر إدارة ترامب في فقدان رباطة جأشها بعد كل صفقة جديدة توقعها "إسرائيل" مع الصينيين.

ويوضح كاتس أن التقارير التي تفيد بأن الصين تبرم الآن صفقة استراتيجية مع إيران تؤكد المشكلة، وليس من الصعب تخيل أنه إذا فازت إحدى المجموعات الصينية في مناقصة تل أبيب القادمة، فإن جزءاً من 15 مليار شيكل تدفعها "إسرائيل" ستنتقل ببساطة من حساب مصرفي في بكين إلى حساب في طهران. ويتساءل: هل هذا ما تريده "إسرائيل"؟ ويقول: يجب أن يكون الجواب واضحاً، ولكن للأسف، يبدو أنه مع الكثير من القضايا الأخرى هذه الأيام، فهو ليس كذلك، فبصرف النظر عن سيفوز في الانتخابات الأمريكية دونالد ترامب أو جو بايدن، من المحتمل أن الولايات المتحدة لا تزال تريد من الحلفاء الأمريكيين قطع العلاقات المالية مع الصين، ويجب أن يكون هذا وحده سبباً كافياً لإيقاف الاستعانة بمصادر خارجية للبنية التحتية للدولة إلى بلد أجنبي، ولكن إذا لم يكن الأمر كذلك، فيجب أن توضح الصفقة مع إيران ما يحدث(10).

استخلاصات ..

اتسمت المعالجات البحثية الإسرائيلية لموضوع الاتفاق الاستراتيجي بين إيران والصين بأنها عبّرت بوضوح، وبنفس مغلولة، عن القلق والهواجس الكابوسية المترتبة على الحدث الجديد وأفاقه، ولم يكن هناك ما يسمى "كسر حاجز التوقع" بشأن الموقف التلقائي من الاتفاقية، بل كان هناك إجماع بطريقة حانقة إزاء الأذى الذي يلحق بالولايات المتحدة وحلفائها جراء الاتفاقية..

- ولوحظ أن هذه المعالجات انطوت على المضامين الرئيسية الآتية:
- تخندقت مع التوجهات الأمريكية إزاء الاتفاقية.
 - عمدت إلى تحريض الولايات المتحدة والغرب على إيجاد شرخ بين إيران والصين وخلق إشكالات تحول دون تمرير الاتفاقية أو إخراجها إلى حيز التطبيق.
 - عُنيت باستعداد المحيط العربي على إيران.
 - حرصت على إسباغ النزعة العدوانية على الجدوى الإيرانية من الاتفاقية.
 - حاولت إشاعة أجواء للعبث بالوضع الداخلي الإيراني لتوليد قوة نابذة للاتفاقية.
 - لم تسوِّغ للصين بحثها عن مصالحها الذاتية في مواجهة الحرب الاقتصادية والسياسية التي تشنها الولايات المتحدة في ساحتها الداخلية ومحيطها على المسرح الدولي، بل زجت الاتفاقية في مسار التصادم مع الجهود الدولية الرامية لحل الأزمة وتسوية موضوع العقوبات على إيران.
 - لم تتردد في مطالبة "إسرائيل" بإجراء تعديل على طبيعة علاقتها مع الصين في موضوعات تعاقباتها بشأن البنية التحتية الإسرائيلية.
- على الجانب الآخر من المتراس تمضي إيران باقتدار ممنهج في طريق امتلاك مقومات الطاقات الكفيلة بالحفاظ على أمنها القومي، وتأخذ التوجهات الاستراتيجية الإيرانية بالحسبان قدرتها الذاتية والتعاونية والتسيقية مع الدول التي تحتفظ معها بعلاقات موضوعية ومصالح متشابكة على توظيف هذه العلاقات دون أن تستدرج هذه الدول إلى تفاصيل المشروع الاستراتيجي الإيراني الذي يسعى للجم الهجمة الأمريكية الغربية على المنطقة ومنعها من تحقيق مصالحها الذاتية على حساب شعوب هذه المنطقة.
- بطبيعة الحال ليس من السهل على الخصوم متابعة مآلات الطريقة الجديدة التي تتصرف فيها إيران وقدرتها على توظيف علاقاتها العادية مع الأصدقاء، مع الرغبة في ألا تشكل هذه العلاقات عبئاً على توجهاتها الاستراتيجية الشاملة. وهذه خصيصة تُحسب لإيران من حيث قدرتها على تمييز النطاقات الجزئية لهذه

التوجهات، إذ مرة أخرى، من المتعذر أن تسمح إيران بأن يجثم خصومها على صدرها طالما أنها تقيم اعتباراتها على أسس الترابط العضوي بين مقدراتها المادية والسياسية والأمنية، بصورة تكاملية.

ومع أن إيران تتفق مع الصين في جزء كبير من التوجه الخاص بالحفاظ على الأمن والاستقرار العالميين، لكن حسابات إيران غير مقتصرة على ذلك، لأن المشروع الإيراني ببساطة يبني تطلعاته على مواجهة الإملاءات التحالفية الإسرائيلية الأمريكية الرامية للتحكم في المنطقة وتمير حلول تصفوية وتطبيعية تتعارض مع مساهمة مشروع النهوض الإيراني بواقع الأمة وتجنّبها الرضوخ لتلك الإملاءات.

مصادر البحث والإحالات المرجعية :

(1) Farnaz Fassihi and Steven Lee Myers, Defying U.S., China and Iran Near Trade and Military Partnership..

<https://www.nytimes.com/2020/07/11/world/asia/china-iran-trade-military-deal.html>

(2) Dr. Mordechai Chaziza ,China and Iran Reach a New Stage in Their Strategic Partnership, July 21, 2020, BESA Center Perspectives Paper No. 1,654, July 21, 2020

<https://besacenter.org/perspectives-papers/iran-china-strategic-partnership/>

(3) Ofira Seliktar and Farhad Rezaei ,The Iran-China 25-Year Plan: A Preliminary Assessment ,July 21, 2020, BESA Center Perspectives Paper No. 1,653, July 21, 2020

<https://besacenter.org/perspectives-papers/iran-china-25-year-plan/>

(4) Dr. James M. Dorsey ,The China-Iran Deal: A Trial Balloon with a Clear Message ,July 22, 2020, BESA Center Perspectives Paper No. 1,655, July 22, 2020

<https://besacenter.org/perspectives-papers/china-iran-deal-trial-balloon/>

(5) האם איראן וסין לקראת הסכם אסטרטגי ארוך - טווח.. סימה שיין , אייל פרופר , בת חן פלדמן - מבט על , גיליון 1352 , 22 ביולי 2020

<https://www.inss.org.il/he/publication/china-iran-agreement/?offset=1&posts=1333&type=219>

(6) יאקوف ניגיל , ומארק דופופיטש , ישראיל היום 2020/7/28..ההסכם בין סין ואיראן מאותת: על ישראל להתחיל להתרחק מבייג'ינג -

תת -אלוף (מיל') פרופ' יעקב נגל - מארק דובוביץ.. הרابط : <https://www.israelhayom.co.il/article/785175>

(7) יוני בנימין , مخاوف إسرائيلية من اتفاق بين إيران والصين ، موقع نيوز

ون 2020/7/19.. יוני בני -מנחם , חשש ישראלי מהסכם בין אירן לסיין.. הרابط :

<https://www.news1.co.il/Archive/0026-D-142469-00.html>

(8) رون بن يشاي ، الاتفاقية التي قد تغير قواعد اللعبة في الشرق الأوسط ،

موقع ידיעות أحرونות 2020/7/17.. רון בן ישי, ההסכם שעשוי לשנות את כללי המשחק במזרח התיכון..

الرابط: <https://www.ynet.co.il/article/BJ0A11ppJv>

(9) عاموس هرثيل، تحشد إيران الصين للمواجهة مع الولايات المتحدة، ويمكن أن تعقد الحرب ضد البرنامج النووي، هآرتس 2020/7/17.. لعموم הראל، סין מגייסת את איראן לעימות עם ארה"ב, ויכולה להקשות גם על המאבק בתוכנית הגרעין .. الرابط:

<https://www.haaretz.co.il/news/politics/.premium.highlight-1.8998578>

(10) يعكوف كاتس، الاتفاق بين الصين وإيران، لماذا لا تزال إسرائيل تعمل مع بكين؟، جيروزاليم بوست 2020/7/16 ..

YAAKOV KATZ, After the China-Iran deal, why is Israel still working with Beijing? JULY 16, 2020

<https://www.jpost.com/opinion/after-the-china-iran-deal-why-is-israel-still-working-with-beijing-635342>

توصيف النظام العربي الراهن في علاقته بالفكرين القومي والقطري

د. رحيم هادي الشمخي*

محاولة لضبط المصطلحات والمفاهيم:

تكاد ثنائية القومي والقطري تختصر الجانب الأساسي من الفكر السياسي العربي الحديث والمعاصر، وتحديدًا منذ البدايات الأولى للدولة القطرية العربية وما رافقها من ضمور حاد في مقولات الفكر القومي العربي الإبلاغي للمرحلة الطوباوية التي طالت النصف الأول من القرن العشرين وسنوات طويلة في النصف الثاني منه حتى هزيمة حزيران / يونيو / 1967 و بروز القطرية النفطية بشكل واضح في أعقاب انتصار حرب تشرين الأول / أو أكتوبر 1973. لسنا في مجال دراسة هذه الثنائية لأن عناوين الأبحاث التي تناولتها تكاد تفوق سطور هذه المقالة، وذلك باللغة العربية أو بلغة عالمية حية، لذلك سنقتصر بحثنا على معالجة تجليات هذه الثنائية أو صراع القومي والقطري في المرحلة الراهنة من تاريخ العرب المعاصر.

ورغم كثرة الدراسات، العلمية والانفعالية أو الإبلاغية أو الدعائية، في هذا المجال فإن الباحث المدقق سيجد نفسه أمام صعوبات منهجية كبيرة تتطلب تدقيقاً صارماً في استخدام المصطلحات والمفاهيم، وأولى تلك الصعوبات أن يصار إلى تحديد علمي لمصطلح "القومي" والمفاهيم الكثيرة المرتبطة به،

* كاتب وباحث عراقي.

وكذلك إلى تحديد مصطلح "القطري" الذي يقابله وما رافقه من مفاهيم شائعة ليس من السهل حصرها، وتزداد الصعوبة حدة مع تقسيم المرحلة الزمنية الممتدة منذ الحرب العالمية الأولى، أي بدايات تشكل معظم الدول القطرية العربية في ظل السيطرة الاستعمارية الأوروبية، وبعد الحرب العالمية الثانية، حيث بدأت الغالبية الساحقة من الأقطار العربية تنال استقلالها السياسي تبعاً وعبر أشكال متنوعة، منها السلمي عبر المفاوضات، ومنها العسكري عبر الثورات الوطنية الشاملة.

كان الخطاب السياسي القطري، في مرحلة التأسيس خاصة، يتكئ في معظم مفاهيمه الأساسية، على الفكر السياسي القومي انطلاقاً من مقولة هامة ترى في التحرر من الاستعمار الخارجي خطوة أولى على طريق الوحدة القومية المرجوة، لكن النتائج التي رافقت قيام الأنظمة القطرية العربية المستقلة بعد الحرب العالمية الثانية جاءت مخيبة لآمال القوى الوحدوية على امتداد الوطن العربي، خاصة أن بعض الأنظمة القطرية رفعت درجة مشروعيتها إلى مستوى الدولة الوطنية المكتفية بذاتها، والتي وظفت دماء شهدائها في حرب التحرير الوطنية لخدمة انكفائها القطري عن محيطها القومي وسعيها الدؤوب لإعادة ربط اقتصادها تبعياً بالسوق الإمبريالية العالمية، وليس بسوق امبريالية واحدة كما كانت الحال إبان السيطرة الاستعمارية المباشرة.

إن قراءة متأنية للفكر السياسي العربي المعاصر، بشقيه القومي والقطري، تؤكد اختلافاً حاداً في المصطلحات والمفاهيم داخل القطر العربي الواحد من جهة، وفي العلاقة التبادلية بينهما على المستوى العربي من جهة أخرى، ومع ذلك يمكن إيجاد سمات مشتركة في كل منهما يمكن استخدامها عند تحديد مأزق الفكر القطري العربي وأزمة مصداقية مشروعه السياسي الراهن. في الوقت نفسه لا بد من إبراز مأزق الفكر القومي الوحدوي التقليدي بمفاهيمه الطوباوية الرومانسية السابقة أو المستقاة من تجارب الوحدتين الألمانية والإيطالية اللتين قادتا إلى النازية والفاشية، ودفع الشعبان الألماني والإيطالي وشعوب العالم كله ملايين الضحايا لدحر النزعة الشوفينية العنصرية في بعض الدعوات القومية، لذلك لا بد من تأكيد على مقولة علمية هامة ترى أن فكر الوحدة القومية العربية لا يمكن أن يعيش وينمو إلا في إطار

من العمل السياسي الديمقراطي والحرية التامة بكامل أبعادها على المستويين: الإنساني الفردي والنظام السياسي المعبر بصدق عن الحاجات الأساسية والأمني المشروعة لجماهير الشعب العربي.

على قاعدة هذه الرؤية المنهجية يمكن بلورة أهم السمات الضرورية التي ليست سوى محاولة لتحديد المفاهيم الأساسية التي ارتبطت بكل من الفكرين: القومي والقطري، وأبرزها:

أ. من سمات الفكر القطري ومصطلحاته ومفاهيمه التجزئة والتفتيت والانفلاق والدولة القطرية والحدود الإقليمية والانتماء القطري والنزوع القطري والوطنية القطرية والدولة الانشطارية وقابلية تجزئة التجزئة، والإقليمية الثقافية، والحفاظ على الإرث الاستعماري، واحتضان المذاهب والإيديولوجيات القطرية الدينية، واحتضان الزعامات القبلية والعائلية والطائفية والمذهبية، والنزوع نحو التنمية القطرية وهدر الطاقات والإمكانات، واستخدام العنف القطري ضد النزوع الوحدوي للجماهير الشعبية وغيرها.

ب. من سمات الفكر القومي التوحيدي على صعيد المصطلحات والمفاهيم: الوحدة القومية، التاريخ الواحد، اللغة الواحدة، الحضارة العربية الواحدة، الدين الإسلامي الذي يضم الغالبية الساحقة من العرب، الأنساب العربية التي تنتمي إليها غالبية العرب، النزوع الطبيعي إلى التضامن العربي أو التكامل العربي أو التراجع العربي أو التسيق بين الدول العربية، الشعور بالخطر الكبير الذي يهدد العرب في مختلف أقطارهم خاصة من العدو الصهيوني والإمبريالية العالمية وبعض النزعات التوسعية الإقليمية، السعي الدائم للوصول إلى الوحدة القومية العربية الشاملة ودولتها المركزية الفاعلة، النزوع الدائم إلى الديمقراطية لإطلاق طاقات الإنسان العربي ورفض كل القيود القطرية والطبقية التي تعيق تحركه، السعي إلى إقامة مؤسسات وحدوية شمولية على امتداد الوطن والتمسك بما هو قائم منها وتطويرها كجامعة الدول العربية والمنظمات التابعة لها..

على صعيد المنهج النظري أيضاً تبلغ علاقات التباين والاختلاف بين القطري والقومي أقصى تجلياتها وتتسم بمنتهى السلبية، ويكفي في هذا المجال إبراز

بعض السمات الأساسية التي يُصنّف بها المفكرون الوجوديون حركة الفكر القطري العربي منذ الحرب العالمية الأولى حتى الآن، والعكس صحيح أيضاً، ففي نظر المفكرين الوجوديين العرب فإن الفكر القطري سكوني، تفتيتي، تبعي، انشطاري، عاجز عن حل أي من المشكلات الأساسية للوطن العربي المعاصر، وبالمقابل فإن مقولات الفكر الوجودي العربي خلال تلك المرحلة هي، في نظر المفكرين القطريين، مقولات عاطفية، رومانسية، منسوخة عن التجارب الغربية، غير فاعلة على الساحة العربية، لا تتطرق من الواقع الملموس بل تحاول القفز فوقه وتهرب إلى الأمام، تعادي لفظياً الدولة القطرية لكنها تخضع لقراراتها، تستند إلى مقولة طوباوية حول وحدوية الجماهير العربية المفككة بين الدول القطرية وغير القادرة على تشكيل جبهات قوية حتى في داخل القطر الواحد.

في ظروف هذه اللوحة المعقدة يبدو الانحياز المطلق إلى أي من التيارين انحيازاً لا معنى له طالما هو موقف عاطفي لا يستفيد منه البحث العلمي، كما أن استنباط منهج توفيقٍ وسطي بين الوجودي والقطري يأتي بمثابة الهروب النظري الذي يخفي موقفاً تكنوقراطياً يعتمد على باحث أجنبي يتعامل بدم بارد مع الأحداث العربية دون اتخاذ موقف منها، ويرفض تبنيه باحث عربي يرى نفسه منحازاً فعلاً إلى حركة الجماهير الشعبية الوجودية في الوطن العربي، بهدف إنارة الطريق أمامها لمجابهة التحديات الكبرى في المرحلة الراهنة.

لعل المنهج الأفضل لدراسة العلاقة بين القومي والقطري في الوطن العربي هو المنهج المركب وليس المنهج وحيد الجانب، ومن سماته الأساسية أنه منهج تاريخي يدرس الظاهرة القطرية على ضوء تكوينها وثيق الصلة بالمشروع الإمبريالي لتفكيك الوطن العربي في أعقاب المرحلة العثمانية الطويلة، وهو منهج دينامي ينظر إلى العناصر الدينامية في الظاهرة القطرية التي ساعدت على تطورها وإبقائها حاضرة في النفوس والنصوص معاً طيلة هذه المدة التي أعقبت الحرب العالمية الأولى حتى الآن، وهو منهج صراعي يرى في الظاهرة القطرية نواة مشروع سياسي لقوى داخلية وخارجية أعاققت العمل الوجودي وقطعت الطريق على قيام الوحدة العربية ودولتها المركزية، وهو منهج مستقبلي لا يكتفي بتحليل ماضي الظاهرة القطرية بل يحلّل حاضرها ومستقبلها أيضاً،

وبالتالي موقعها الراهن في المشروع الامبريالي الصهيوني المستمر منذ القرن التاسع عشر ضد المصالح الأساسية للشعب العربي، وهو منهج تفاعلي يحلل الظاهرة القطرية بعلاقتها التفاعلية مع الفكر القومي العربي الوجودي، فقد اضطر الفكر القومي إلى التخلي عن الكثير من مقولاته الطوباوية السابقة، وبات بحاجة إلى تجديد جذري في نظريته للواقع العربي الراهن وآفاق تطوره المستقبلي، كذلك اضطر الفكر القطري إلى التخفيف من نزعاته الانفصالية السابقة والتفتيش عن وحدات قطرية تكاملية يرى فيها المدخل الواقعي للوحدة العربية.

على ضوء هذا المنهج المركب سنحلل مأزق المشروع القطري العربي الجديد في علاقته بالواقع العربي الراهن.

ثمة جوانب منهجية واردة في هذا العنوان تتطلب التوضيح حتى لا يقع الالتباس، فالنظام العربي الراهن مصطلح سياسي ارتبط بالضرورة مع قيام الأنظمة العربية المستقلة، فالحقل الزمني لهذا النظام يعود إلى ولادة جامعة الدول العربية في 22 آذار/ مارس 1945 كتجمع لسبع دول عربية نالت استقلالها حديثاً بعد الحرب العالمية الثانية، وعُدّت دولاً مستقلة ذات سيادة معترف بها إقليمياً ودولياً، ثم تزايد عدد الدول العربية المستقلة حتى وصل إلى 23 دولة اليوم بعد الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية كدولة في المنفى تُعدُّ الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني.

في هذه المقالة لن نتناول الجذور التاريخية للنظام العربي الراهن، علماً أن تلك الجذور مهمة وغنية جداً إلا أنها بحاجة إلى دراسات مستفيضة لإبراز الإرث الاستعماري العثماني من جهة والإرث الاستعماري الأوروبي من جهة أخرى، والذي ما زال فاعلاً في معظم الدول القطرية للنظام العربي، فالمقالة غير قادرة على الإحاطة بجميع جوانب العلاقة التبادلية بين الفكر القومي والفكر القطري إبان مرحلة ما بين الحربين العالميتين، ولا سيما أن دراسات كثيرة تناولت بالتفصيل هذا الجانب.

ومن نافلة القول: إن نقد الفكر القطري في مرحلة قيادته لحركات الاستقلال الوطني ضد الاستعمار الخارجي في معظم الأقطار العربية يختلف

جذباً عن نقد ذلك الفكر في المرحلة الراهنة، وليس أدل على ذلك من أن الغالبية الساحقة من المفكرين الوجوديين في المغرب العربي ينظرون نظرة إيجابية للدولة القطرية المغربية، ويصفونها بالدولة الوطنية التي نالت شرعيتها التاريخية والجماهيرية من خلال نضالها الوطني ضد الاستعمار الأجنبي، ولا يعدونها دولة مصطنعة أو من صنع الاستعمار على غرار ما يفعل كثير من المفكرين الوجوديين في المشرق العربي عند توصيف دولهم القطرية. في هذا المجال تبدو الحاجة ملحة لتبني المقولات العلمية غير الانفعالية في دراسة هذا الموضوع بالغ الدقة، فالمقولات القومية لم يكن لها تأثير واحد وفاعلية واحدة في مشرق العرب ومغربهم، وما يصح عن المقولات القومية يصح كذلك حول مفهوم الوحدة العربية، والمقولات العلمانية، ودور الدين الإسلامي في التوحيد العربي، والعلاقة بين العروبة والإسلام، وبين الإسلام والقومية العربية، ومشكلة الأقليات الدينية والعرقية في الوطن العربي، ومفهوم الوحدة الثقافية للوطن العربي وموقع الثقافات غير العربية فيها، والموقف من الوحدة الإندماجية العربية، ومن التكتلات الإقليمية الراهنة، ومن الصراع ضد الامبريالية وضد الصهيونية، والموقف من التنمية القطرية والتنمية القومية، والتكتلات الإيديولوجية العالمية وموقف النظام العربي منها، وغيرها الكثير.

ولا شك أن التساؤلات المطروحة مهمة ومشروعة لكنها بحاجة إلى دراسات مستفيضة ومعقدة، ولما كان هدف الدراسة العلمية أن تطرح الكثير من الأسئلة وتجيب عن القليل منها بشكل معمق ومكثف حاولنا - في حدود هذا البحث - أن نركز التحليل على مسألتين أساسيتين تدرج تحتها جملة من المسائل المنهجية الفرعية:

المسألة الأولى: لما كان النظام العربي الراهن الممتد من الحرب العالمية الثانية حتى الآن يشكل تجسيدا مكثفاً للأنظمة القطرية العربية فمن الطبيعي أن يتحول الفكر القطري إلى فكر سائد على امتداد الوطن العربي، وأن يتحول الفكر القومي الوجودي بالتالي إلى مواقع دفاعية بعد فشل التجارب الوجودية السابقة و بروز اتجاهات سياسية إحباطية تبشر بعجز العرب عن بناء وحدتهم القومية الاندماجية، وإن أقصى ما يمكن فعله هي التكتلات الإقليمية مع الحفاظ على الأنظمة القطرية وقادتها ومؤسساتها وفكرها.

المسألة الثانية: صحيح أن الفكر القطري تحول إلى فكر سائد في جميع الأقطار العربية لكن صراعه مع نقيضه الوحدوي القومي الشمولي لم يحسم، بل ازداد حدة مع تزايد مأزق الأنظمة القطرية وفشلها في تحقيق أي من المهمات التي نادى بها، وقد وصلت حدة المأزق إلى درجة باتت معها كل المكتسبات التي حصلت عليها الجماهير الشعبية العربية في السابق مهددة بالزوال، فنسبة الأمية تتصاعد بوتيرة مخيفة على امتداد الوطن العربي، كذلك نسبة البطالة، والهجرة، والتصحر، والانتفاضات الشعبية المطالبة بالخبز والعمل والمسكن، وليس خافياً على أحد أن أغلب الأنظمة القطرية العربية حولت الوطن العربي إلى سجن كبير تقمع فيه أبسط أشكال الحريات الشخصية والعامّة للمواطن العربي.

فحققت بذلك الوحدة العربية بالمفهوم السلبي جداً، أي وحدة القمع والإرهاب، وباتت الجماهير الشعبية تتخوف من التكتلات الإقليمية العربية، لما يمكن أن تحمله من مخاطر تعميم القمع وخنق بؤر الديمقراطية التي ما زالت تقاوم في بعض أرجاء الوطن العربي.

على قاعدة هاتين المسألتين تبدو صورة الوطن العربي في المرحلة الراهنة بين جماهير شعبية تريد الوحدة وتناضل من أجلها، فتلقى أشجع أشكال القمع والاضطهاد، وبين قوى تسلطية قطرية تدعمها قوى إمبريالية خارجية ترفض الوحدة القومية العربية وتجند لها كل طاقات جيوشها، وأجهزتها الرسمية والإعلامية، ومدخيلها النفطية وغير النفطية الوفيرة في محاولة للإبقاء على الواقع القطري الراهن وحقنه بدم جديد، شرط أن يكون من الفئة القطرية عينها التي تسمى بالقطرية النفطية، أو بالقطرية الإقليمية، أو بالقطرية التكاملية، وغيرها من التسميات التي تتطلق أساساً من الفكر القطري، وتضع المخططات الرامية إلى دعمه وترسيخه.

فإذا كان الفكر السائد قطرياً، وهو كذلك، فإن النظام العربي الراهن لا يمكن أن يكون إلا قطرياً، وإذا كانت الجامعة العربية مرآة لهذا النظام العربي وتعكسه بصدق، حاملة كل تناقضاته السلبية في داخلها، فكيف تكون هذه الجامعة وحدوية قومية تكاملية، وإذا كانت الوحدة العربية، بعد

فشل الأشكال الاندماجية العاطفية على أساس تجربة بسمارك أو تجربة غاربيالدي، لا يمكن أن تتجح إلا على أساس الديمقراطية الحققة، فكيف تقوم وحدة عربية بهذه الأهداف في ظروف تحولت فيها الغالبية الساحقة من الدول القطرية العربية - إن لم نقل جميعها - إلى سجون كبيرة تراقب شعوبها وتحصي أنفاسهم وتحركاتهم، وتتدخل في تفاصيل حياتهم اليومية؟

وإذا كانت الدولة القومية العربية الواحدة حلم المنظمات الشعبية والأحزاب الوحدوية العربية، فكيف تقوم هذه الدولة على امتداد الوطن العربي ما دامت تلك المنظمات والأحزاب عاجزة عن إقامة الوحدة السياسية فيما بينها، والاتفاق على برنامج الحد الأدنى المطلوب لعملها اليومي، هذا بالإضافة إلى الصراع المتأجج بين أطراف الحزب الواحد، الذي يُرْفَع إلى درجة أعلى من الصراع مع العدو القومي ومع الامبريالية في غالب الأحيان؟

قد تطول المسائل الفرعية لتوضيح المآزق المزدوج للفكر القطري وللفكر القومي معاً في المرحلة الراهنة من تاريخ الوطن العربي، وبات واضحاً أن حدود الاختلاف بينهما ليست من النوع الذي لا يمكن اختراقه أو تجاوزه، ولم تقم خطوط حمر بين هذين الفكرين؛ لأن طبيعة المآزق لكل منهما تعتم بالضرورة البحث عن نقاط التلاقي بينهما، وبعد هذه السنوات الطويلة من التجربة التي رافقت عمل الجامعة العربية حتى الآن بدأ الفكر القومي التوحيدي يبحث جدياً عن نهج سياسي جديد يعيد إليه مصداقيته في أوساط الجماهير الشعبية العربية التي ما زالت وستبقى مؤمنة بالوحدة، وترى فيها خلاصها وحلاً لمشكلاتها الحياتية والطبقية والوطنية والقومية، ولما كانت الأنظمة القطرية هي الحاكمة، وهي التي أقامت دولها في الوطن العربي، كان من السهل أن يقسم المفكرون الوحدويون العرب المآزق الراهن للنظام العربي إلى نوعين متقابلين:

أ - مآزق الفكر القومي الوحدوي الذي يصنف في خانة المآزق النظري، ما دامت القوى الوحدوية لم تستلم السلطة ومحرومة منها، وبالتالي على الفكر الوحدوي أن يجد نفسه نظرياً حتى يتحول إلى فكر قومي وحدوي شمولي في النظرية والممارسة معاً.

ب - مأزق الفكر القطري الذي هو مأزق سلطوي وليس مأزقاً نظرياً فحسب، أي هو تجسيد لأزمة الفكر والممارسة معاً للأنظمة القطرية الحاكمة في الوطن العربي، ورغم أن هذه الأنظمة، في الغالب اتكأت على مشروعيتها التاريخية إبان مرحلة الاستقلال والسيادة الوطنية، فإن هذه المشروعية باتت موضع شك الآن، وتحاول أن تجد لنفسها مشروعية جديدة تتمثل في التكتلات القطرية أو الإقليمية الراهنة التي شكلت السمة الأساسية للنظام العربي في السنوات الأخيرة.

لعل أفضل توصيف للنظام العربي الراهن أنه نظام قومي تمّت صياغته بفعل عوامل قطرية، لذلك تفعل فيه المؤثرات القومية جنباً إلى جنب مع المؤثرات القطرية، "والحقيقة أن بنية النظام العربي تتضمن هذا الخليط المركب والمعقد بين الإقليمية التي تنطلق من قاعدة العلاقة بين دول مستقلة ذات سيادة والتي نسميها بالقطرية، والقومية التي تسعى إلى مزيد من عمليات التكامل والتوحيد بين أعضاء النظام، تلك العلاقة بين القطرية والقومية هي أحد عناصر الشد والجذب في النظام العربي التي تحكم حركته وتفاعلاته".

في إطار هذه المنهجية التي تنطلق من علاقة التفاعل الصراعي بين القطري والقومي في النظام العربي الراهن تبدو الصياغة النظرية للمقولات التفاعلية الصراعية قابلة للتحويل إلى مقولات عملية فاعلة تخرج من النظرة الماضية لصراع القطري والقومي إلى حتمية التفاعل بينهما حاضراً ومستقبلاً، فسواء تم توصيف النظام العربي بنظام قومي تمّت صياغته قطرياً، أم بمجموعة الدول القطرية العربية التي تسعى جاهدة للتكامل القطري، فإن حاضراً هذا النظام يشكل قاعدة التلاقي مهما تباينت الأهداف الداعية إلى هذا التلاقي، ويصبح المستقبل، بالتالي، مشروعاً عملياً تفرضه عوامل مهمة مستقاة من الماضي القومي، ومن المخاطر الراهنة التي تُحدقُ بالدول القطرية العربية دون استثناء، ومن التحديات الكبرى التي تفرضها اتجاهات الوفاق الدولي والتكتلات الإقليمية والقارية المرتقبة في السنوات القليلة القادمة.

ولا شك أن أبرز خصوصية تُميّز النظام العربي الراهن هي عجزه عن صياغة نفسه قومياً، أي فشله في إقامة نظام إقليمي معترف به دولياً، وقد لاحظ

الدكتور مراد غالب علاقة وثيقة بين هذا الفشل والمؤثرات الدولية التي ما زالت فاعلة على الساحة العربية منذ القرن التاسع عشر حتى الآن دون انقطاع، فكتب معلقاً تحت عنوان "النظام الدولي وتأثيره على النظام العربي": "إن النظام الإقليمي العربي، رغم احتوائه على عناصر أساسية لمكونات نظام إقليمي مثل الامتداد الجغرافي والشعور بالانتماء إلى قومية واحدة والتطلع إلى وحدة بين أعضائه في الدين والتراث واللغة والثقافة وقضايا مشتركة وقدر من التضامن، كما لديه مؤسسات إقليمية (الجامعة العربية، مجلس الدفاع المشترك، 21 منظمة عربية متخصصة، أكثر من مئة اتحاد في جميع المجالات..)، إلا أن هذه العناصر المهمة تفتقر إلى التماسك والفاعلية، وبالتالي فلم يستطع النظام أن يفرض نفسه على العلاقات الدولية، ولم يستطع أن يجبر الأطراف العالمية على التعامل معه كنظام إقليمي فاعل، بمعنى آخر يفترق إلى الاعتراف به من النظام الدولي"، فمأزق المشروع القطري إذاً مأزق داخلي وخارجي، إقليمي ودولي، فكراً وممارسة، فما هي السمات الأساسية لمأزق المشروع القطري على ضوء حاضره، بالنظر إلى مستقبله وليس بالعودة إلى ماضيه؟

من تجليات مأزق المشروع القطري العربي في المرحلة الراهنة:

بدأ النظام العربي الراهن بسبع دول قطرية مستقلة شكلت جامعة الدول العربية في الثاني والعشرين من آذار/ مارس 1945، وخلال أربعة عقود ونصف العقد ارتفع عدد هذه الدول إلى 23 دولة قطرية شديدة التباين فيما بينها على أساس المساحة الجغرافية، والغنى الاقتصادي، والأنظمة السياسية، والكثافة السكانية، والتركيبية الاجتماعية، والفاعلية الثقافية وغيرها.

وعرف أداء هذه المجموعة المتنافرة من الدول القطرية العربية أشكالا عدة من الصراعات العربية التي كوَّنت عناوين لدراسات علمية مهمة، في حين أن أي دراسة جادة لم ترصد تاريخاً ثابتاً لعلاقات ودية أو تكاملية أو اندماجية بين قطرين عربيين أو أكثر طيلة هذه المرحلة.

ولما كان العلم ينطلق من الواقع الملموس ليستنتج منه القوانين العامة والخاصة لحركة التطور وآفاقها الراهنة والمستقبلية، نرى لزاماً علينا أن نعيد النظر في بعض المقولات المنهجية التي ينظر إليها كمسلمات سائدة لا يجوز

التشكيك فيها ، فهل صحيح التأكد أن النظام العربي الراهن نظام موحد في عناصره الأساسية لكنه مجزأ سياسياً أم الأصح أن المجتمع العربي الراهن ورث التجزئة والتفتت عن المرحلتين العثمانية الطويلة والاستعمارية الأوروبية؟ أي أن مسألة التفريق بين وحدة المجتمع العربي وعدم تبلور الإرادة السياسية لهذه الوحدة في دولة مركزية واحدة ترتدي أهمية استثنائية لفهم علاقة التفاعل الصراعى بين الخطاب القطري والخطاب القومى كإحدى خصوصيات النظام العربي الراهن ، وهذا ما عبر عنه هاني الهندي بقوله: "وضروري جداً أن نحدد ونسعى لتحديد ما نفهمه بالنظام العربي، هل المقصود أن هناك مجتمعاً واحداً؟ طبعاً هناك مجتمع عربي واحد من المحيط إلى الخليج، ولكن حين ترد كلمة "النظام" تُزاد الناحية السياسية لما نريد وصفه، ومن هنا في اعتقادي أن هناك صعوبة بالقول بوجود نظام عربي واحد إلا إذا حددنا مقومات النظام والأسس التي يقوم عليها، وطرحنا تعريفاً محدداً واضحاً للمقصود بهذا الاصطلاح"، لكن المسألة أعمق في جوهرها، ولا يمكن أن تحل باعتماد مصطلح جديد أو بتحديد مقومات وأسس لنظام عربي واحد غير موجود على أرض الواقع، ومرد ذلك إلى أن الفكر القطري عاجز عن صياغة هذا النظام الواحد ما لم يتخلَّ عن كثير من ركائزه القطرية باتجاه التوحيد القومي، وهذا ما أشرنا إليه بمفهوم التفاعل الصراعى بين القطري والقومى؛ لأن التباين بينهما تعبير عن استمرارية الإرث الاستعماري فاعلاً في مجتمع عربي له مقومات الوحدة، لكنه ما زال يفتقر إلى الأداة السياسية الوجدانية.

ومن نافلة القول: إن إلقاء المسؤولية الوحيدة على الاستعمار لم تعد مقولة علمية تحظى باهتمام الباحثين، صحيح أن الإرث الاستعماري كان وما زال فاعلاً، وأن هنالك مصالح مالية وثقافية وعسكرية وغيرها للقوى الخارجية على امتداد الوطن العربي، لكن هناك مصالح للقيادات القطرية العربية لا يجوز التقليل من أهميتها عند دراسة تجليات المآزق القطري في المرحلة الراهنة، فالمحاور العربية - العربية المتنازعة التي تستنزف القسم الأكبر من الطاقات والموارد العربية في معارك جانبية لا يحصد المواطن العربي منها سوى مزيد من القمع واليأس والإحباط، هي أحد أبرز تجليات المآزق القطري في العمل

السياسي، فلمصلحة من يتم تغليب التناقضات الثانوية بين الأنظمة القطرية على حساب التناقض الأساسي مع الإمبريالية والصهيونية؟

من البديهي أن الجواب يشير إلى مصلحة القوى الإمبريالية مع إغفال نقطة منهجية مهمة هي أن بعض الزعامات القطرية، أو بالأحرى بعض الدول القطرية العربية، باتت جزءاً لا يتجزأ من هذه الإمبريالية وأحد تجلياتها الملموسة على صعيد الوطن العربي، يضاف إلى ذلك أن الصراعات الشخصية بين القيادات القطرية العربية ما زالت تلعب دوراً فاعلاً في تعميق التجزئة العربية، وهي، بالتالي، تعبیر ملموس عن مأزق الفكر القطري وممارساته السياسية التي باتت تهدد الأنظمة القطرية نفسها بمزيد من التفتيت أو تجزئة التجزئة.

ويخطئ من يعتقد أن للتجزئة حدوداً دنياً تقف عندها بل "هناك ما دون القاع في مسار التردّي والترهلّ العربي، وهذه المرة يمكن أن تكون أسوأ، فهناك تجزئة التجزئة، وبعض الدول العربية مهددة بالتجزئة إلى كيانات دون الدولة، وهناك بعض الصراعات الأهلية الممتدة، وخطر نضوب الموارد القائمة، إلى جانب تفاقم مشكلة الغذاء في الفترة القادمة، ناهيك عن عدم إيمان النظم العربية بالديمقراطية وانتهاكها لحقوق الإنسان العربي بشكل منظم، والأخطر من ذلك أن هذه النظم أثبتت عجزها عن مواجهة المشكلات والتحديات الداخلية والخارجية التي تهدد الكيان العربي ذاته"، فأزمة الدول القطرية ذات طابع بنيوي، أي أنها أزمة شمولية على جميع المستويات، خاصة على مستوى غياب الديمقراطية، والتنمية الشمولية، والتخطيط، وتنفيذ الإرادات والطاقت العربية لمواجهة التحديات المصيرية، وتدرج الصراعات الشخصية بين القيادات العربية في خانة الصعوبات الإضافية للمأزق القطري، "وقد أسهمت الخلافات الشخصية بين الحكام العرب، وتبعية بعض الدول العربية لبعض الدول الكبرى، وتخلف بعض الدول العربية وعدم اكتراثها بمسؤولياتها القومية اتجاه بعضها في تعزيز احتدام المنازعات وخلق أجواء مشحونة بالعداء بينها"، أي أن العامل الذاتي (سلوك القيادة السياسية) يلعب دوراً مهماً إلى جانب العوامل الموضوعية الأخرى في تأزيم مشكلات النظام العربي الراهن ودفعها للانفجار على حساب المصالح الأساسية للجماهير العربية وأمانها القومية.

إن أزمة الفكر القطري هي - بالدرجة الأولى - أزمة الدولة القطرية، إذ ما من وجود فاعل لهذا الفكر إلا في إطار الدولة القطرية التي بنيت على أساسه، واتخذت منه سلاحاً إيديولوجياً تدافع به عن نفسها، فالقاعدة الأساسية للقطرية - ويسمونها بعضهم بالإقليمية - أن كل قسم من الوطن العربي يمثل كياناً قائماً بذاته، بحيث لا يصبح هناك مجال لقيام كيان عربي قومي شامل، وإنما يصبح مجال العمل القومي محصوراً في داخل حدود كل قسم من هذه الأقسام على أساس أن كلاً منها يمثل كياناً "قومياً" مكتملاً في حد ذاته، قد تقوم بينه وبين الأقسام الأخرى روابط في مجال أو في آخر، ولكن هذه الروابط، إذا قامت، تبقى في كل الأحوال علاقات تقارب ولا تؤدي إلى قيام كيان قومي عربي شامل.

فمازق الفكر القومي أو الإقليمي في الواقع العربي الراهن أنه ينطلق من مبادئ عامة ذات صلة وثيقة بالواقع القومي وبالفكر القومي ليبني على أساسها واقعاً قوطياً وفكراً قوطياً يدفع بهما إلى مرتبة الشمولية لتطال الوطن العربي كله، مطالباً الجماهير الشعبية العربية بالتعاطي مع هذا القطري، فكراً وممارسة وواقعاً، كما لو كان قومياً وحدوياً، لكن هذه الجماهير، بحسبها الوطني والقومي السليم، وبتجاربها وخبراتها الواسعة المستقاة من الماضي القريب ومن التجارب الوحدوية القطرية الفاشلة، رفضت الاعتراف بهذا الواقع القطري، وتمسكت على الدوام بشعاراتها الوحدوية البسيطة: تحرير، حرية، ديمقراطية، عدالة اجتماعية، محاربة الصهيونية، عداً ثابت للإمبريالية، والتي هي سمات أساسية يجب توافرها في أي وحدة قومية حقيقية.

لقد اعتقد قادة الدول القطرية أن خوض معركة الاستقلال السياسي يمكن أن تقف عند حدود رحيل الجيوش الأجنبية عن الأراضي العربية دون استكمال الاستقلال السياسي باستقلال اقتصادي، وبتتمية شاملة، ووحدة قومية، كما اعتقد دعاة الفكر القومي من المثاليين أن طريق الاستقلال هو، ميكانيكياً، طريق الوحدة، لكن الوقائع الملموسة أثبتت عكس ذلك، لأن نهاية المرحلة الاستعمارية في الوطن العربي لم تكن البداية العملية لولادة التوحيد القومي، وكل ما أنجز في هذا المجال هو قيام جامعة الدول العربية التي

حملت معها كل سلبيات الأنظمة القطرية العربية، فجعلتها عاجزة عن القيام بدورها التوحيدي.

ويلاحظ في الآونة الأخيرة أن التكتلات الإقليمية العربية الراهنة - خاصة مجلس التعاون الخليجي، ومجلس التعاون العربي، والوحدة المغاربية - ولدت في خارج جامعة الدول العربية، كما أن بعض القوى الفاعلة في داخلها لا تخفي عداها السافر للدور التوحيدي المنوط بالجامعة حاضراً ومستقبلاً.

تبدو الحاجة ملحة إلى وقفة نقدية في هذا المجال تطال موقف الفكر القطري في الممارسة السياسية من المؤسسات الوحودية، وعلى رأسها جامعة الدول العربية التي كان الغرض من إنشائها "العمل على صون استقلال الدول العربية وسيادتها" كما نصت المادة الثانية من ميثاق الجامعة، والتي تعرضت لانتقادات شديدة من جانب المفكرين الوحدويين العرب الذين رأوا فيها تشويهاً للدور التوحيدي للجامعة، إذ تحولها من جامعة للشعب العربي إلى جامعة للحكومات العربية المستقلة، لكن الفكر القومي المثالي لم يرسم كيفية الانتقال من التجزئة العربية السائدة إلى الوحدة القومية المرجوة بمعزل عن الدولة القطرية ومؤسساتها، وكيف يكون احتضان الجامعة العربية للدول القطرية المستقلة تبعاً دليلاً على "أن التطور الموضوعي للأقطار العربية يسير باتجاه تكريس انفصالها إلى دول، لا باتجاه توحيدها..، أي التطور الفعلي باتجاه التقطير (من القطرية) لا التوحيد، باتجاه تكاثر عدد الدول العربية بدلاً من تناقصه، وباتجاه تكريس التجزئة وتعميقها وترسيخها، لا باتجاه وضعيتها ومحاصرتها وتصفيتها"، ويصل هذا الخطاب القومي العاطفي إلى أقصى مداه حين يصف الواقع العربي الراهن بالقول: "زمن قطري هذا الزمن الذي نحيا فيه.. زمن قطري، أحاط فيه الالتباس بمفهوم الأمة وتداخلت مصطلحات الشعب والدولة والأمة والوطن، وصار الانتماء القطري بديلاً عن الانتماء القومي"، لكن إحلال العاطفة القومية وحدها مكان العلم مضر بالفكر القومي ولا يزعج الفكر القطري وخطابه السياسي الذي - رغم استخدامه أشد درجات القهر والقمع، ورغم أزمته الحادة على جميع المستويات - لم يفقد بعد مسوغ وجوده ومشروعته الداخلية.

فالفكر القطري ليس طارئاً على الواقع العربي، ولا يمكن تجاوزه بإطلاق الشحنات العاطفية القومية ضده، وتبني مقولة ثابتة تؤكد وحدوية الجماهير الشعبية حتى لو كانت هذه الجماهير عاجزة عن الفعل التوحيدي، ومفككة إلى أقصى درجات التفكك، وتعرض للقمع المنظم، ومحاصرة برغيف الخبز والأمية والبطالة، لذلك لا بد من تجاوز النظرة القومية التقليدية التي رافقت ولادة الدولة القطرية وتطورها إلى نتائج العلمية التي ترتبت على المقولات القطرية، فكراً وممارسة، بعد أن استنفدت أو كادت كل الأهداف التي ولدت من أجلها، وباتت الدولة القطرية نفسها مهددة بالتجزئة والسقوط بفعل الأزمات الحادة التي تعانيها.

ومن المفيد التذكير في هذا المجال أن الباحثين العرب، في المشرق والمغرب على السواء، ينظرون إلى ماضي الدولة القطرية نظرات متباينة جداً تصل إلى حدود التناقض الحاد، لكن حدة هذا التباين تكاد تُخفي تماماً نظرتهم إلى حاضر هذه الدولة وآفاقها المستقبلية ومدى الضرر الذي تلحقه حالياً بالشعب العربي في جميع أقطاره، بالإضافة إلى ما ينتظر هذا الشعب من مشكلات أكثر حدة في المستقبل على المستويين: القومي والإقليمي.

تبقى ملاحظة مهمة حول تجلي المأزق القطري على مستوى العمل الثقافي في كل قطر عربي ونشر المقولات الخادعة حول وجود ثقافة قطرية باللغة العربية وليس ثقافة عربية واحدة لها تجلياتها في داخل كل قطر عربي، أو على امتداد الوطن العربي، أو على صعيد الذين يكتبون باللغة العربية بمعزل عن مكان سكنهم في داخل الوطن العربي وفي خارجه، وخطورة هذه المقولات أنها تجعل من الثقافة عنصر دعم للأنظمة القطرية؛ بحيث يتحول عملها الثقافي إلى مشروع سياسي واضح الأهداف باسم الخصوصية والتنوع والتعددية الثقافية وغيرها، ولا شك أن التعددية الثقافية في النظام العربي الراهن تحمل إيجابيات كثيرة إذا وظفت لخدمة الجماهير الشعبية والاستفادة من مخزونها الحضاري وتنوع مصادرها الروحية واللغوية والقومية وغيرها، لكن استخدام التعددية كبديل للثقافة العربية الواحدة والموحدة في ظروف هيمنة العمل الثقافي القطري، واستخدام الوسائل الإعلامية والثقافية، الرسمية وغير الرسمية المتاحة لهذا

العمل، على حساب العمل الثقافي القومي باتا يهددان الثقافة القومية العربية والتراث العربي على امتداد الوطن العربي كله. ومع انتشار الثقافة القطرية في مختلف الدول العربية عبر تشجيع البرامج المحلية، واللهجات المحلية، والبرامج الإذاعية والتلفزيونية المنتجة محلياً أدى إلى هزال هذه الثقافة وعجزها عن الفعل في داخل القطر الواحد، وعن تخطي الحدود القطرية نفسها، ونظراً للتكاليف المالية الباهظة التي يتطلبها إنتاج الثقافة القطرية التي تدعمها رسمياً الأنظمة المسيطرة، فإن إمكانيات تطورها تكاد تكون معدومة بعد أن استنفدت الغالبية الساحقة من الأهداف السياسية التي وظفت من أجلها، أي تزييف الثقافة القومية العربية ومنع انتشارها في داخل الوطن العربي، تمهيداً لإحلال ثقافة استهلاكية ذات نزعة كوسومبوليتية عالمية ترعاها الإمبريالية الثقافية، وقد أبدعت ليلي السايح في توصيفها للعلاقة الوثيقة بين القطرية الثقافية والتبعية للإمبريالية عبر قوى طبقية عربية هي بالتحديد القوى القطرية العربية المسيطرة الآن على امتداد الوطن العربي، جاء في مقالها: "تري، أين نبحت عن جذور هذه الإقليمية الثقافية التي تنزع عن القطر العربي خصائصه القومية، ولا تكتفي بذلك، بل تنزع عنه أيضاً خصائصه المحلية، لتسببه إلى خصائص مجالات ثقافية أخرى؟

أن هذه الجذور لا تتبع من حقل الثقافة بذاته، بل من بنية التشكيلات الطبقية.. فالأقطار (العربية) التي كفت عن أن تكون ذات بنى اقتصادية سياسية مستقلة، خضعت بشكل مباشر لشتى صنوف الانعكاس القادم من علاقتها بالخارج، بالمراكز الرأسمالية". وتستنتج الباحثة: أن نفي الثقافة القومية العربية تحت ستار المعاصرة والتحديث والاندماج بالعالم المعاصر ليس في حقيقته سوى حركة مضادة لكل ما هو ثقافي.. وتؤكد الحاجة الموضوعية للثقافة القومية العربية كمجال وحيد ممكن للنظر إلى مشكلات الثقافة العربية، في الماضي والحاضر والمستقبل، ويتجاهل هذا المجال سيجري تزييف صيغة الطرح أولاً، والخروج بحلول زائفة ثانياً.

بعض الاستنتاجات

عند تحليل التركيبة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للنظام العربي الراهن لابد أن تؤخذ بعين الاعتبار حركة التغيير المتنامية في داخله وربطها بالتحويلات الجذرية الجارية على مستوى العالم كله، فالنظام العربي الراهن، على قاعدة هذه النظرية الدينامية للصراع الاجتماعي بشتى أشكاله، ليس ماضي التجزئة والنكسات العسكرية والهزائم والوحدات الإقليمية الفاشلة، بل أيضاً تطور حركة الصراع بين التجزئة القطرية والوحدة القومية لدرجة يمكن معها القول: إن النظام العربي الراهن بات يواجه تحديات الوحدة القومية أكثر من أي وقت مضى، ولم يعد مفيداً تحليل مسيرة النهضة العربية الحديثة على أساس الثنائيات المعروفة: تجزئة، وحدة، نهضة، انحطاط، بدعوة، حضر، انغلاق، انفتاح، تراث، معاصرة، دين، علمانية.. إلخ، فحركة الواقع نفسها تفرض تفاعلاً قائماً باستمرار بين هذه الثنائيات، وهو التفاعل الذي أوصل المشروع القطري، إلى المآزق البنيوي الراهن.

يلاحظ أن النظام العربي الراهن ليس صورة طبق الأصل عن النظام العربي في بدايات تشكله مع قيام جامعة الدول العربية، وأن المشروع الإمبريالي الصهيوني للوطن العربي بعد فشل اتفاقيات كامب دافيد، والغزو "الإسرائيلي" للبنان، وانطلاق جبهة المقاومة الوطنية اللبنانية، وثورة الحجارة في الأراضي العربية المحتلة، بات أمام معطيات جديدة غير قادرة على إلغائها التنازلات المتتالية التي تقدمها الأنظمة القطرية العربية للصهيونية وللإمبريالية الأميركية تحت ستار الحرص على السلام في الشرق الأوسط، ولو بالشروط الأميركية الصهيونية لهذا السلام الذي خبر العرب نتائجه السلبية الكبيرة مع اتفاقيات كامب دافيد.

غني عن القول: إن النظام العربي الراهن ليس موحد الأهداف والأسلوب في التعاطي مع المشكلات العربية الراهنة والأكثر حدة كالوحدة العربية، والصراع العربي الصهيوني، والحرب الأهلية اللبنانية، والانتفاضة الفلسطينية في الأراضي المحتلة وغيرها، فليست هناك سياسة عربية واحدة، كما أن التكتلات الإقليمية المعلنة حديثاً في المشرق والمغرب العربيين لا تمتلك جهازاً واحداً يعبر عن مجموعة الدول المكونة لكل كتلة، وما زالت الاختلافات

قائمة بين الدول القطرية في داخل كل كتل، أي أن مجموعة الدول القطرية المتكتلة لم تُبْنِ الدولة القطرية الواحدة التي تضم تلك المجموعة، وليس ما يشير إلى تحولها أو اندماجها في دولة واحدة في المدى القريب، وقد يكون من السابق لأوانه استكشاف عناصر الفشل أو النجاح في مثل تلك التكتلات الإقليمية التي أملت ظروف اقتصادية وسياسية معينة، لكن بالإمكان القول: إنها ليست دولة الوحدة القومية العربية، وليس ما يؤكد أنها خطوة مدروسة على طريقها، وبالمقابل ليس من الحكمة اتخاذ موقف سلبي قاطع منها على غرار المواقف القومية المثالية السابقة، وصولاً إلى نعتها بمختلف الصفات السيئة والمعيقة للوحدة القومية المنشودة.

مع ذلك أدركت الجماهير الشعبية العربية، بحسبها القومي السليم، أن الإعلان عن هذه التكتلات القطرية وما رافقه من خطاب قطري يلبس لباس الوحدة القومية، ليس مقنعاً لا بل غير مفهوم في معظم جوانبه، فكيف تعلن اليمن الشمالية الوحدة مع مصر والعراق والأردن ولا تعلنها مع اليمن الجنوبية وهما شعب واحد، ولهما تاريخ واحد على أرض واحدة؟ ولماذا تقيم مصر وحدة مع العراق واليمن الشمالي بالإضافة إلى الأردن وتتناسى وحدتها التاريخية الدائمة مع السودان في إطار وحدة وادي النيل؟ ولماذا تم تجاهل سورية في المشرق العربي، والمملكة العربية السعودية في الجزيرة العربية، واليمن الجنوبي والصومال؟ ورغم إصرار مجلس التعاون العربي واتحاد المغرب العربي على الطابع الاقتصادي في وثائقهما فإن الموقف السياسي بالغ الوضوح، لقد تم تغييب الامبريالية تغييباً كاملاً، كذلك لم ترد في البيانات الرسمية إشارة واضحة ضد "إسرائيل" والعمل على تحرير الأراضي العربي المحتلة، وهناك تفاوت في الخطاب السياسي القطري في داخل هذين التجمعين بين دول تعلن صراحة إقامة علاقات مباشرة مع "إسرائيل" على قاعدة اتفاقيات كامب دافيد، وبين دول أخرى ترفض التعاون علانية مع "إسرائيل" على غرار مصر.

هناك انتقادات كثيرة يمكن توجيهها للمشروع القطري الراهن في مرحلة تحوله من مشروع قطري وحيد الجانب إلى مشروع قطري إقليمي تكاملي تعبر عنه تكتلات إقليمية لدول قطرية عربية، وقد واجه الفكر الوحدوي القومي تجربة مماثلة بالإعلان عن قيام دولة الإمارات العربية المتحدة من جهة، والإعلان

عن مجلس التعاون الخليجي من جهة أخرى، وتراوح رد الفعل بين السلبية المطلقة والاتهامات الصريحة بأنه عمل غير وحدوي وتجربة فوقية بين الحكام القطريين حفاظاً على مصالحهم الطبقية وارتباطهم التبعية بالإمبريالية، وبين الترحيب المتحفظ الذي ينطلق من القول بإفساح المجال أمام أي عمل وحدوي كي يعبر عن نفسه وأهدافه مع إرجاء الحكم عليه إلى ما بعد قيامه بأعمال ملموسة على طريق الاتحاد أو على الطريق المضادة له.

لقد آن الأوان للخروج من دائرة المواقف السلبية المطلقة تحت ستار النقاوة القومية في مرحلة تشهد تراجعاً كبيراً في المقولات القومية المثالية السابقة، واختلافاً حاداً في تقويم دور الأنظمة القطرية، وفي رسم السبل الواجب اعتمادها لبناء الوحدة القومية المنشودة ودولتها العتيدة، وهل هي دولة اتحادية، فدرالية أو كونفدرالية، وهل يحافظ على استقلالية الدول القطرية القائمة أم يعمل على تجاوزها ودمجها في دولة موحدة؟ وهل تكون الوحدة السياسية طريقاً للوحدة الاقتصادية أو على العكس من ذلك كما جاء في البيانات الرسمية للتكتلات القطرية الجديدة؟.. إلخ.

في المرحلة الراهنة لا شك أن رياحاً وحدوية تهب على الوطن العربي ليس من السهل التكهّن في مدى سرعتها أو دقة اتجاهها، وحدة المنهج الديناميكي ينطلق من مقولات الصراع لتقييد الخلاف بين قوى التجزئة وقوى الوحدة، فإذا كان من مصلحة القيادات القطرية أن توظف المشروع القطري السابق باتجاه التكامل القطري أو التكتلات القطرية وتصويرها كشكل عملي أو واقعي لا بد منه للوصول إلى الوحدة القومية الشاملة، فإن من مصلحة الجماهير الشعبية الوحدوية، وأحزابها ونقاباتها واتحاداتها المنتشرة في جميع أقطار الوطن العربي، أن تخوض المعركة من موقع الحريص على الوحدة القومية التي تخدم هذه الجماهير وتؤمن لها مصالحها الأساسية في الحرية والمساواة والعدالة الاجتماعية، وما لم تشارك هذه الجماهير في الصراع الراهن من أجل الوحدة بمختلف الأساليب الممكنة، فإن المشروع القطري التكاملي قادر على تأطير جماهير واسعة وراء شعارات سياسية ظاهرها يدعو إلى الوحدة القومية وباطنها مليء بتعميم القمع والإرهاب والاضطهاد لتطال كل أقطار التكتل وتخنق بؤر الديمقراطية القليلة التي ما زالت تعاند في هذا القطر أو ذاك.

من الواضح أن الجماهير الشعبية العربية في جميع الأقطار التي أعلنت التكتلات الإقليمية الراهنة لم تظهر حماساً لها وما زالت سلبية تجاه المشروع القطري رغم ظهوره بالمظهر الوحدوي التكاملي، لكن هذا الموقف السلبي غير كاف، بل المطلوب تجديد العمل الوحدوي، فكراً وممارسة، على أسس جديدة لكي يتحول الفكر الوحدوي العربي إلى تيار فاعل وضاغط على القيادات القطرية التي تعاني مأزق العمل القطري المفرد وانغلاق آفاق التطور أمامه.

ومن نافذة القول: إن العمل التوحيدي الذي تقوم به أوروبا الساعية إلى الوحدة التكاملية عام 1992 يشكل عنصراً ضاغطاً على الأنظمة القطرية العربية بالدرجة الأولى، فبعد سنوات قليلة، ستكون أوروبا متعددة القوميات واللغات والأديان والأحزاب السياسية كتلة بشرية واقتصادية كبيرة على المستويين الإقليمي والدولي، ومن الطبيعي أن الأنظمة القطرية العربية ستتأثر إلى حد بعيد بهذه التجربة الوحدوية، وقد تدفعها إلى شكل من الوحدة القومية العربية، ولا سيما أن كل عناصر الوحدة قائمة ومتوافرة منذ أمد بعيد ولا تعوزها سوى الإرادة السياسية، ولعل تفهم هذه الوقائع الملموسة، بالإضافة إلى حركة التجديد وإعادة البناء القائمة الآن في الدول الاشتراكية كلها، خاصة، في الاتحاد السوفياتي سابقاً، يمكن أن يخرج الفكر القومي الوحدوي من إطار الرفض السلبي المطلق لكل ما تقوم به الأنظمة القطرية العربية.

لا شك أن المشروع القطري التكاملي في المرحلة الراهنة يعبر عن نهاية المشروع القطري الانفلاقي التقليدي السابق، وانتقال هذا المشروع من دائرة الانفلاق القطري إلى التكاملية القطرية حاملاً معه الكثير من المرونة والتعاطي الإيجابي مع الوقائع المستجدة بما يسمح بتجديد السيطرة القطرية بأسلوب جديد وبفكر قطري منفتح، فليس ما يؤكد أن هذه التكتلات تزج القيادات القطرية أو تحد من صلاحياتها في داخل أقطارها، وهناك حقائق كثيرة تفترض الاستنتاج المؤكد أن هذه القيادات ستلقى الدعم الكامل من الأنظمة الأخرى في داخل التكتل إذا ما تعرضت لانتفاضات شعبية في داخل أقطارها، وأن قوى القمع في التكتل ستشكل وحدة مترابطة لحماية الحكام القطريين من شعوبهم وليس لحماية تلك الشعوب من الاعتداءات الإمبريالية والصهيونية.

فالمشروع السياسي القطري التكاملي نسخة مطورة عن المشروع القطري التقليدي بعد رفده بعناصر جديدة تزيد من حدة التناقضات الاقتصادية

والاجتماعية في داخل كل قطر من جهة، وعلى امتداد أقطار كل تكتل من جهة أخرى، وما دامت القيادات القطرية نفسها هي المسيطرة، وعلى الأسس والتقاليد نفسها المتبعة في كل قطر، فليس ما يدعو للتأكيد أن المشروع القطري التكاملي سيكون بديلاً عن المشروع القومي الوحدوي الجماهيري في أي جانب من جوانبه الأساسية، لكن ما فعله المشروع القطري التكاملي الرهان أنه أوقع الفكر الوحدوي المثالي أو التقليدي السابق في حرج شديد يمكن ملاحظته عند تحليل التردد الحاصل في تقويم التكتلات القطرية ومشاريعها التكاملية تقويماً إيجابياً.

فالفكر الوحدوي المثالي كان يدعو إلى الترحيب الحار بأي عمل تكاملي أو اتحادي بين قطرين عربيين أو أكثر، مرحلياً كان ذلك التكامل أم استراتيجياً، وقد برز ذلك الفكر الوحدوي مع تجربة قيام دولة الإمارات العربية المتحدة، ومع قيام مجلس التعاون الخليجي، ومع الوحدات العديدة التي أقيمت بقرارات فوقية بين الحكام العرب، وهو يواجه اليوم التجربة نفسها مع قيام مجلس التعاون العربي واتحاد المغرب العربي، حيث بلغ المشروع القطري التكاملي درجة متقدمة من العمل العربي التدريجي المبرمج، ويحظى بترحيب شعبي واضح كما في تجربة اتحاد المغرب العربي.

بقي أن نشير إلى أن اختلاف النظم السياسية القائمة في الأقطار العربية لا يزعج القيادات المسيطرة في طرحها للقطرية التكاملية طالما أن كل دولة ستحافظ في المرحلة الراهنة على الأقل على استقلالها وقوانينها وأنظمتها، أي أن التكتلات القطرية تستقي تجربتها من جامعة الدول العربية بالدرجة الأولى، وذلك يطرح مصير هذه الجامعة في ظل التكتلات المعلنة ومشاريعها القطرية التكاملية، وأغلب الظن أن هذه التكتلات ستدعم دور الجامعة لأن فكرها السياسي فكر شعبي باسم التنسيق والتكامل والتعاقد والاتحاد والتعاون وغيرها، وهو من الأدبيات الكلاسيكية لجامعة الدول العربية منذ نشأتها، وعلى الجامعة العربية أن تطور فكرها التوحيدي الشمولي لاستيعاب المشاريع القطرية التكاملية، وأن توظفه في عمل توحيدى على مستوى الوطن العربي كله في ظروف إقليمية ودولية ملائمة جداً لتحويل الجامعة إلى منظمة عربية وحدوية فاعلة عربياً وإقليمياً وعالمياً.

قائمة المصادر والمراجع

- 1 - من الأبحاث المعروفة في هذا المجال: ❖ ساطع الحصري: "الإقليمية - جذورها وبذورها"، طبعة خاصة، مركز دراسات الوحدة العربية 1985.
 - ❖ نديم البيطار: "من التجزئة إلى الوحدة - القوانين الأساسية لتجارب التاريخ الحدودية"، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1979.
 - ❖ نديم البيطار: "حدود الإقليمية الجديدة"، معهد الإنماء العربي، بيروت 1981.
 - ❖ نديم البيطار: "جذور الإقليمية الجديدة"، معهد الإنماء العربي، بيروت 1983.
 - ❖ عبد الله الريماوي: "الإقليمية الجديدة"، دار الطبيعة، بيروت 1970.
- 2 - يعطي محمد عبد الباقي الهرماس في كتابه المهم "المجتمع والدولة في المغرب العربي" العنوان الآتي للفصل الثاني: "بناء الدولة الوطنية في المغرب العربي"، ومن المقولات البارزة فيه: إن الهدف القريب والمباشر للاستقلال هو استرجاع الدولة وإعادة بنائها على قاعدة قطرية.. وأنه وقع توظيف فكرة وحدة أقطار المغرب في خدمة قضية الاستقلال وبناء الدولة القطرية.. ولا غرابة أن تحتل الدولة في المغرب العربي مكانة تختلف عن مكانتها في المشرق، فلئن كانت في المشرق تُعدُّ كياناً مصطنعاً "يقف عرضة أمام الأهداف القومية" فإنها في المغرب تُعدُّ مكسباً إيجابياً كافحت من أجله الأجيال، وارتبطت به طموحات الناس"، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1987، ص 38.
- 3 - تشير بشكل خاص إلى وقائع اللقاء الفكري الذي أعده مركز الدراسات العربية وعقدته في مبنى جامعة الدول العربية في القاهرة يومي 6 و 7 آذار/ مارس 1988 تحت عنوان: "رؤية للنظام العربي: الواقع والطموح"، وقد شارك فيه عدد من الباحثين العرب، ونشرت وقائعه في عدد خاص من مجلة "الباحث العربي"، العدد السادس عشر الصادر في تموز/ يوليو 1988، استفدنا كثيراً من أبحاث ومناقشات هذا اللقاء لدراسة المقولات العلمية الجديدة التي وصل إليها الفكر القومي التوحيدي في علاقته بالخطاب القطري الراهن من جهة، وفي علاقة النظام العربي بالنظام العالمي بعد التطورات المهمة الجارية على ساحة النظامين العالميين الرأسمالي والاشتراكي.
- 4 - مركز دراسات الوحدة العربية (ناشر): "جامعة الدول العربية، الواقع والطموح" بيروت 1983، وهو كتاب توثيقي مهم لوقائع الندوة التي عقدت تحت هذا العنوان، وحفلت بالأبحاث والمناقشات العلمية الموضوعية.

- 5 - مجلة "الباحث العربي"، العدد السادس عشر، مرجع سابق، ص 7.
- 6 - المرجع السابق، ص 55.
- 7 - ساطع الحصري: "ثقافتنا في جامعة الدول العربية"، مركز دراسات الوحدة العربية، طبعة خاصة 1985، ص 15.
- 8 - أحمد يوسف أحمد: "الصراعات العربية - العربية 1945 - 1981"، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1981، وقد تضمن الكتاب جداول زمنية لبعض جوانبها وأساليب حلها عبر الزعامات القطرية نفسها أو عبر جامعة الدول العربية، وأثر ذلك في النظام الإقليمي العربي الراهن، واستنتج أن الصراعات بين البلدان العربية لا تحمل وإنما تتم تهدئتها أو تسوى على أحسن الفروض، نتيجة لعدد من المؤتمرات التي لا تمس جوهر التعارض بين البلدان العربية، ولذا فإن تأثيرها يكون مؤقتاً، وسرعان ما ينحسر لتبدأ مصادر الصراع بين البلدان العربية في إحداث أثرها من جديد (ص 215)، وأبرز الحلول التي توصل إليها هي: أن الأوان لكي نفكر في صيغة للتعايش السلمي بين النظم السياسية العربية.. وأن الأوان لإيجاد حل لمعضلة العلاقات المصرية العربية.. وأن الأوان للتفكير في إيجاد السبل العملية لتنفيذ الخطط الكثيرة والممتازة التي وضعت من أجل تقوية العلاقات الاقتصادية والثقافية العربية.. وأن الأوان لإعطاء ظاهرة الصراعات العربية - العربية اهتماماً أكبر بكثير من مجرد البكاء على أطلال التضامن العربي، أو الدعوات المثالية لتجاوز المأزق العربي الراهن، أو الدراسات الجزئية للموضوع.. ص 225 - 223.
- 9 - "الباحث العربي"، مرجع سابق، ص 23.
- 10 - استخدام غسان سلامه مصطلح "الإمبريالية الفرعية" بصيغة الاستفهام حول الدور المتزايد لبعض الأقطار العربية في الاستراتيجية العامة للإمبريالية العالمية.
- غسان سلامة: "السياسة الخارجية السعودية منذ عام 1945 - دراسة في العلاقات الدولية"، معهد الإنماء العربي، بيروت 1980.
- 11 - مجلة "الباحث العربي"، العدد السادس عشر، مرجع سابق، ص 100.
- 12 - سباعوي الحسن: "حل النزاعات بين الدول العربية - دراسة في القانون الدولي"، بغداد 1987، ص 10.
- 13 - لطفي عبد الوهاب يحيى: "الكيان العربي بين المقومات والإمكانيات - دراسة

- إيديولوجية في البنية القومية"، الطبعة الثانية، الإسكندرية، 1986، ص 122.
- 14 - راجع الدراستين الهامتين في هذا المجال: محسن عوض: "محاولات التكامل الإقليمي في الوطن العربي"، ومجدي حماد: "المنظمات الإقليمية ومسألة الوحدة"، والمنشورتين في مجلة "المستقبل العربي"، السنة الحادية عشرة، العدد 121، آذار/مارس 1989، ص.ص 68 - 133.
- 15 - جورج طرابيشي: "الدولة القطرية والنظرية القومية"، دار الطليعة، بيروت 1982، ص 18 - 19.
- 16 - المرجع السابق: ص 20.
- 17 - ساطع الحصري: "ثقافتنا في جامعة الدول العربية"، مرجع سابق، ص 79 - 80 بعنوان: "مؤتمر لبحث خصائص الثقافة العربية ومقوماتها".
- 18 - ليلي السايح: "الإقليمية الثقافية، من الانطواء إلى التغريب"، مقالة منشورة في مجلة "شؤون عربية"، العدد السابع، الصادر في أيلول سبتمبر 1981، ص 82 - 84.
- 19 - غسان سلامة: "معوقات الواقع العربي القطري"، بحث قدم إلى ندوة "الوحدة العربية.. تجاربه وتوقعاتها" التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية بالاشتراك مع جامعة صنعاء في مدينة صنعاء 5 - 8 أيلول/ سبتمبر 1988، وقد حفل هذا البحث بالكثير من الأسئلة المشروعة حول ضرورة تجاوز الإيديولوجيا العربية السائدة في مجال علاقة القطري بالقومي، لكن الاستنتاجات التي توصل إليها الباحث عرضة للانتقاد العلمي في جوانب أساسية منها.

أهريكا تصنع داعش... وتزعم أنّها تحاربه

د. عيسى الشمّاس*

مقدمة:

كانت بداية /داعش/ في العراق في (15 تشرين الأول، 2006) بعد اجتماع مجموعة من الفصائل المسلّحة ضمن معاهدة (حلف المطيّبين)، وتمّ اختيار "أبو عمر البغدادي" زعيماً لها. وبعد مقتل /أبو عمر البغدادي/ في يوم الإثنين 2010/4/19، تولّى "أبو بكر البغدادي" الزعامة، وشهد عهده توسعاً في العمليات النوعية في بغداد (عملية البنك المركزي ووزارة العدل واقتحام سجن "أبو غريب" والحوث).

قام تنظيم /داعش/ كفرع من مجموعة فروع القاعدة، ومنذ ولادته على يد مؤسّسه الأول (أبو مصعب الزرقاوي)، على مبدأ القتل واستراتيجية التدمير بلا تفريق وبلا هوادة، وقد ورد في رسالتين ضمن مجموع رسائله أنّه "لا فرق بين عدو خارجي باعتباره كافراً أصلياً، أو عدوّ داخلي باعتباره كافراً مرتدّاً، فلا فرق بين أميركي أو عراقي، كردياً أم عربياً؛ سنياً كان أم شيعياً لأنّهم جميعاً في نظر داعش كفرة وملحدون يجوز قتلهم".

ويهدف تنظيم داعش من عملياته الإرهابية إثارة الفوضى، وتقسيم وحدة المجتمع، وزعزعة أمنه واستقراره. ولتحقيق ذلك فإنّه لا يتورّع عن استخدام جميع وسائل القتل والترويع، بلا تفريق أو تمييز في استهدافه. ولذلك أصدر تنظيم

* كاتب وباحث سوري، عضو جمعية البحوث والدراسات في اتحاد الكتاب العرب.

"داعش" وثيقة مطلع عام 2010 بعنوان: "خطة استراتيجية لتعزيز الموقف السياسي لدولة داعش"، كان من أهم مبادئها: الدعوة إلى استهداف من سمّتهم الأعداء الداخليين، وذلك تحت مبدأ "تسع رصاصات على المرتدّين ورصاصة على الصليبيين"، وهم يعنون بالمرتدّين أبناء الصحوات وأبناء العشائر في العراق.

وأعلنت /داعش/ إقامة الدولة الإسلامية في العراق والشام بتاريخ (29 حزيران 2014)، تحت راية الخلافة الإسلامية ومبايعة أبي بكر البغدادي خليفة للمسلمين، وأعلن الناطق الرسمي لداعش /أبو محمد العدناني/ أنه تمّ إلغاء اسمي العراق والشام من مسمّى الدولة، ووصف حدود الدولة بأنها صنم أزيل على يد مقاتليها.

أولاً - داعش صناعة أمريكية... :

لا شك أن ظهور تنظيم (داعش) لم يأت من فراغ، ولكنّه أثار الكثير من التساؤلات حول نشأته ومن يقف وراءه، وما أهداف ظهوره في هذا التوقيت، ولا سيّما أنّه يقوم بممارساته الوحشية تحت راية الإسلام ويستقطب آلاف الإرهابيين/التكفيريين من شتى بقاع العالم. وكانت الإجابات مختلفة بحسب التفسيرات والتأويلات التي اختلطت بين المنطلقات الدينية والأهداف السياسية والاجتماعية، مع محاولات التشويه للحؤول دون الوصول إلى الحقيقة الجوهرية لظهور هذا التنظيم وأهدافه.

نشر موقع "غلوبال سيرش" تقريراً في 15 كانون الأول 2014، بعنوان: "معلومة عن (داعش) لا يريدك أوباما أن تعرفها"، جاء فيه أنّ "داعش" صنّعة المخابرات الأمريكية، وأجندة واشنطن لمكافحة الإرهاب في العراق وسورية تتمثّل في دعم الإرهابيين. ولم يكن اجتياح قوات داعش للعراق، ابتداءً من حزيران 2014، سوى جزء من عملية استخباراتية عسكرية مخطط لها بعناية، وتحظى بدعمٍ سريّ من الولايات المتحدة وحلف شمال الأطلسي و"إسرائيل".

تحدّث الرئيس الأمريكي /باراك أوباما/ في خطاب متلفز /أيلول 2014/ عن طبيعة تنظيم الدولة الإسلامية، ومقارنته مع تنظيم القاعدة، حيث ادّعى أنّ تنظيم داعش منظمة إرهابية بسيطة، وعلى الرغم من أنّه يستخدم الإرهاب كتكتيك، فليس له شبكات إرهابية كتتظيم القاعدة. وكان هذا

على خطأ لأنّ تنظيم داعش كان يضمّ حوالي ثلاثين ألف مقاتل في كلّ من العراق وسورية، ويشارك في عمليات عسكرية متطوّرة، وهذا هو السبب في أنّ استراتيجيات مكافحة الإرهاب والتمرد قلّصت إلى حدّ كبير من تهديدات القاعدة، ولا تعمل الشيء ذاته ضدّ تنظيم (داعش).

ولذلك جاء التباطؤ الأمريكي في محاربة داعش عبر الإنترنت، متزامناً مع تمدّد داعش من سورية والعراق إلى قلب أوروبا وإفريقيا، وسط تكهنات وتحليلات ترجّح أنّ داعش صناعة أمريكية استخباراتية، من بينها ما قاله الكاتب والمحلل الأمريكي /ستيفن ليندلمان/، في مقالة نشرها مركز الأبحاث الكندي "غلوبال سيرش" على نسخته الإلكترونية في 9 كانون الثاني، 2016: إنّ هناك أدلة دامغة تثبت أنّ واشنطن تستخدم تنظيم (داعش) والجماعات الإرهابية الأخرى، كجنود في كلا البلدين، وفي أماكن أخرى، كما أنّ الحرب الأمريكية على الإرهاب ما هي إلاّ خدعة كاملة تغري شرارتها وسائل الإعلام، مضيفاً أنّ قادة وزارة الدفاع الأمريكية "البنّاغون" يساعدون مسلّحي "داعش"، بدلاً من قتالهم والقضاء عليهم.

وأشار /ليندلمان/ إلى أنّ القوات العراقية استولت في خريف (2015)، على كميات كبيرة من الأسلحة والذخائر والمعدات العسكرية الأخرى الواردة إلى داعش من القوات الأمريكية، ومن بينها صواريخ مضادة للدبابات والمدرعات، بالإضافة إلى صواريخ تُحمل على الأكتاف وأنظمة دفاع أرض - جو قادرة على إسقاط الطائرات، فضلاً عن طائرات تطير على مستويات منخفضة.

ومن جهةٍ أخرى اتهم /جعفر الجابري/ منسّق القوات الشعبية العراقية، أيضاً، واشنطن بتزويد مسلّحي تنظيم "داعش" بالأسلحة، عبر عمليات الإنزال التي تتمّ بالطائرات في المناطق الخاضعة تحت سيطرتهم، بالإضافة إلى المناطق المحرّرة، لتشجيعهم على مواصلة القتال.

وأكدّ /خلف الطرموز/ رئيس مجلس محافظة الأنبار أنّ تنظيم "داعش" يتزوّد بأسلحة أمريكية وأوروبية وأيضاً إسرائيلية، على نحو دوري.. ولذلك كانت واشنطن بطيئة في التكيّف مع سياساتها تجاه تهديدات داعش الحقيقية في العراق وسورية، ويكشف عن زيف ادعاءاتها في مكافحة الإرهاب، إذ

كانت الأولوية غالباً في السياسة الأمريكية هي التعامل مع تنظيم القاعدة، وغيض النظر عن تنظيم داعش لتتخذ محرّكاً وذريعة لتدخلاتها في المنطقة، في الوقت المناسب

ثانياً - داعش يتمرد على أمريكا:

نشرت صحيفة /واشنطن بوست/ عام 2010 مجموعة تحقيقات تكشف عن إنشاء (263) مؤسسة حكومية لمكافحة الإرهاب، بما في ذلك مركز الأمن الوطني وإدارة أمن النقل. ففي كل عام تنتج وكالات الاستخبارات الأمريكية حوالي (50.000) تقرير عن الإرهاب، كما تتابع (51) منظمة فيدرالية وقيادة عسكرية تدفق الأموال من الشبكات الإرهابية وإليها، وهذا ما جعل الهجمات الإرهابية على الأراضي الأمريكية نادرة جداً.

وبما أنه من المستحيل أن يركز الأمن في أي مكان من الأماكن العامة في أمريكا، فقد تم التركيز على تنفيذ القانون لاعتقال المشتبه بهم والمتعاطفين مع الدولة الإسلامية، قبل أن يتمكنوا من القيام بأي تصرف إرهابي، وذلك عن طريق المخبرين الذين يعرفون طريقة عمل تنفيذ القانون. ويشير مكتب التحقيقات الفيدرالي إلى أن معظم المشتبه بهم يعانون من الأمراض النفسية، وبالتالي فهم فريسة سهلة للقيام بأي عملية.

بناء على ذلك تمت تغذية مكتب التحقيقات الفيدرالي، بصورة متكررة، من الناس الذين يحتاجون إلى الرعاية النفسية، على خلاف مناصري داعش الذين يدعون أن الإسلام في الغرب يتعرض للاضطهاد. فالعشرات من الأمريكيين الذين تم القبض عليهم بتهمة التآمر لارتكاب العنف بالنسبة لداعش، ليس لعرض المحتوى المنظم بشكل جيد فحسب، وإنما لمساهمة من تم القبض عليهم في أشرطة الفيديو الخاصة بالعنف.

فعلى سبيل المثال /جون بوكر الابن/ الذي اتهم بالتخطيط لفتح النار على قاعدة للجيش الأمريكي، قال قبل إلقاء القبض عليه: "إنه سجل شريط فيديو من تلقاء نفسه حذر الأمريكيين من الحصول على أبحاثهم في الجيش". وهناك أيضاً /هارلم سواريز/ من فلوريدا المتهم بطبخة السيناريو على فيديو يروج لداعش، وتعهّد فيه المساعدة في "رفع راية سوداء على البيت الأبيض".

وهناك مثال آخر عن حالة /إدوارد آرثشر/ الذي ركض إلى سيارة شرطة في غرب فيلاديلفيا الأمريكية (7 كانون الثاني 2015)، وأطلق (13) طلقة من مسدّس مسروق، فأصاب سائق السيارة بثلاث طلقات ولكنه نجا، ولدى استجوابه كان سعيداً بدافع عمله، وقال: "أتابع الله ومبايعة داعش، وهذا هو السبب الذي دفعني لفعل ما قمت بفعله".

فمن الممكن أنّ /آرثشر/ كان قد درس الكلمات النارية التي يدلي بها /أبو محمد العدناني/ الناطق باسم داعش، ويحثّ فيها المتعاطفين مع تنظيم داعش على قتل الغربيين "غير المؤمنين" بأي وسيلة ضرورية (بما في ذلك تدمير محاصيلهم). وهذا ترجمة لأقوال /أبي بكر ناجي/ المنظمّ للعمليات الإرهابية الوحشية، الذي وصف الحاجة إلى التعامل مع الدول الغربية، بأنها تكمن في ارتكاب ما أسماه "الإبادة الثقافية".

ولكن نظرة فاحصة على حياة /آرثشر/ تثير الشكوك حول عمق مشاركته مع الدولة الإسلامية؛ فقد ادّعت والدته أنّه كان يعاني من هلوسات قويّة، وأنّه كان من المقرر أن يصدر الحكم عليه بتهمة التزوير بعد أربعة أيام فقط من الهجوم.

وعلى الرغم من تلك الإجراءات يقول الصحفي الأمريكي /لي فيران/: بما أنّ الهجمات الإرهابية لا تزال قائمة في عدد من المدن الأمريكية، على الرغم من استخدام مكتب التحقيقات الفيدرالي عدداً من المخبرين، فإنّه من غير المغري الاعتقاد بأنّ المزيد من التدابير القاسية هي في ترتيب الأولويات وإعطاء الحكومة وسائل فك تشفير برامج (إبل آي فون).

ثالثاً - أمريكا تزعم أنّها تحارب داعش:

تدّعي الولايات المتحدة الأمريكية أنّها تقوم بحملات عسكرية واستخباراتية هائلة لاعتقال أو قتل القيادات المركزية في تنظيم القاعدة، خلال غارات بطائرات من دون طيار، وغارات لقوات خاصّة. وأنّه تمّ قتل نحو (75%) من القادة الأساسيين في تنظيم القاعدة.

أمّا تنظيم "داعش" فقد تمّ الجدل حول ما ينبغي أن تستجيب له واشنطن من خلال التطبيق الثاني من استراتيجية مكافحة الإرهاب. ويبدو أنّ البيت

الأبيض اقتنع جزئياً - على الأقل - بهذا الخطّ من التفكير منذ العام 2014، وطلب أوباما من /ألين ليكون/ ليكون المبعوث الخاص لبناء تحالف دولي لمكافحة داعش في المنطقة.

نشر موقع "غلوبال سيرش" تقريراً في 15 كانون الأول 2014، بعنوان: "معلومة عن (داعش) لا يريدك أوباما أن تعرفها"، جاء فيه: أنّ الحرب التي تقودها الولايات المتحدة ضدّ داعش مجردّ كذبة كبرى، وما ملاحقة "الإرهابيين الإسلاميين" وشنّ حرب وقائية في جميع أنحاء العالم، لحماية الوطن الأمريكي، سوى ذريعة (لتبرير) أجندة عسكرية.

إنّ الاختلافات الواسعة القائمة بين الوضع الحالي وما واجهته واشنطن عام 2006، ومنطق الولايات المتحدة في مكافحة التمرد، لا تتناسب مع الكفاح ضد داعش. وقد اعتمدت الولايات المتحدة استراتيجية مكافحة التمرد، لتكون نموذجاً لكيفية محاربة الحركة المتطرفة الواسعة، ولذلك دعا بعض المراقبين إلى اعتماد مبدأ (فرّق تسد) لتطبيق هذه الاستراتيجية ضد داعش.

ولكنّ هذا النهج لم ينجح بسبب فوات الأوان، فقيادة /داعش/ الآن من المدربين تدريباً جيداً من العسكريين العراقيين السابقين الذين يعرفون تقنيات الولايات المتحدة الأمريكية، وتنظيم داعش مسلّح بالدبابات والمدفعية والعربات المدرعة، والمركبات المضادة للألغام، وكلّها أمريكية الصنع.

فهذه الإجراءات/ التكتيكات لا تحمل كثيراً من الأمل، لأنّها ليست مناسبة تماماً للتعامل مع تنظيم داعش الذي يقدم نوعاً مختلفاً من التحديّ الإرهابي. ممّا يجعل الغارات والطائرات من دون طيار أكثر صعوبة للقيام بها، وببساطة فإنّ الزعم بقتل زعماء تنظيم داعش لن تشلّ هذه المنظمة أو تضعفها.

فتنظيم "داعش" يطرح تحدياً كبيراً لتكتيكات مكافحة الإرهاب الأمريكية التقليدية التي تأخذ هدفها في الدعاية وتمويل الجهاديين وتجنيدهم. ففي عام 2004 أنشأت وزارة الخزانة الأمريكية مكتب مكافحة الإرهاب والاستخبارات المالية، واتخذت إجراءات أدّت إلى خفض كبير في قدرة تنظيم القاعدة على الاستفادة من غسل الأموال وتلقي الأموال، تحت غطاء العمل الخيري.

وظهرت بعد ذلك شبكة عالمية لمكافحة تمويل الإرهاب بدعم من الأمم المتحدة والاتحاد الأوروبي، ومئات من المنظمات الحكومية المتعاونة معها، وكانت النتيجة حدوث أزمة خطيرة في تمويل تنظيم القاعدة. وذكرت وزارة الخزانة الأمريكية أنه بحلول عام 2011، "ستكافح القاعدة من أجل تأمين تمويل ثابت لتخطيط وتنفيذ هجمات إرهابية".

ولكن هذه الأدوات لم تسهم إلا قليلاً في مكافحة "داعش"، فهو لا يحتاج إلى تمويل خارجي لأنه يتمسك بالأرض التي يستولي عليها، بما يسمح له ببناء نموذج مالي يحقق اكتفاء ذاتياً لا يمكن تصوّره لدى معظم الجماعات الإرهابية.

وكان ردّ فعل الولايات المتحدة وحلفائها على تنظيم داعش قد أتى في وقت متأخر، وفي حالة من الذهول الواضح، بينما كانت طموحات التنظيم ومخططاته الاستراتيجية واضحة في التصريحات والدردشات على وسائل التواصل الاجتماعي، منذ العام 2011، عندما كان داعش واحداً من مجموعات إرهابية في سورية والعراق، وكانت فظائعه الإجرامية المستمرة حتى الآن.

ولذلك يقول /بيتر أرنوت/ من قناة (سي. إن. إن): أخفقنا (أي الولايات المتحدة) في تقدير الانقسام بين تنظيم داعش وتنظيم القاعدة، والاختلافات الجوهرية بين التنظيمين، وهذا ما أدّى إلى اتّخاذ قرارات خطيرة. لنأخذ مثلاً واحداً: وافقت الحكومة الأمريكية على خطة يائسة لإنقاذ حياة /بيتر كاسيج/، وكانت خطة سهلة في الواقع، إذ كان المطلوب تفاعل بعض الشخصيات المؤسسة لتنظيم داعش والقاعدة، على أن ذلك كان من الصعوبة بمكان لأنّ البداية كانت على عجل.

ولكن ذلك كان سيؤدّي إلى تجنيد /أبو محمد المقدسي/ مرشد الزرقاوي وعميد تنظيم القاعدة، للاقترب من /تركي البنعلي/ المنظر الأيديولوجي لتنظيم داعش، وهو طالب سابق من طلبة المقدسي، على الرغم من أنّ الرجلين (الزرقاوي والبنعلي) سقطا بسبب انتقادات المقدسي لداعش.

وكان المقدسي قد دعا بالفعل إلى تمديد الرحمة لـ /آلان هينيغ/ وسائق سيارة الأجرة البريطاني /ديفيد هاينز/ اللذين دخلا سورية لإيصال المساعدات إلى

الأطفال، كما يدّعي المقدسي. وفي كانون الأول عام 2014 ذكرت صحيفة الغارديان أنّ حكومة الولايات المتحدة الأمريكية طلبت من المقدسي، وعبر وسيط، أن يتوسّط لدى داعش للنفو عن /بيتر كاسيخ/.

ولكن هذه الوساطة لم تنجح، فأعدم/كاسيخ/ومن ثمّ/هينيج وهابنيز/وظهرا في أشرطة فيديو (أوائل عام 2015)، وتمّ بعدها إعدام رهينتين يابانيتين، وظهر شريط آخر لجماعة إرهابية تحرق طياراً أردنياً وهو على قيد الحياة.

وفي شباط 2015 توفيت /كايل مولر/ البالغة من العمر (26) عاماً، على يد مجموعة إرهابية، ولم تعرف طريقة موتها، وكانت قد سافرت بوصفها عاملة إغاثة، وهي تظنّ أنّ مساعدتها حاجة ماسّة. وقد قالت في صحيفة محلية عام 2013: "لطالما أنا أعيش لن ندع هذه المعاناة أن تكون طبيعية.. لن أسمح أن يكون هذا.. ومن المهم أن نوقفه وندرك ما لدينا.. ومن ذلك المكان تبدأ الرعاية والقيام بالكثير ممّا يمكن القيام به..".

كان /أبو محمد المقدسي/ يعيش بحرية في الأردن، ولكن تمّ منعه من التواصل مع الإرهابيين في الخارج، ومراقبة تحركاته عن كثب. وبعد منح الأردن إذن الولايات المتحدة لإعادة المقدسي إلى /تركي البنعلي/، اشترى المقدسي هاتفاً، وسمح له بالتواصل مع تلميذه السابق (البنعلي) لبضعة أيام، قبل أن توقف الحكومة الأردنية الأحاديث بينهما، وتستخدمها ذريعة لسجن المقدسي. وبعدها بأيام قليلة ظهر /كاسيخ/ على شريط فيديو وهو مقطوع الرأس.

كان موت /كاسيخ/ مأساة كبيرة، ولكن نجاح الخطة كان أكبر منها، فالمصالحة بين المقدسي والبنعلي، من شأنها رأب الصدع الرئيس بين أكبر منظمّتين تكفيريتين في العالم. ومن الممكن أنّ الحكومة الأمريكية تريد فقط تخليص /البنعلي/ لأغراض استخبارية أو لقتله. (وقد كانت محاولات عدّة للحصول على تعليق ناجح من مكتب التحقيقات الفيدرالي)، وهذا ما يكشف سوء الحكم بشكل مدهش. ولذلك دعا بعض المراقبين للتصعيد ضد داعش، بما في ذلك الأصوات التي تتنبأ بحقّ التدخل الأمريكي، مثل:

(ماكس بوت، فريدريك كاغان) اللذين حثّا على نشر عشرات الآلاف من الجنود الأمريكيين في سورية والعراق. فيجب أن لا ترفض هذه الدعوات بسرعة كبيرة جداً، مادام يرتكب "داعش" الفظائع اليومية في الأراضي التي يسيطر عليها بالفعل.

يقول /أبو البراء/ عبر قناة اليوتيوب، حول الشريعة الإسلامية: "الخليفة البغدادي لا يمكن أن يتفاوض على الحدود أو يعترف بها، بل يجب أن يبذل الجهد للاستمرار في الحرب، والأستتم إزالته من الإسلام". فنحن نعرف كل شيء عن داعش، والاستمرار في استنزاف التنظيم ببطء من خلال الضربات الجوية والحرب بالوكالة التي تبدو أفضل الخيارات العسكرية السيئة.

إنّ التكلفة الإنسانية من وجود داعش عالية جداً، لكن تهديدها للولايات المتحدة أصغر من تهديد تنظيم القاعدة، فالبعد الأساسي لتنظيم القاعدة أمر نادر الحدوث بين الجماعات التكفيرية لأنّه يركّز على "العدو البعيد (الغرب)"، بينما الشواغل الرئيسة لمعظم الجماعات التكفيرية، تكمن في الأماكن القريبة، وهذا ينطبق بشكل خاص على داعش، بسبب إيديولوجيته، فهو يرى الأعداء في كل مكان حول "منزله"، ولذلك فإنّ التوسّع في الأراضي المناخمة لتنظيمه له أهمية قصوى.

ثمة حقيقة واقعية هي أنّ الولايات المتحدة الأمريكية ليس لديها خيارات عسكرية جيّدة في حربها ضدّ داعش/، ومن المرجح أن تحقّق واشنطن انتصاراً واضحاً ضدّ الجماعة، وليس لمكافحة الإرهاب أو مكافحة التمرد أو الحرب التقليدية. وبطبيعة الحال فإنّ شنّ الغارات الجوية على داعش، وقطع الإمدادات من التكنولوجيا والأسلحة والذخيرة، ربّما يزيد من ضعف التنظيم.

ففي قمّة حول مكافحة الإرهاب جمعت إدارة /أوباما/ معظم زعماء العالم في واشنطن لمناقشة كيفية مكافحة الراديكالية (الجهادية). وهذه عملية لها أهميتها وقيمتها، ولكن على الرغم من أنّها سلّطت الضوء على التهديد الحالي الذي يمثله تنظيم القاعدة الإقليمية، فإنّها عزّزت أيضاً فكرة أنّ تنظيم داعش هو في المقام الأول تحدياً لمكافحة الإرهاب. فتتظيم داعش يمثّل خطراً أكبر من

ذلك بكثير لأنه يسعى إلى تحدي النظام الدولي الحالي، على عكس تنظيم القاعدة الأساسي الذي تقلص إلى حد كبير.

ومن المرجح أن يواجه البيت الأبيض العديد من الهجمات على نهج الاحتواء الذي لا يرضي أيًا من الصقور أو المعسكر المناهض للتدخل في داخل مؤسسة الأمن القومي الأمريكي. وفي مواجهة مثل هذه الانتقادات ينبغي على الولايات المتحدة أن تبقى ملتزمة بقتال تنظيم داعش على المدى الطويل، بطريقة تستخدم وسائل فاعلة، وتحسين الجهود الأمريكية الرامية لاحتواء التنظيم، عن طريق تحريك الأشكال التي عفا عنها الزمن الماضي، لمكافحة الإرهاب والتمرد، وعبور العتبة إلى حرب كاملة. ومع مرور الوقت، والنجاح في احتواء تنظيم داعش، ربما تفتح خيارات سياسية أفضل. ولكن في المستقبل المنظور فالاحتواء هو أفضل سياسة ممكنة، تتبعها الولايات المتحدة الأمريكية.

وعلى الرغم من ممارسات تنظيم داعش ودعاياته كلها، فلا يمكنه البقاء على قيد الحياة، لأنه سيفقد قبضته على أراضيه في سورية والعراق، وستتوقف الدولة عن أن تكون خلافة. فالخلافة لا يمكن أن توجد، شأنها شأن الحركات الإسلامية المتطرفة، لأن السلطة الإقليمية شرط يسلب قيادتها من الأراضى، والولاء لها لم يعد ملزماً. فقد تبقى التعهدات السابقة بمهاجمة الغرب وقطع رؤوس الأعداء، ولكن قيمة الدعاية للخلافة سوف تختفي، ومعها الواجب الديني المفروض على المهاجرين لخدمتها.

فالحرب ضد "داعش" في سورية والعراق، ليست مشكلة أمريكية، بل تهمّ جهات إقليمية ودولية لأنه يوحى بتهديدات عالمية. ولذلك يجب على واشنطن أن تتوقف عن التصرف كما لو أنها يمكن أن تحلّ مشكلات المنطقة بالقوة العسكرية، من خلال زعمها أنها تحارب الإرهاب، وفي مقدمته تنظيم داعش.

كارل ياسبرز فيلسوف التواطؤ والخيانة لقيام الفلسفة

صالح سميا*

لم يكن الفيلسوف الألماني كارل ياسبرز عدواً للاشتراكية فحسب، بل كان رافضاً للتعايش السلمي والحياد الإيجابي، ومدافعاً شرساً عن النظام الرأسمالي، وكان موقفه من النظام النازي الهتلري مدعاة للشك والريبة، فقد آثر الصمت والتواطؤ مع النازية طيلة حكم الفوهرر، وعندما انهزمت ألمانيا انقلب عليها، وآثر الحرية على وحدة ألمانيا، وراح يطالب بإدخال ألمانيا في المعسكر الغربي تحت قيادة أمريكا.

فهل كان موقفه الأول سبباً لموقفه الثاني، أو أن موقفه الثاني كان إحساساً وتعويضاً عن بالذنب من موقفه الأول؟

بالنتيجة كان لـ/ياسبرز/ موقفان: الأول التواطؤ مع النازي، والثاني التواطؤ مع الأمريكي.. ويبدو هذا التواطؤ في موقف ياسبرز من ألمانيا قبل الحرب، وموقفه بعد الهزيمة، وقد أعلن عن كلا الموقفين بعد انتهاء الحرب وهزيمة ألمانيا.

أعلن بعد الهزيمة عن براءته من أعمال ألمانيا النازية، وتحول فجأة إلى مدافع عن ألمانيا المهزومة، عن حريتها واستقلالها، وكان موقفه قبل الهزيمة موقف الصمت المطلق.

* أديب وباحث سوري، عضو اتحاد الكتاب العرب.

لقد أخرجته الحزب الوطني الاشتراكي من الجامعة سنة 1939، وخلعه من منصبه سنة 1937، ومنعه من النشر ابتداءً من سنة 1938 لكون زوجته يهودية الأصل، لا لأنه أخذ موقفاً معادياً للنازية وهي في أوجها، وهو المفكر والفيلسوف الداعي للحرية، والرافض للنظم الشمولية، وقد توسط أحد أصدقائه من الحزب لدى السلطة الحاكمة، فلم يصب بسوء مقابل الصمت، وقد اعترف ياسبرز بعد ذلك باثني عشر عاماً بأنه كان "سلبياً ومذنباً"، وطوال حكم الحزب الوطني الاشتراكي كان يتقاضى معاشاً، وظلّ يكتب حتى يحين الوقت المناسب للنشر، أي أنه أثر العزلة والمسألة والتعايش، مع أن النضال لديه هو أحد المواقف المحددة، وقد ظلّ في صمته ينتظر غزو الحلفاء، وتحطيم ألمانيا وهزيمتها، محاولاً أن يبني ألمانيا جديدة في مخيلته، تقوم على الحضارة واللغة، والتراث الروحي القديم، ما دام قد عجز عن تحقيق شيء من الموقف المحدد الذي وجد نفسه فيه، أي موقف النضال، وكان مثله في ذلك الوقت السويسريون الألمان سلالة العصر الوسيط، الذين ينعمون بالحرية العقلية من دون معاناة من ويلات الحروب.

ويعترف ياسبرز بموقفه هذا في سيرته الذاتية، مقرأً بأنه ليس سياسياً، وأن الظروف دفعته أحياناً للتعبير عن بعض الآراء الفلسفية في مواقف سياسية، وهو رجل فكر وليس رجل عمل، قد يكون ذلك بسبب اعتلال صحته، فهو مريض قلب منذ الصغر، وقد يكون السبب راجعاً لنقص في صفة البطولة، فقد كان جباناً كما يعترف هو، أو جراء إحساس منه بغريبته لا بألمانيته، أو قوميته، أو لإيمانه التقليدي؛ فقد كان مؤمناً متديناً، جعل ملكوته خارج هذا العالم.

لكن هذه التسويغات التي يسوقها ياسبرز لا تعفيه من تهمة التواطؤ والخيانة، والخروج على قيم الفلسفة، ليتحول إلى موقف المتفرج على الأحداث السياسية، مع أن والده وخاله كانا سياسيين، وصلوا إلى مناصب عالية.

وعندما طار منطاد "زبلن" أول مرة لم يشارك الشعب فرحته، لأنه كان يخشى من ويلات الحرب، وكان يخاف ممن يقول: "صوت الشعب صوت الله"، كما كان يخشى من حركات الجماهير، وكان معروفاً عنه أنه انهزامي في نادي الجامعة الذي تكوّن إبان الحرب العالمية الأولى لمناقشة الأحداث السياسية.

فلم يتعلم ياسبرز السياسة إلا من خلال مناقشات زملائه، وخاصة ماكس فيبر، ومنذ ذلك الوقت عرف كيف يفكر بأحداثها، ويتنبأ بهزيمة شعبه وبفقدان ألمانيا كثيراً من أراضيها، وهو لم يتحدث في محاضراته عن السياسة في أثناء الحرب، لأنه كما يقول لم يكن جندياً، ولم تكن لديه القوة الكافية، فأثر الانعزالية والابتعاد عن الأخطار.

بعد الحرب وهزيمة ألمانيا بدأ بمهاجمة الحزب الوطني الاشتراكي، واعتبره ضد الحرية وضد الشخصية الإنسانية، ونظاماً شمولياً كالأنظمة الاشتراكية، وشن حملة شعواء على النازية التي حكمت ألمانيا منذ 1933، كما تحدث عن الموت الجماعي الذي دبره هتلر للبشرية، وعن أفران الغازات السامة والحرب الكيماوية، فقد انقلب ياسبرز من الصمت المطلق قبل انتهاء الحرب إلى الحديث المستمر بعد الحرب وأصبح من أعداء النازية، تمهيداً لتواطئه الثاني مع الحلفاء، وقد عبر عن هجومه هذا عندما عاد إلى الجامعة من جديد في محاضرات ألقاها سنة 1945 - 1946، ونشرها بعنوان "الذنب الألماني" بعد أن تأكد من هزيمة ألمانيا وزوال الخطر النازي.

وقد ميز ياسبرز بين أربعة مفاهيم من الذنب:

الذنب الإجرامي، الذنب السياسي، الذنب الخلقى، والذنب الميتافيزيقي.

الذنب الإجرامي ما يقترفه المرء في حق القانون الوضعي، ويترتب عليه العقاب.

والذنب السياسي ما يقترفه الإنسان في حق الدولة، ويترتب عليه المسؤولية الجنائية.

والذنب الخلقى ما يقترفه الإنسان في حق الجار، ويترتب عليه تأنيب الضمير والتوبة.

والذنب الميتافيزيقي ما يقترفه المرء في حق العالم كله، أي في حق الله، ويترتب عليه تغيير النفس داخلياً، وتصفيتها أمام الله.

وقد حاول ياسبرز من خلال هذه التفرقة الرباعية أن يحوّل المسألة النازية من مشكلة سياسية إلى مشكلة خلقية ودينية، وكان هدف ياسبرز من هذه

السفسطة تبرئة الشعب الألماني من الذنب السياسي، ونفي تأييد هذا الشعب للحكم النازي، بحيث لا يبقى أمام هذا الشعب سوى التوبة عن الماضي، والعودة إلى حب الآخرين، مع أن الشعب الألماني كان بأغلبه مع النازية قبل الحرب وإبانها، ولعل هذا التفكير ما زال قائماً حتى الآن، من خلال ما تقدمه ألمانيا للصهيونية ولدولة "إسرائيل".

لقد كان أمام الشعب الألماني مواقف عدة، عليه أن يختار أحدها.

1 - الحياة تحت الأقنعة، وهو الموقف الذي اختاره ياسبرز لنفسه، والذي لا يؤدي في رأيه إلا إلى الذنب الأخلاقي، ولا يتطلب إلا التوبة وتغيير النفس.

هكذا يحاول ياسبرز تسويغ موقفه، حيث يسمح لبعضهم أن ينزلوا عن السياسة ليعيشوا خارجها كالرهبان والعلماء والفنانين، فانعزالهم يجعلهم لا يشاركون في الذنب الأخلاقي، ففي رأيه أن على العالم والمفكر والفنان أن ينزل عما يدور في واقعه من أحداث، ولنا أن نتصور هذه الفتوى للسيد ياسبرز التي تطالب طليعة الشعب والمجتمع من علماء وكتاب ومثقفين وفنانين، الذين هم مقياس كفاح الشعب وحراس أمنه وسلامته، بالتفرج على ما يحدث في مجتمعهم.

2- الوقوع في الخطأ بتبني نظام الحكم النازي، ثم اكتشاف عيوبه فيما بعد..

وهو حال الشعب الألماني في رأي ياسبرز، بل ياسبرز هو الذي لم يكتشف عيوب هذا النظام إلا بعد الهزيمة، وفي هذه الحالة لا يكون الشعب مذنباً، بل مجرد خطأ لا إرادي وغير مقصود، يعدُّ الشعب بعدم العودة إليه، وبالتكفير عن ماضيه بالتوبة.

هكذا يبرئ ياسبرز الشعب الألماني الذي أعطى ثقته لقيادة الحزب النازي بالانتخابات العامة، وهو على وعي تام بأهدافه وإعداده للحرب.

3- المساومة والموافقة المعنوية لتحقيق وحدة الرايش الألماني وللقضاء على البطالة..

وهنا أيضاً يسوِّغ للشعب الألماني تأييده للنازية فلا ضرر أن يسعى الألمان لوحدة وطنهم، ومناصرة القضايا العمالية، فقد نشأ الحزب الاشتراكي على أكتاف حزب العمال الألماني القائم بالفعل، والذي انضم إليه هتلر.

4- التفرقة بين المساهمة الإيجابية والمساهمة السلبية:

فإذا كانت المساهمة الإيجابية ذنباً، فإن السلبية، أي السكون والصمت ليس ذنباً، الذنب السلبى يسوِّغُ العجز، وهكذا يسوِّغُ ياسبرز موقفه بأنه كان عاجزاً، ويرى أن الشهادة للشهادة انتحار، ويلجأ إلى تاريخ الفلسفة ليجد حجة، وقد وجدها عند أفلاطون الذي أوصى بالاختفاء، يقول ياسبرز: " عندما أخذوا اليهود لم ننزل إلى الشارع، ولم نصرخ، حتى لا يقضوا علينا، وفضلنا البقاء أحياء لسبب ضعيف، مع أنه عادل، فلن يؤدي موتنا إلى شيءٍ" إن لم ينجح علمنا في المقاومة، فإنه يكون تأييداً معنوياً لكل الشعب، ورمزاً يشهد على قوى الاضطهاد، هذه هي انتقادات أصدقاء لي رجالاً ونساءً سنة 1933، ويردُّ ياسبرز عليهم بأنه كان يكتشف العلو في أعماق نفسه في ذلك الوقت.

5- الطاعة والتعايش حتى لا يفقد الإنسان وظيفته، أو فرص نجاحه..

ويسوِّغُ ياسبرز لهؤلاء ولا يدينهم، وذبهم لا يتعدى الذنب الأخلاقي.. هكذا ينتهي ياسبرز من تحليله لمسألة الذنب الألماني إلى مطالبة كل ألماني بتغيير نفسه داخلياً، ومراجعة نفسه ومحاسبتها على ما فعلت، أي لتبرئة الشعب الألماني من كل جرائم النازية، فالجريمة السياسية تحل بالطهارة الداخلية، والجريمة الجنائية من السهل تبرئة الإنسان نفسه منها، والذنب الخلقى يجد حلاً في الحياة الجديدة بعد التوبة، والذنب الميتافيزيقي لا قيمة له ولا ينتج عنه شيء، فهو مجرد إحساس غامض أمام الكون وأمام الجنس البشري، لا يترتب عليه عقاب، ولا يشهده إلا الله.

بهذه الفلسفة الياسبرزية أثبت الفيلسوف الذنب السياسي وفصله عن العقاب، وبالتالي حصر المسؤولية السياسية في دفع الشعب تعويضات، دون إدانة الشعب إدانة سياسية، وهو ما حصل فعلاً عندما قامت ألمانيا بدفع التعويضات لدولة "إسرائيل".

والأخطر من ذلك هو تبرئة الشعب الألماني كله باستثناء أفراد الحزب أو لجنة العليا، حيث لوحقت وحوكمت، وحجة ياسبرز أنه لا يمكن اتهام جماعة ما وإثبات مسؤوليتها عن عمل جماعي، إنه لا يمكن توقيع العقاب إلا على

أفراد، وحثه أن بعض الأفراد قد عارضوا نظام الحكم النازي، وكان مصيرهم التعذيب أو الطرد أو السجن وحتى القتل، كما رفض بعضهم الآخر هذا الحكم عن طريق المقاومة السلبية، كما فعل السيد ياسبرز، أي الصمت، أو الهجرة إلى دول أخرى مثل الولايات المتحدة الأمريكية، مع أن ياسبرز يعدُّ المقاومة شهادة للشهادة لا خير فيها، والهجرة تحل محل المقاومة.

إن تبرئة الشعب الألماني كله وإلقاء التبعية على بعض الأفراد، أو على هتلر وجماعته، كان تمهيداً لتأييده لمحاكمة "نورمبرغ" المشهورة، مع أن هؤلاء لم يقوموا بأعمالهم إلا بتأييد جماهيري واسع، وباعتبارهم ممثلين للشعب وصلوا عن طريق الاقتراع سنة 1933، وقد أيد الحكومة النازية يومذاك سبعة عشر مليوناً من الأصوات، وفي قسم "نورمبرغ" المشهور قبل الحرب بشهور، تمت المبايعة العامة لهتلر وصحبه وكأنهم آلهة ألمانيا الجدد، ولم يكونوا أفراداً كما يدعي ياسبرز، وقد وافق ياسبرز على قول "جاكسون" أحد قضاة "نورمبرغ": "نريد أن نعلن بوضوح أننا لا نقصد إدانة الشعب الألماني كله"، كما يوافق على محاكمة هؤلاء الأفراد الذين هم في الحقيقة ممثلو الشعب الألماني، بجرائم معينة حددتها المحكمة العسكرية الدولية، وصنفتها جرائم ضد السلام، وجرائم الحرب والاستعداد للعدوان وسوء معاملة المدنيين من طرد وسلب وتخريب، وجرائم ضد الإنسانية من قتل وإبادة.

مع أن هذه الجرائم كانت جزءاً من سياسة الدولة، وحتى من سياسة الدول التي شكلت محكمة "نورمبرج" والتي هي أكثر دول العالم عدوانية على شعوب العالم (فرنسا - بريطانيا - أمريكا)، لكن السيد ياسبرز كان يريد تبرئة الشعب الألماني من الذنب، وإلقاءه على بعض الأفراد ككبش فداء، ويرد ياسبرز على المعارضين لهذه المحكمة بالقول:

يقول المعارضون لهذه المحكمة، لقد عرفت الشعوب في مهدها حروباً، وعرفت المنتصر والمهزوم، ولم يحاكم المنتصر المهزوم مطلقاً، كما يحاكم الحلفاء ألمانيا الآن، بل يجب معاملة المهزوم معاملة الشريف، هكذا تقتضي قوانين الحرب، ويرد ياسبرز على هذا القول بقوله: إن ألمانيا كانت المعتدية على جيرانها دون أي استفزاز من الخارج، مع أن الشعب الألماني وافق على ضم هذه الشعوب الناطقة بالألمانية في بروسيا القديمة، ومورافيا، وبوهيميا، والألزاس

واللورين، والسار والنمسا وهولندا، ورفض السيطرة اليهودية على الاقتصاد الألماني، وكانت هذه دوافع لنشوء الحزب الاشتراكي، وياسبرز لا يذكر ذلك مكثفياً بجعل ألمانيا معتدية، حتى يعوض إحساسه بالذنب إبان الحكم النازي، فالصمت المطبق يتبعه الاتهام المطلق.

ثم لا يرى ياسبرز في هذه المحكمة عاراً وطنياً؛ لأن الحلفاء الذين حرروا ألمانيا هم الذين يحاكمون، ولا يرى غرابة أن يحاكم المنتصر الأجنبي، الألماني المهزوم، وليس المحرر كما يدعي ياسبرز وكل هذا تقريباً للحلفاء على حساب وطنه، ويرفض الرأي القائل: إن محاكمة الألمان من اختصاص الألمان أنفسهم، لأن الألمان هم أصحاب الحق، وهم الذين عانوا ويلات الحرب، كما يرفض ياسبرز إقام محكمة محايدة، وتتصيب قضاة من دول لم تشارك في الحرب، ويجعل المحاكمة من حق المنتصر.

كما يرفض السؤال: كيف تكون هناك جريمة في نطاق السيادة، وما هي جريمة الحاكم إن كان قد وصل إلى الحكم عن طريق الاقتراع العام؟ ويرد ياسبرز بالقول: إن الحاكم وإن استمد سلطته من الشعب فإنه قد خانها وعمل ضدها، لكن هل الطريق هو محاكمة هذا الحاكم من الحلفاء، أو أن الطريق هو سحب الثقة منه وإقالته من الحكم من الذين منحوه هذه الثقة؟!

لكن الألمان لم يثوروا ولم يسحبوا الثقة من هتلر منذ وصوله إلى الحكم وحتى قيام الحرب عام 1939 إلا بعض المقاومات الفردية من بعض الأحرار، ولم يكن ياسبرز من بين هؤلاء الثوار، ولم يقم ضد هذا الحكم النازي، مع أنه كان من قادة الفكر يومذاك.

ويرى ياسبرز أن محاكمة "نورمبرغ" تتم طبقاً لقانون الإنسان وهو قانون طبيعي باسم الحرية والديمقراطية، ويعتبر هذه المحاكمة صورة لما يمكن أن تكون عليه حكومة دولية تمثل عصبة الأمم، ويراها شيئاً جديداً تحركه دوافع نبيلة، حيث تأخذ المحكمة على عاتقها الدفاع عن الإنسانية.

لكننا لم نجد لياسبرز بعد عشرين عاماً موقفاً مؤيداً لمحاكمة "رسل" لمجرمي حرب فيتنام، مع أن العدوان فيها واضح، والاحتلال قام ضد رغبة الشعب، وحقه في تقرير المصير.

ويرفض ياسبرز جميع الاعتراضات التي وجهت لمحكمة "نورمبرغ"، ويعترف مع جاكسون بأنه "لو سمحنا للدفاع بالخروج من الإدانة التي يحددها الاتهام لطالت المحاكمة ولتوقفت أمام المنازعات السياسية التي لا نهاية لها" ويحاول فيلسوف التعالي والتواطؤ أن يلتمس الأعذار للشعب الألماني لتبرئته من جرائم النازية التي يحصرها في أربعة هي:

- 1 - الإرهاب الذي سلطته النازية على رقاب الشعب
 - 2 - الأسباب التاريخية التي فرضت على الشعب الألماني أن يكون نازياً، أي الظروف التي دفعت ألمانيا إلى الحرب.
 - 3 - ذنب الآخرين (الأمريكان) الذين تركوا لألمانيا أن تفعل ما تريد مع جيرانها ولم يتدخلوا إلا في نهاية الأمر.
 - 4 - ذنب العصر، وذنب الجميع، أي ذنب الدول الأوروبية، ذنب الفكر والأيدولوجيا، ذنب الغرب والشرق.
- وينتهي السيد ياسبرز من هذا الذنب المطلق الذي لا يمكن إصاقه بشعب معين إلى تبرئة الألمان.

ويبين للشعب الألماني طرق التطهر من الذنب الخلقى أمام ضميره، ومن الذنب الميتافيزيقي بالعودة إلى الارتباط بالمتعالي بعد أن برأهم من الذنوب الإجرامي والسياسي أمام القانون وأمام الناس، كما فعل القديس بولس في بيان "طرق الخلاص". فياسبرز يرى طريق الخلاص في التغيير الداخلي للفرد تعبيراً روحياً، حيث يحقق مفهوم الاتصال، ويلتقي مع الآخرين على المحبة والتسامح، خاصة أن الذنب ليس مشكلة تخص الألمان وحدهم، فقد عرفت البشرية الذنب منذ القدم، فقد اتهم اليهود أنفسهم دائماً أمام الله، والتغير الروحي مطلوب من الجميع، إن البشرية مطالبة في المشاركة في الحياة الروحية والخلقية، كسبيل للطهارة، فالذنب ذنب الفعل، لا ذنب النفس.

وينصح ياسبرز بالابتعاد عن إلقاء التهم، لأن ذلك يعوق التطهر، ويمنع التواصل بين الناس، كما ينصح بعدم التسليم بالذنب والوقوع تحت ثقله، لأنه إذا استسلم لن يستطيع التطهر.

ونجد السيد ياسبرز يطلب من الشعب ترك الأرض، وتطهير النفس. إن كتاب ياسبرز عن "الذنب الألماني" الذي نشر عام 1945 هو الوحيد الذي لم يلق رواجاً عند القراء، ولم يُنقَد إلا سنة 1960، والسبب هو محاولته معالجة النازية معالجة لاهوتية تعتمد على اللف والدوران. والتعمية والتغطية، دون أن يقول شيئاً موضوعياً في دراسته للنازية، ولم يبين كيف استطاع الحزب الوطني الاشتراكي الوصول إلى الحكم.

لقد كانت الامبراطورية النمساوية في بداية القرن الماضي خليطاً من أجناس عدة منها التشيكي والمجري والسلافي، وكان الألمان حوالي عشرة ملايين، وكانت الأحزاب الموجودة هي الحزب الاشتراكي الديمقراطي الذي يريد الوصول إلى الاشتراكية عن طريق الديمقراطية، والحزب الاشتراكي المسيحي الذي يدعو إلى الاشتراكية عن طريق الدين والأخلاق، وكانت هناك أيديولوجيتان: **الماركسية**، وهي أممية لا قومية، وتشكل حجر عثرة في طريق طموح الامبراطورية النمساوية. **واليهودية** المسيطرة على الاقتصاد، والتي وصلت إلى المؤسسات عن طريق الشركات والمصانع ودور الصحف والأحزاب والبرلمان وحتى البلاط الملكي. في هذه الظروف نشأ الحزب الوطني الاشتراكي الذي يلبي طموح الامبراطورية النمساوية، ثم تبنى الحزب سياسة التوسع، وضم الأراضي التي يعيش عليها الألمان بحجة المجال الحيوي والمحافظة على العرق الألماني، وكان العداء للسامية أحد أهداف هذا الحزب نظراً لما رآه من سيطرة الأقلية اليهودية على الاقتصاد النمساوي الألماني، وكان لأعمالهم في إدارة بيوت الدعارة، ومسؤوليتهم عن انتشار الأمراض الجنسية خاصة الزهري، كان لهذا كله أكبر الأثر في تبني الحزب الوطني الاشتراكي العداء لهذه الأقلية، خاصة من ينتسب منها إلى الصهيونية التي تستغل المال والجنس في سبيل السيادة، وطردها من أرضه، وإحلال شعب آخر محله، وقد تنبأ الحزب بما سيحدث في فلسطين بعد ذلك، وحذر من الخطر الصهيوني على مصالح الشعوب.

التواطؤ الأمريكي:

وهو موقف اتخذه ياسبرز بعد هزيمة ألمانيا وتقسيمها إلى غربية وشرقية، وقد اتضح هذا الموقف بعد نشر كتابه "الحرية وإعادة التوحيد" عام 1960،

بالإضافة إلى مقابلة تلفزيونية تحدث فيها بصراحة أمام مواطنيه معطياً الأولوية للحرية على توحيد ألمانيا، وقصد بالحرية إبقاء ألمانيا الغربية تحت سيطرة الغرب، وتحديدًا تحت زعامة أمريكا، كما طالب بتحرير ألمانيا الشرقية من نظامها الاشتراكي حتى لو اقتضى الأمر اللجوء إلى القوة، وبعد هذا التحرير يمكن التحدث عن الوحدة. يقول ياسبرز " لم يعد للحديث عن الوحدة الألمانية أي معنى، والشيء الوحيد المعقول هو أن نرجو أن نكون مواطنين أحراراً"، ويقول أيضاً: " إن الذي يهم هو الحرية، وما يهم بعدها التوحيد"، وهذا يعني أن ياسبرز تخلى عن الأرض في سبيل المذهب، وأعطى الأولوية للنظام الرأسمالي وسيطرة الغرب على توحيد الأراضي الوطنية، أي أنه تخلى عن أهم مكاسب المثالية الألمانية من خلال جامعاتها وفلسفاتنا السياسية منذ (كأنت وهيكل وفخنته)، أي وحدة ألمانيا، كما تخلى عن أهم صفة لها وهو الاستقلال الذاتي، لذلك اتهمه بعضهم عن حق بالخيانة العظمى.

ولم يحدث في تاريخ ألمانيا الحديثة أن عادى مفكر أو سياسي "بسمارك" كما عاداه ياسبرز، وقد أقر ياسبرز هجرة الشعوب من أرض إلى أرض، كما شرّع لطرده الملايين من الألمان من بروسيا الشرقية، ومن بولونيا ولم ير أي حرج من طرد مليونين من العرب الفلسطينيين، وإحلال مهاجرين جدد محلهم، فلا تهمُّه الأرض بمقدار ما يهمه النظام الغربي، ويؤكد بأنه لا يمكن تحقيق الوحدة والحرية في وقت واحد، لذلك يتنازل عن الوحدة مقابل الحرية المزعومة، ويطالب الشعب الألماني بعدم التفكير بتوحيد ألمانيا في دولة واحدة عاصمتها برلين.

يقول ياسبرز: "إن إعادة توحيد ألمانيا التي تسمح بإعادة الأراضي الوطنية التي وجدت سابقاً ليست حقاً أساسياً، بل إنها على الإجمال ليست مطلباً للحق، فقد ضاعت هذه الأرض نتيجة حرب شنتها الدولة الألمانية السابقة، فياسبرز يجعل ضياع الأرض ثمناً للهزيمة، وأما تحرير ألمانيا الشرقية فهو نداء الحرية، وهو سابق على ضياع الأرض.

أما تسويغات ياسبرز الفلسفية لهذا التواطؤ فتقوم على التفريق بين الواقع والحقيقة، فالواقع هو السياسة التي تعطي الأولوية للتوحيد، والحقيقة هي

الفلسفة التي تعطي الأولوية للحرية (الواقع خطأ، والحقيقة صواب)، السياسة مشكلة حسية زائلة أما الحقيقة فهي شعور داخلي.

كذلك يفرق بين السياسة والعدالة، السياسة كما قلنا تريد توحيد ألمانيا بأي ثمن، أما العدالة فهي أن تجعل ألمانيا جزءاً من التحالف الغربي، وهكذا يقلب ياسبرز المشكلة الألمانية راساً على عقب، يتخلى عن الأرض ويعطي ما تبقى للغرب، وتعدُّ دولة بسمارك مجرد ذكرى لا يجوز المطالبة بعودتها.

ويطبق مفهوم "التغيير" على الأرض، ويرى ضرورة تغيير ألمانيا بسمارك لتحل محلها ألمانيا "أديناور"، وأن شعار ألمانيا الذي أطلقه "هس" في حديث تلفزيوني 1959 قائلاً: "أنا الذي وضعت صيغة ألمانيا لا تتجزأ"، ويقصد به ألمانيا الروحية والخلقية لا ألمانيا الأرض.

وقد انتقد الفيلسوف المؤسسات الديمقراطية في دولة بسمارك، ورآها أقرب إلى النظام التسلطي منها إلى الديمقراطية، كما ينتقد مفهوم الدولة الوطنية والشعور الوطني، ويصر على تحويل الشعور الوطني إلى شعور روحي منفصل عن الأرض قائلاً: "واليوم تمثل الأفكار القائمة على الدولة الوطنية بالنسبة للغرب خطراً عظيماً". وفي رأيه أن دولة بسمارك ما هي إلا أسطورة نسجها (كانت وهيجل وفيخته وشلنغ)، وهو إقامة الدولة، ظل الله على الأرض، وتحقيق الروح في الطبيعة، وتحويل الفكرة المجردة إلى واقع محسوس.

وفي النهاية نجد ياسبرز بعد أن برأ الشعب الألماني في الماضي برميهِ في أحضان الغرب في الحاضر، فبقدر ما يتصل من الماضي يلتصق بأحضان الغرب في الحاضر، وبقدر ما يرفض ألمانيا بسمارك يقرب ألمانيا "أديناور" وهو موقف انفعالي محض تملقاً للغرب وإحساساً بذنبه على تواطئه القديم مع النازية، وألمانيا الغربية عنده ليست دولة مؤقتة تعيش وضعاً تقسيمياً، وإنما هي دولة قائمة بذاتها، ولا شأن لها بالجزء الشرقي منها، أي ألمانيا الشرقية، وهو يحلم بعودة روسيا للتحالف مع الغرب للوقوف في وجه الصين، ولا يرى أي عار في انتشار المعسكرات الأمريكية في مناطق عديدة من ألمانيا، وتتمنى أن تتخلى روسيا عن ألمانيا الشرقية حتى يتغير نظام الحكم الاشتراكي ويصبح امتداداً لنظام الحكم في ألمانيا الغربية، كما هاجم ديغول سياسته المعروفة باسم

"أوروبا الأوطان" التي تؤمن سيادة الدول المستقلة في داخل الوحدة الأوروبية، وعدم خضوعها للسيطرة الأمريكية.

وهو لا يرى أن للإنسان حقاً في الانتساب إلى وطن معين، وعلى هذا النحو يسمح ياسبرز بطرد الشعوب من أوطانها مع دفع تعويضات للشعب المطرود، مثل طرد اليونان من سواحل آسيا الصغرى، وطرد الألمان من روسيا ومن بولونيا، وطرد العرب من فلسطين.

لقد اعتمد فيخته على التراث الروحي الألماني، وكتب نداءه المشهور إلى الأمة الألمانية من أجل تحرير الأرض الألمانية.

أما ياسبرز فقد لجأ إلى التراث الروحي نفسه من أجل تثبيت الاحتلال، وأصرّ فيخته على وحدة الأراضي الألمانية، ودعا إلى التمسك بالشعور الوطني والدفاع عن الوطن، وهو دفاع مشروع، وليس شعوراً دخليلاً، وطالب بالإبقاء على الطابع الألماني للمدن.

فقد احتل الأمريكيان مدينة هيدلبرج وأعطوها الطابع الأمريكي، ولم يشعر ياسبرز بأن مدينته أو جامعتة قد فقدت شيئاً من هويتها بل قابل هزيمة شعبه بالابتهاج، وقال: "لن ينسى ألماني أن زوجته تدين بحياتها للأمريكيين الذين انتصروا على الألمان".

لقد استقبل ياسبرز في مدينته الأمريكي استقبال المحررين لها في أبريل عام 1945 وكأنه يعيش حلماً، يذكرني هذا باستقبال شاعر لبناني كبير لشارون عندما دخل بيروت بالأرز. وكافأه الأمريكيون على ذلك بأن عرضوا عليه تعيينه وزيراً للتعليم وهم بصدد تعيين الحكومة المؤقتة. لقد لجأ فيخته إلى التاريخ الوطني الألماني، وربط الحاضر بالماضي، في حين نجد ياسبرز يفضل الحاضر على الماضي رافضاً الأصالة التي نادى بها فيخته.

ووجد ياسبرز وفيخته في الظروف نفسها، فدعا فيخته إلى مقاومة الثقافة الأجنبية والاحتلال الأجنبي، ودعا ياسبرز إلى التسليم للأجنبي، لثقافته وجنوده. دعا فيخته للمحافظة على الاستقلال الوطني، وعمل ياسبرز على إضاعته، وحوّل فيخته مقاومة المحتل إلى نظرية في العلم تقول: "الذات تصنع نفسها عندما تقاوم"، وأعطى ياسبرز مفاهيم تؤيد الاحتلال مثل التفرقة بين السياسة والحقيقة

التي تحدثنا عنها، والروح التي تحدث عنها فيخته هي الروح كواجهة أخرى للطبيعة وهو ما تقدمه المثالية الألمانية خاصة عند شنلغ.

ويقصد ياسبرز بالروح التي تحدث عنها والروح التي لا علاقة لها بالأرض، والتي تكون أقرب إلى الانغلاق على الذات، والتخلي عن العالم، لذلك كان الدين عند فيخته وسيلة لطرد المستعمر، والدين عند ياسبرز وسيلة لتوطئة أقدام المحتل، تماماً مثل مواقف شيوخ الفتنة في الربيع العربي.

لقد كان الإصلاح الديني الذي قام به لوثر الألماني في جوهره إصلاحاً مرتبطاً بحرية الشعوب وتحرير الأرض، لا مجرد ثورة روحية فردية تشد السماء كما هو الحال عند ياسبرز .

لقد أعطى فيخته الأولوية للعمل على النظر قبل التمسح بالعقل، وتمسح ياسبرز بالعقل ليقيم فلسفة هي أقرب إلى تسويغ مواقفه السياسية منها إلى الأمانة العقلية.

لقد قيل عن ياسبرز: إنه فيلسوف الحلف الأطلسي، ووصف بأنه أيديولوجي الطبقة البرجوازية، إنه فيلسوف الغرب بكل ما فيه من عنصرية ونازية واستعمارية ووحشية.. إنه فيلسوف انسلخ عن قيم الفلسفة ...، وإنما لنستطيع القول - وبكل ثقة -: إن الذين عملوا بروحية أفكار كارل ياسبرز ممن ركبوا موجة الربيع العربي في الوطن العربي عامة وفي سورية خاصة قد خانوا قيمهم الروحية والوطنية، وقبلوا أن يكونوا مجرد خدام لمشروع يضعهم في النهاية ضمن قائمة العملاء والخونة الذين يلعنهم التاريخ ويلعنهم اللاعنون.

المراجع:

- 1 - مدخل إلى الفلسفة - كارل ياسبرز، ت. جورج صدقني، دار طلاس (دمشق 1965م).
- 2 - تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم، دار المعارف، مصر (د.ت)، (فقرة نداء إلى الأمة الألمانية).
- 3 - الذنب الألماني، كارل ياسبرز، 1945م (ألمانيا).
- 4 - الحرية وإعادة التوحيد، كارل ياسبرز، 1960م (ألمانيا).

ترجمات

تأثير الانتخابات الأمريكية على الاقتصاد والأسواق المالية

بقلم المحلل مورتن لوند وكبير المحللين أندرس سفيندسن
14 فبراير 2020

ترجمة: د. مصطفى العبد الله الكفري*

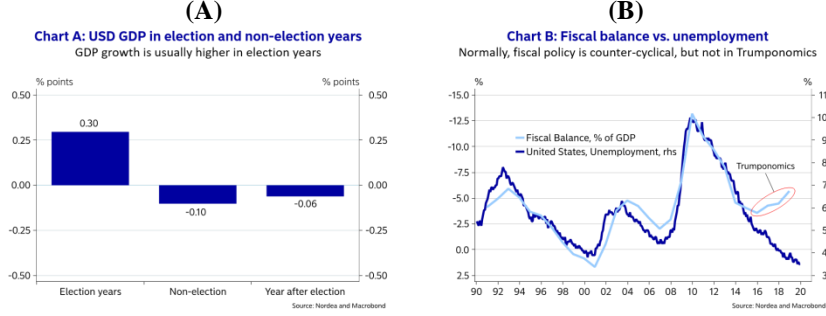
ستكون الانتخابات الرئاسية الأمريكية القادمة موضوعاً رئيساً للأسواق المالية في عام 2020، وعادة ما يكون الاقتصاد أفضل في سنوات الانتخابات، ولكن هذا العام قد يكون مختلفاً.

وستتجه الأنظار إلى نتيجة الانتخابات الأمريكية التي ستجري في 3 نوفمبر 2020، من الناحية التاريخية تعطي سنوات الانتخابات عادة دفعة للاقتصاد الأمريكي، لكن الظروف مختلفة هذه المرة.

تُظهر البيانات منذ عام 1948 حتى اليوم أن الاقتصاد الأمريكي يميل إلى الأداء بشكل أفضل في سنوات الانتخابات، وهو ليس أفضل بكثير، لكنه أفضل قياساً بباقي السنوات. يوضح ذلك نمو الناتج المحلي الإجمالي الذي هو في المتوسط أعلى بنسبة 0.3% مما كان عليه في السنوات غير الانتخابية. مقارنة بالنمو المحتمل تفوقت سنوات الانتخابات بنسبة 0.4% (انظر الرسم البياني A).

* كاتب وباحث سوري مختص بالدراسات الاقتصادية، عضو اتحاد الكتاب العرب.

أداء الاقتصاد الأمريكي في السنوات الانتخابية وباقي السنوات نمو الناتج المحلي الإجمالي والسياسة المالية



والسبب الرئيس هو السياسة المالية، حيث يفضل السياسيون عادة سياسة مالية توسعية قبل الانتخابات. وفقاً لتقديراتنا أضافت السياسة المالية منذ عام 1985 حتى اليوم حوالي 0.1% نقطة إلى نمو الناتج المحلي الإجمالي في سنوات الانتخابات، في حين تراجع 0.2% نقطة في السنة التي تلتها.

لماذا يمكن أن تكون الانتخابات هذه المرة مختلفة؟

وذلك لسببين:

السبب الأول: قيام الرئيس ترامب "بتخفيض" التسهيل المالي خلال عامي 2018 و 2019 (السنة الثانية والثالثة من رئاسته، فمن خلال التخفيضات الضريبية وزيادة الإنفاق الحكومي جاءت هذه الإجراءات التي من المحتمل أن تضيق 0.5 - 1%، إلى معدل نمو الناتج المحلي الإجمالي كل عام، في وقت كان فيه الاقتصاد الأمريكي ينمو بالفعل فوق الإمكانيات، وبالتالي تتعارض السياسات مع الطبيعة المعتادة المعاكسة للدورة الاقتصادية للموازنة المالية (انظر الرسم البياني B).

السبب الثاني: كون الكونغرس الآن في حالة أكثر انقساماً مقارنة بعام 2018، لذلك نجد أنه من غير المرجح أن تدعم الأغلبية الديمقراطية في مجلس النواب جولة أخرى من الحوافز المالية المهمة، ولا سيما أن معدلات موافقة ترامب على الاقتصاد أعلى بكثير مقارنة بتقديراته الإجمالية. من ناحية أخرى ربما لا يكون التقشف المالي مستساغاً للديمقراطيين؛ لأنهم يستعدون أيضاً للحملة الرئاسية، لذلك نتوقع أن تكون السياسة المالية محايدة إلى حد ما في عام 2020.

مجلس الاحتياطي الفيدرالي ليس في "وقفه الانتخابية":

إلى جانب التركيز على السياسة المالية هناك رواية مشتركة مفادها أن بنك الاحتياطي الفيدرالي "محايد في الانتخابات"، ويتجنب هز القارب في سنوات الانتخابات، ربما يكون ذلك صحيحاً من حيث المبدأ، إلا أن الاحتياطي الفيدرالي لا يزال يغير سياسته عند الحاجة في سنة الانتخابات أو في سنوات أخرى.

منذ عام 1971، عندما رفع بنك الاحتياطي الفيدرالي سعر الفائدة لأموال الاحتياطي الفيدرالي، قام البنك بتغيير سياسته في كل سنة انتخابية باستثناء عام 2012، العام الذي أعلن فيه الاحتياطي الفيدرالي رفع أسعار الفائدة أو خفضها في سبع سنوات من أصل 12 عاماً.

هناك رأي شائع آخر هو أن بنك الاحتياطي الفيدرالي لديه تحيز مخفف في سنوات الانتخابات، ربما بسبب "المناقشة الساخنة" المشهورة بين الرئيس نيكسون ورئيس مجلس الاحتياطي الفيدرالي السابق آرثر بيرنز، حيث خضع رئيس مجلس الاحتياطي الفيدرالي السابق لرغبات الرئيس نيكسون بشأن السياسة النقدية، وقد تم تذكير المشاركين في السوق مؤخراً بهذه المناقشة الساخنة، حيث كان ترامب ناقداً صاخباً بشكل غير معتاد للاحتياطي الفيدرالي (وعلى وجه الخصوص انتقاده لرئيس مجلس الاحتياطي الفيدرالي باول).

ومع ذلك فإن البيانات لا تدعم سياسة التحيز للاحتياطي الفيدرالي. من مجمل الـ 12 سنة الانتخابية الماضية رفع بنك الاحتياطي الفيدرالي أسعار الفائدة في ثمانية منها. كانت الارتفاعات في فترة 6 أشهر قبل الانتخابات، وبالتالي لم يكن لدى مجلس الاحتياطي الفيدرالي تاريخياً أي تحيز للتيسير.

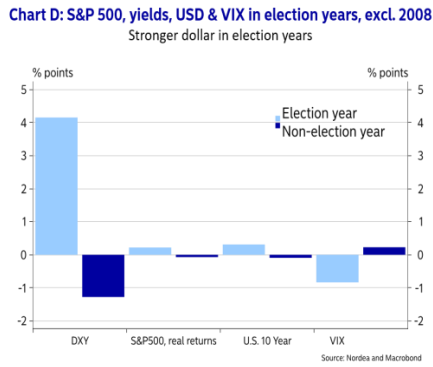
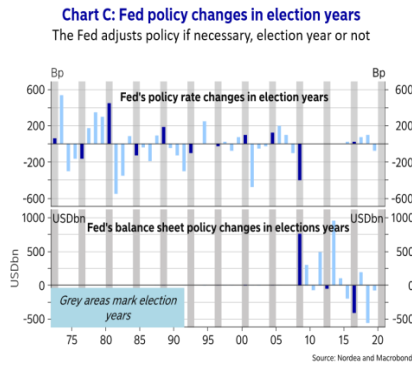
بناء على ذلك لا نعتقد أن انتخابات 2020 ستمنع بنك الاحتياطي الفيدرالي من تعديل السياسة إذا لزم الأمر، وبدلاً من ذلك نتوقع أن يقوم بنك الاحتياطي الفيدرالي بخفض أسعار الفائدة في مارس/ آذار، حيث تشير المؤشرات الرئيسية إلى ضعف أرقام النشاط الاقتصادي، وما تزال توقعات التضخم منخفضة بشكل كبير.

الأسواق في سنوات الانتخابات؟

مع عدم وجود بنك الاحتياطي الفيدرالي في "معمعة الانتخابات"، نعتقد أن قرارات اللجنة الفيدرالية للسوق المفتوحة يجب أن تكون مرة أخرى محركاً واضحاً للأسواق المالية في عام 2020، ولكن كيف ستؤثر الانتخابات وحدها على الأسواق هذا العام؟

في الرسم البياني (د)، قمنا بإدراج كيفية أداء مؤشر ستاندرد آندبور S&P 500، وعوائد سندات الخزانة الأمريكية لمدة 10 سنوات، ومؤشر الدولار الواسع (DXY) ومؤشر VIX في سنوات الانتخابات. الثلاثة الأولى لا تظهر نمطاً واضحاً، وتزداد الغلة في سبع سنوات من أصل 12 سنة انتخابية، ولا تظهر اختلافاً كبيراً في المتوسط، على الرغم من أن مؤشر ستاندرد آندبور S&P 500 ومؤشر VIX، على التوالي، ينخفضان ويرتفعان في المتوسط في سنوات الانتخابات (قياساً بنسبة التغير السنوي على أساس سنوي)، وكان هذا مدفوعاً بالأساس بالأزمة المالية العالمية في عام 2008. وباستثناء عام 2008، فإن أداء مؤشر ستاندرد آندبور S&P 500 سيكون جيداً في الانتخابات و سنوات غير الانتخابات، في حين أن مؤشر VIX ليس أعلى أو أقل بكثير مقارنة بسنوات غير الانتخابات.

أداء الاقتصاد الأمريكي في السنوات الانتخابية وباقي السنوات
مؤشر ستاندرد آندبور S&P 500 - عوائد سندات الخزانة الأمريكية
(د)



عند النظر إلى مؤشر DXY ، هناك ميل للدولار للارتفاع. بشكل بديهي هذا منطقي أيضاً، حيث يستفيد الدولار من مزيج معتاد في السنة الانتخابية من ارتفاع عدم اليقين السياسي وزيادة النمو في الولايات المتحدة (مقابل بقية العالم) كما هو موضح أعلاه.

والسؤال إذاً هو هل هذا النمط سيكرر نفسه في عام 2020؟ نعتقد ذلك، وبالتالي يجب أن يكون التأثير المعزول من عدم اليقين الانتخابي سلبياً للدولار واليورو EUR / USD ، خاصة إذا فاز ترامب. في عام 2016 ارتفع زوج الدولار / اليورو EUR / USD في الفترة التي سبقت الانتخابات، ولكن ذلك كان مدفوعاً بتوقعات فوز هيلاري كلينتون. مع فوز ترامب المفاجئ ارتفع الدولار وارتفع العائد وضعف اليزو المكسيكي.

نتوقع بشكل عام رد الفعل نفسه، لكن ربما بدرجة أقل، لأن هذه المرة ترامب هو المفضل. "أقل من ذلك" يعتمد إلى حد كبير على من سيكون المرشح الديمقراطي للرئاسة .

هناك ثلاثة عوامل حاسمة:

مع انتهاء محاكمة ترامب الآن، نعتقد أن ثلاثة عوامل ستكون حاسمة بالنسبة لنتائج الانتخابات، وهو ما سيؤثر في تداول الأسواق خلال العام: (الاقتصاد، المرشح الديمقراطي وولايات الغرب الأوسط).

1- الاقتصاد:

ربما يكون الاقتصاد هو العامل الأكثر أهمية، على الأقل إذا استخدمنا التاريخ كدليل. ما يسمى بمؤشر البؤس الذي يتضمن مجموع البطالة والتضخم (CPI) y / y ويشير إلى حالة الاقتصاد، كان "متنبأً" جيداً لنتائج الانتخابات الرئاسية الأمريكية).

بعد أيزنهاور توقع متوسط التغيير المتحرك لمدة 12 شهراً في مؤشر البؤس نتائج إعادة انتخاب الرئيس ست مرات من أصل ثماني مرات. هذا، على سبيل المثال، أكثر دقة من درجات الموافقة في بداية سنوات الانتخابات. علاوة على

ذلك يمكن أن تعزى الأخطاء في مؤشر البؤس في 1976 و 1992، على التوالي: إلى فضيحة ووترغيت والاقتصاد الأمريكي الذي كان في حالة ركود بالفعل في 1990 - 1991.

وبالتالي فإن ضربات الركود ستكون خطراً أكبر على فرص إعادة انتخاب ترامب، مقارنةً بتصنيفات الموافقة التي تنخفض بسبب القضايا غير الاقتصادية.

2- المرشح الديمقراطي:

سوف تستمر الانتخابات التمهيدية والتكتلات الديمقراطية خلال النصف الأول من العام 2020، بعد أن بدأت في 3 فبراير في ولاية أيوا. في مرحلة ما سيتضح أي مرشح ديمقراطي سيخوض الانتخابات في نوفمبر. سيحدث فرقاً كبيراً إذا كان المرشح الديمقراطي "معتدلاً" أو من الجناح اليساري للحزب. من المرجح أن يجعل الديمقراطي اليساري الرئيس القادم جمهورياً، وذلك ببساطة لأن بعض الناخبين الديمقراطيين المعتدلين قد يفضلون جمهورياً على ديمقراطي يساري. ومع ذلك، في الوقت نفسه، يزيد المرشح الديمقراطي اليساري من احتمالات التغيير الأكثر دراماتيكية إذا فاز في نوفمبر، وبالتالي من المرجح أن يعزز المرشح الديمقراطي اليساري المزيد من تقلبات السوق.

3- ولايات الغرب الأوسط:

ساعدت ولايات قليلة في الغرب الأوسط - ميشيغان وبنسلفانيا وويسكونسن - في قلب الانتخابات الرئاسية لعام 2016 لصالح ترامب. كانت هذه الولايات ديمقراطية منذ أوائل التسعينيات، وتمكن ترامب من تحويلها إلى الجمهوريين بهامش صغير. من المرجح أن يحدث جزء كبير بشكل غير متناسب من الحملة الرئاسية في هذه الولايات، ومن المرجح أيضاً أن تؤثر الاستطلاعات - التي تظهر خيوطاً كبيرة على كلا الجانبين - على الأسواق.

كيف ستتفاعل الأسواق مع المرشحين المختلفين؟

هناك العديد من السيناريوهات المحتملة لنتائج انتخابات 2020، أهمها ثلاثة سيناريوهات:

أولها - أربع سنوات أخرى مع ترامب.
ثانيها - فوز بايدن، أو ديمقراطي معتدل آخر.
ثالثها - فوز ساندرز / وارين أو ديمقراطي يساري آخر.
خلال العام المقبل ستتفاعل الأسواق المالية مع التغيرات في احتمالات السيناريوهات ذات الصلة، بناءً على سياسات المرشحين. إليك طريقة التفاعل:

1 - دونالد ترامب:

إن تحسين استطلاعات ترامب سيكون له تأثير سلبي معتدل على الشعور بالخطر. تلقت الحرب التجارية معظم اللوم على تباطؤ التصنيع العالمي، ويأتي مصطلح ترامب الثاني مع ارتفاع مخاطر التصعيد، وخاصة تجاه صناعة السيارات الأوروبية. لكن التأثير سلبي إلى حد ما، بالنظر إلى أن الأسهم الأمريكية في أعلى مستوياتها على الإطلاق مدعومة بضغط ترامب المستمر على الاحتياطي الفيدرالي والدفع الهائل للاقتصاد من التخفيضات الضريبية وإلغاء القيود.

2 - بايدن أو ديمقراطي معتدل آخر

من المرجح أن تتخذ الأسواق احتمالات تحسن لفوز بايدن على أنها أخبار إيجابية إلى حد ما. خطر النيران الصديقة في الحرب التجارية سينخفض حتى لو لم يكن من المحتمل أن يتم تخفيض الرسوم الجمركية. لكن التأثير إيجابي إلى حد ما، حيث وعد بايدن بإلغاء التخفيضات الضريبية لترامب على الأقل بالنسبة للفئات الأعلى دخلاً، الأمر الذي سيكون له بعض التأثير السلبي في الاقتصاد على المدى المتوسط.

3 - ساندرز أو ديمقراطي يساري آخر

إن تحسين احتمالات رئاسة ساندرز / وارين سيكون له التأثير السلبي في الشعور بالخطر. سيُنظر إلى التأثير الضار للتنظيم وارتفاع الضرائب على أنه يفوق بوضوح إيجابيات زيادة الإنفاق على المناخ والبنية التحتية وتخفيف عبء الديون. علاوة على ذلك فإن التغيير في حد ذاته ليس شيئاً يحسن معنويات

المخاطرة، وبالتأكيد ليس على النطاق الذي اقترحه اليسار الديمقراطي. بشكل عام نعتقد أن الانتخابات الرئاسية الأمريكية لعام 2020 يمكن أن تزيد من تقلبات السوق أكثر من المعتاد. لم يقتصر الأمر على أن الرئيس ترامب، خاصة عبر حسابه سيئ السمعة على Twitter، أثبت أنه "محرك سوق" أكبر من سلفه الرئيس أوباما، ولكن الاحتمال المرتفع نسبياً لمرشح الديمقراطيين هو أن يكون يسارياً نقياً بدلاً من أن يحفز الديمقراطي المعتدل بعض العصبية، وهذا بدوره يمكن أن يبقي التقلبات مرتفعة إلى حد ما حتى خلال النصف الأول من العام الحالي، عندما تجري الانتخابات التمهيدية والتجمعات الديمقراطية.

بداية النص باللغة الإنكليزية:

Electionomics: The US election's impact on the economy and financial markets

The upcoming US presidential election will be a major theme for financial markets in 2020. Normally, the economy fares better in election years, but this year could be different. Find out why in this theme article from Nordea's latest Economic Outlook, released on 29 January.

14 Feb, 2020

By Nordea Analyst Morten Lund and Chief Analyst Anders Svendsen

All eyes will be on the outcome of this year's US election held on 3 November 2020. Historically, election years have delivered a boost to the US economy, but the circumstances are different this time around.

Data from 1948 until today show that the US economy tends to perform better in election years. Not a lot better, but clearly better. GDP growth is on average 0.3% higher than in non – election years. Compared to potential growth, election years outperform by 0.4% (see Chart A below).

The main reason is fiscal policy, as politicians usually prefer an expansionary policy ahead of an election. According to our estimates, fiscal policy has from 1985 until today added around 0.1% – point to GDP growth in election years, while subtracting 0.2% – point in the subsequent year.

قراءات

قراءة في "جدليات فكرية في الهشمد الثقافي العربي" للكاتب وحسن علي السهيمي

قراءة د. صلاح يونس*

البنية من ستة فصول تحمل العناوين الآتية: الأول جدليات ثقافية، والثاني جدليات فكرية، والثالث جدليات فلسفية، والرابع جدليات جيوثقافية، والخامس جدليات مفاهيمية، وأما السادس فهو جدليات كونية.

في الوقت الذي كنت أبحث فيه عن عمل من هذا القبيل في عصر انصرفت فيه العناوين إلى غير اتجاه، وإلى غير ما ينبغي أن تنصرف إليه، وكان أن انصرم طوق الوصل بين جيل عربي شاب وبين عناوين النهضة والثورة بالمعنى الفكري وبين الحداثة، وصرت - كما صار غيري - لاهثاً وراء الإصدارات كمن يترقب مطراً من سحاب لم يتشكل بعد، وغدوت كما غدا غيري من المهتمين الأكاديميين منتظراً لعمل هنا ولآخر هناك، وأعني الأمصار العربية في الجزيرة والشام والعراق وشمال أفريقيا، وكلما كنت أنتظر من العناوين ما يرضي هيامي إلى إنتاج الجيل الشاب كنت أعثر على نوعين من الخيبة: النوع الأول استغراق الجيل العربي بإنتاج الشعر والقصة والقصص القصيرة استغراقاً على غير طائل، وهذا يعني تركّز أبناء العربية حول الأدب إلى الدرجة التي ينصرفون إليه عن غيره، والنوع الثاني هو إنتاج الأسماء الكبيرة التي استغرقت

* كاتب وباحث سوري، أستاذ جامعي وعضو جمعية النقد في اتحاد الكتاب العرب.

جهداً ووقتها في إنتاج ما سبق إنتاجه، وفي إعادة كتابة ما قد قتلته الأسماء المتتابعة مشافهة وكتابة، وكأن "الاستعادة" تفرض نفسها منهجاً فاضلاً لا مفر منه. ولعل الاستعادة كانت ضرورة أو ما يشبه الضرورة لأدباء الإحياء من محمود سامي البارودي (1839 - 1904) إلى بدوي الجبل (1900 - 1981)، ولكنها غدت مهرباً من شؤون العصر الثقافية والفكرية، بل أضحت تقاعداً من هموم المجتمعات العربية التي أثقلتها الاغترابات المريرة، ومنها الاغتراب عن التاريخ الحاضر، ومنها التغرب السلعي الذي فرضته قوى الاقتصاد العالمي، ومنها البعد النسبي عن إنتاج العالم المتقدم في الفكر والفلسفة وعلوم الإناسة.

وصلني الكتاب المنوه به إهداءً من مؤلفه، فكنتُ - وما زلتُ - أشعر بفرحة الإنجاز التي يشعر بها عادةً الناجحون في إبداعاتهم، ولعل فرحتي ثنائية المنشأ، فمن جهة علمية فإن العنوان أَرْضَى تطلعي وأمني من الجيل العربي الشاب، ومن جهة ثانية جاء الإنجاز من أستاذ سبق لي أن حاضرتُ به وبأبناء جيله من محافظة قنفذة - من أعمال مكة المكرمة - ولهذه المنطقة عندي يد بيضاء، فقد عشت مع أبنائها من مختلف الأجيال، ولا قيت منهم الكرم والمحبة والإخاء، وما تزال "القنفذة" تحتل في كياني مساحة ممتدة من الحب والوفاء.

ورغم كل أواصر المحبة الرابطة بيني وبين المؤلف، فإنني لا أقوى على الانخلاع من مهمتي ومهنتي كناقد، فالناقد - في أغلب الأحيان - رجيماً غير رحيم، وهو عندما يقرأ ينسى كل شيء إلا حضور النص المائل أمامه، ولكن "الكتاب" بعد القراءة غيرُه قبلها، فقد فاجأني بالمستوى العميق الذي ظهر فيه، رغم ثقتي به السابقة كطالب وك "كاتب"، ولا أجدني محرراً أبداً إذا قلت: "إنني أمام باحث استوى له المنهج واستقامت له القراءة وسبل الكتابة"، ومن هنا شرعنا نتساءل معه قبل الدخول إلى عوالم الكتاب، فما الجدول وما الفكر وما الثقافة؟؟؟

فالجدل: Dialectique بحسب الموسوعة الروسية: هو علم أكثر القوانين عمومية، التي تحكم تطور الطبيعة والمجتمع والفكر، ولم ينبثق الجدل كمصطلح فجأة، بل مرّ بأطوار وسُبق بتاريخ طويل، فمن عهد اليونان

هيراكليتس Heraclitus 544 - 438 ق.م الذي أسس علم الجدل من خلال مؤلفه "في الطبيعة" إلى علماء الغرب في القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين. وقد ذهب إلى أن النار هي المادة الأولى في الطبيعة، لأنها الأقدر على التغيير والحركة، وقد نشأ العالم كله من النار، ومسار النار مساراً دائرياً، وكل شيء في الطبيعة في فيض مستمر، وكل الأشياء تتحول إلى أضعافها، وأما في العالم الإنساني فيبدو الصراع مولد الأشياء، وسيد الأشياء، وأما صراع الأضداد فيكشف عن وحدتها والطريق صاعداً وعنه هابطاً، وفي القرن العشرين وصف الفلاسفة الماديون هيراكليتس بأنه قدم المبادئ الجدلية في طور من الفكر البشري باكراً، فعدوه رائداً ومؤسساً

ويجمع علم الجدل بين الآراء الاحتمالية والتحليلات البرهانية، وفي القرن السابع عشر عرض الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت 1596 Descartes - 1650 للجدل ضمن نظريته عن خلق الكون، وأما باروخ سبينوزا 1632spinoza - 1677 فقد أقر بالجدل، وهو يبحث عن الجوهر باعتباره علة ذاته، وأما الأديب والفيلسوف جان جاك روسو 1712 rousseau - 1778 فقد قدم نوعاً ثراً من الأفكار الجدلية، فأقر التناقض كشرط للتطور التاريخي، وأما المفكر الاقتصادي ديني ديدرو 1713 Diderot - 1789 فقد ذهب إلى ما هو متقدم على سابقه، إذ أقدم على فحص التناقضات في الوعي الاجتماعي المعاصر له من خلال روايته "ابن أخ رامو"، ويبلغ الجدل المثالي ذروته في مقولات الفيلسوف الألماني ج. ف. فريدريك هيغل 1770 - 1831، وقد رأى العالمين الطبيعي والتاريخي على أنهما ضرورة، ويعني أن العالم في حال من الحركة والتحول والتغيير والتطور المستمر، وفي كتابه "ظواهر الروح" الصادر 1807 تحدث عن وحدة الفكر والوجود والروح والعقل "الفكرة المطلقة".

فكيف ولف الأستاذ السهيمي بين الجدل بوصفه مصطلحاً في الفلسفة وعلوم الإناسة وبين مراده من المشهد الثقافي العربي على المستويات: الثقافى والفكرى والفلسفى؟

ما من شك أنه عمل على إزاحة المصطلح عن دلالاته، وخاصة في الفصل الأول والثاني، وقد أظهر من "المدخل" منهجه القائم على إعادة تشكيل الوعي

والارتقاء بطرائق التفكير " ثم أضاف إلى منهجيته مهمة النقد والمقارنة والتحليل، وتقبل الجدل حوله. " وهنا يفصح المؤلف عن توظيفه للجدل في البنية الثقافية العربية بصرف النظر عن الجدل كعلم، أو كمصطلح في العلوم السياسية.

وفي الفصل الأول تساءل المؤلف تحت عنوان "جدليات ثقافية" أين يقف المثقف؟ وكأن التساؤل يفضي إلى جواب مؤداه: إن وضعية المثقف العربي اليوم ليست على ما يرام، ولكن هل المثقف هو الذي وضع نفسه في هذا الموضع؟ أو أن عوامل أخرى وضعته حيث هو؟؟ وحيث هو لا يمكن له أن ينهض بالأعباء الموكلة إليه، فاستحال إلى مفردة متراكمة في البنية العامة، أي أنه فقد التغير عن الكتلة الاجتماعية، ومن الدلائل التي يسوقها المؤلف على تراجع دور المثقف انصراف الجيل العربي الشاب عن القراءة، ولا سيما القراءة الإشكالية، ويعزو ذلك إلى انبهار الجيل بالمنجزات التقنية التي قذف بها المجتمع الصناعي إلى الأسواق العالمية، وهنا نسأل المؤلف: هل كان الكاتب أو المثقف وحده مسؤولاً؟ ألم تتدخل المجتمعات العربية في عالم الاستهلاك؟؟

قامت النظم الثقافية - ولا سيما الإعلام الناطق بالعربية - بتغييب الجيل العربي عن تاريخه أولاً وعن حاضره ثانياً، ونسأل المؤلف: ألم يكن نكوص مشروع النهضة وعدم إعادة قراءته وعدم دراسة مسببات نكوصه كبنية داخلية ومتناقضة، أو هل تمت إعادة صياغة سؤال النهضة: لماذا تأخرنا ولماذا تقدموا؟

لقد كان مشروع النهضة هجيناً غير قابل للوحدة العضوية - هذا رأي خاص - وهو تراثي إلى حد، وحدثي إلى حد أبسط، وتلفيقي بغير حدود، ولو أن دعاة الجيل بعد ارتكاس النهضة وقفوا عند البنية المنوّه بها متأملين تناقضاتها وأحلامها المفتوحة لأدركوا أموراً عديدة، أهمها أن هناك مسافة غير اعتيادية بين مد القصد وتقدير الإنجاز، ولأدركوا أن "الثورة" بمعناها السياسي استمدت من النهضة" الأحلام التي لم تحقق، فتراكم الحلم إلى أن انكسرت الأحلام الكبرى، وارتدّ اصطلاح التقدم "باتجاه" "الوراء"

يعطي الأستاذ السهيمي أهمية واضحة لمسائل قائمة في البنية الثقافية في المملكة السعودية، ثم يراها قابلة للتعميم، ولعل أهم تلك المسائل مشكلة

"العامية" التي أخذت تتوضع كلمة متداولة على صفحات التواصل الإلكتروني، وأقول: الإلكتروني مخالفاً السائد من القول: "التواصل الاجتماعي"، فهو تواصل صامت، والمجتمعات لا تكون إلا ناطقة، وهو على أهميته علم المجتمعات الصمت والانقطاع والتواصل على طريقته وليس على طريقته.

ولعل خطورة التواصل المذكور تكمن في ترسيخ ظاهرة الادعاء، فيدعي العادي خصوصية، وبدلاً من أن يقرأ الصغير للكبير والمهتم للمختص، والمدرسي للأكاديمي، والمتذوق الشعبي للمثقف، راح كلُّ يكتب على أنه جدير بأن يُقرأ له.

ومن المسائل التي طرحها الأستاذ السهيمي مشكلة الأندية الأدبية، واقعتها وأهدافها وإلى أين، ثم تتبع مع القارئ قضية الأدب والثقافة، وهل النوادي أدبية أو ثقافية؟

مثل هذا التساؤل يمكن أن تتداوله العقلية المدرسية، "ونعني الحرفيين"، فكل أدبي ثقافي، فالثقافة كلُّ شامل مركب، وهو كل نشاط ذهني يقوم به الإنسان أو يبدعه، ويتفرّد به ويغدو فيما بعد خاصاً ذاتياً، وليس كلُّ ثقافي بأدبي، فللأدب خصوصيته من بين الأنشطة العامة، فهو دائماً من المرتبة الأرقى، ولا ينسى الأستاذ السهيمي أن يستشهد بأعلام من المملكة، والأسماء عديدة متوالية "سعيد السريحي"، عبدالله السلمي، هديل البكري، عبدالله الغدامي، ثم يتساءل مستفسراً عن العلاقة بين "الأدبية" و"الأكاديمية"، وقد عانى من هذه الثنائية المنسجمة حيناً المتخالفة أحياناً، وهي حاضرة في المتون الأدبية العربية ككل، فالنقد الأكاديمي ارتبط بالمنهج التربوية الحديثة، ولكن ثمة عديد من الأكاديميين تخرجوا في الأمصار العربية ولم تكن أكاديميتهم ببعيدة عن الأدباء غير الأكاديميين، أما الأكاديميون الذين تخرجوا في جامعات الغرب ومعاهده العلمية ومراكز بحثه الاستشرافية، فإنهم على ثقافة متغايرة مع الأدب والنقد السائدين في المجتمعات العربية، وعلى منهجية متباعدة

وفي الفصل الثاني "جدليات فكرية" يطرح الأستاذ السهيمي عناوين إشكالية بعضها ينتمي إلى التراث الشعبي، كـ "الفكر المصلحي"، وبعضها

ينتمي إلى عناوين الحداثة كـ "الفكر والآخر"، وبعضها ينتمي إلى المثالية كـ "غمط الفكر، وبعضها ينتمي إلى سايكولوجيا الثقافة كـ "قلق فكري"، وقد تدارس مع القارئ هذه العناوين مستفيداً من قراءاته، ومن تجربته في التربية والتعليم، ويتطرح مع القارئ مسائل عديدة: منها الوعي، فيشير إلى نسبية هذا المفهوم، فليس كلُّ من ادَّعاه بقادر على إصدار الأحكام. وخاصة في المجال النقدي أو القضايا الاستراتيجية التي تهم الثقافة العربية، ثم يثير قضية مهمة، ما تزال مشكلة من مشكلات الحاضر العربي، وهي مشكلة الإعلام الناطق بالعربية الذي يهيئ البرامج لانتزاع القداسة عن المقدّسات تحت شعارات الحرية والحداثة ثم ينحت مصطلحاً رأيته موقفاً في نحته وهو "التراويري"، ويعني به المثقف التراثي والتويري، والطرفان لا يجتمعان في بنية واحدة إلا اجتماع الأضداد، ريثما تتاح لأي منهما فرصة الانعتاق من الآخر. والأستاذ السهيمي إذ يشير إلى هذه الازدواجية في الفضاء الثقافي السعودي الخاص، فإنما هي موجودة في الفضاء الثقافي العربي ككل، فالأمة كلها تميل روحيتها الثقافية باتجاه الماضي، وكأن أستاذية الماضي لا تنقطع، وتبدو هذه الفكرة من معالم التحول عند الأمم، وخاصة في مشروع النهضة أو التحديث، إذ يقف العقل التراثي المشخّص بمفكرين سلفيين على المستوى القومي والديني ضد التجديد وانبثاق لغة خاصة بالعصر، ضد الاعتراف بالجيل المتقدم الذي ينتج أدباً شعراً ونثراً، وأذكر هنا برجل النهضة الإيطالي فرانثيسكو بترارك 1304 - 1334 عندما عانى من هذه المشكلة، فقال: "لا تعجبوا من نهضتنا نحن الطليان، ستعود أمة جديدة بعد روما، وسيكون لنا شعراء وفنانون ومفكرون من طبيعة عصرنا، ألم يصبح شيشرون خطيباً بعد ديموستين؟ ألم يصبح فيرجيل شاعراً بعد هوميروس"، وهكذا يشير بترارك إلى إزاحة أستاذية الأمم والأفراد العلماء عن الأمم الصاعدة، وأن للتاريخ منطقاً يقوم على جدليات التعاقب والتقدم، وعدم الركون إلى شكل نهائي، وهذا كله سمح للمؤرخين أن يمنحوا بترارك لقب (أبو الإنسانية).

ثم يعرض المؤلف لمصطلح آخر ليس من مصنوعاته هو "الديماغوجيا" بل هو قادم من خارج الأبنية الثقافية العربية، ولكنه يسمح له بالانتظام في بنية جدلياته فلا يبدو "خارجياً"، والديماغوجيا كلمة يونانية، تقوم على استمالة

الجماهير عن طريق الخطابة، وتلفيق الحقائق، وتطلق على أساليب الساسة الذين يكسبون أنصارهم عن طريق إثارة العواطف، وهؤلاء - برأي الأستاذ السهيمي - يستغلون المنابر الدينية والثقافية لابتغاء فضاء سياسي يؤدي إلى تحقيق منافعهم، ولكنه أعطى شاهداً لم يكن فيه موقفاً هو مقالة منشورة في مجلة الفيصل مارس / آذار 2017 تحت عنوان: محنة الكتاب الروس من لينين إلى بوتين للعراقي جودت هوشيار.

ويرى الأستاذ السهيمي أن المقال "عرى الدعاوى البراقة للثورة البلشفية الروسية التي تنكبت لمبادئها، وحيال هذا الموضوع أرى أن الأستاذ السهيمي قد وقع تحت تأثير العراقي هوشيار، ولو أنه علم أن هوشيار كردياً انفصالي يريد دولة كردية عنوة عن تاريخ المنطقة، ولو علم أن السياسة الاستراتيجية في العهدين: السوفييتي الاشتراكي والروسي القيصري كانت ضد الكيانات الجزئية المفترضة لاختلف أمر هوشيار عنده، وإن معظم الكتاب الذين ظهروا بعد انقضاء الحقبة السوفييتية 1991 كانوا بالإجماع مخبري استشراق، وأنهم هيئوا العوالم الطرفية، ونعني الدول التي اتخذت من الحقبة السوفييتية مرجعية لها، هيئوا الأجيال الشابة فيها لقناعات مؤداها: أن لا مندوحة عن النظام الرأسمالي العالمي، وأن لا شكل سياسياً إلا ما ابتدعته، وهو الصيغة البرلمانية، وما كان لهؤلاء أن تقرّ آراؤهم إلا بتحطيم المشروع الذي بدأه لينين وتابعه ستالين وخلفاؤهما.

فالسيد هوشيار يعلم - ولكنه لا يريد أن يعلم - أن مشروع كهربية روسيا السوفييتية البالغة مساحتها خمس اليابسة وسدس الكرة الأرضية، قد تم في عهد ستالين، وخلال عقدين من الزمن، وأريد أن أنوه بأن روسيا أول دولة غزت الفضاء 1960، وقد حلق يوري غاغارين الروسي في الفضاء الكوني بنجاح، وأنوه بأن النظام التعليمي السوفييتي أوصل الأجيال المتلاحقة إلى إبداعات كبرى في الفيزياء و البيولوجيا وعلم النبات والآداب العالمية والفلسفة، وقد تقدم الاتحاد السوفييتي على أوروبا الغربية في العلم الرياضي بنسبة ثلاثة إلى واحد، ونذكر أن الاتحاد السوفييتي كان يفوز بالألعاب الأولمبية على الدوام متقدماً على خصومه الغربيين بفارق كبير، وأن كتاب الرواية والقصص

السوفييت كانوا عالميين، ونذكر منهم جنكيز أيتمانوف ورسول حمزاتوف، وأما الروس فكثيرون، نذكر منهم: شالاخوف الفائز بجائزة نوبل 1960 عن روايته **الدون الهادئ**، وأن الأدب الروائي الذي نتج بعد الحرب العالمية الثانية 1945 كان امتداداً للأدب الروسي الفريد في القرن التاسع عشر، ولكن بموضوعات مختلفة.

وفي **الفصل الثالث "جدليات فلسفية"** يرى الكاتب السهيمي أن الفلسفة أكثر العلوم حظوة في الاهتمام اتفاقاً واختلافاً، ويرى أن موضوعها وسيرتها الأولى **الغيبيات**، ويميز الأستاذ السهيمي بين الاجتهاد البشري وبين مهام الأنبياء الواصلة بين السماء والبشر، ويستشهد بقوله تعالى: {ولا ينبئك مثل خبير} فاطر4"، ولكنه يتهم الفلسفة اتهاماً غريباً هو "مشكلة الفلسفة أنها تتلبس بلبوس كل عصر، وتصنع من نفسها مفسراً أميناً لغيبياته، وسبباً رئيساً لمنجزاته.

كان من الأولى أن يقدم المؤلف مجموعة من المفاهيم الفلسفية التي نتجت عن مراحل مختلفة من تطور الفكر البشري، فالفلسفة - بحسب الموسوعة الروسية - علم القوانين العامة للوجود، وقد صاغ الماديون تعريفهم لها على أنها علم يبحث في أعم القوانين وأشملها في الطبيعة والمجتمع والإنسان، وتبدو المشكلة الرئيسية في الفلسفة هي علاقة الفكر بالوجود، وعلاقة الوعي بالمادة، ولا يخلو أي مذهب فلسفي من طرح حلّ متطور لهذه المشكلة، ولا بد من التويه بأن فيثاغورس (570 - 495 ق.م) هو أول من استخدم مصطلح "فلسفة"، وبعدها أفلاطون (427 - 347 ق.م) علماً خاصاً، وهكذا نشأت الفلسفة في المجتمع العبودي كعلم يضم المحصلة الكلية لمعرفة الإنسان بالعالم الموضوعي نفسه، وهو ما كان طبيعياً إذا ما وضعنا في الاهتمام المستوى المنخفض للمعرفة في المرحلة الأولى من تاريخ الفكر الإنساني، وعندما تطور الإنتاج الاجتماعي وتراكمت المعرفة العلمية تفرعت العلوم من الفلسفة، وقد نشأت الفلسفة كعلم من ضرورة تكوين نظرة عامة للعالم، ولدراسة عناصره وقوانينه العامة، ومن الحاجة إلى منهج عقلي للتفكير، والحاجة إلى المنطق، وهذه الحاجة وضعت علاقة الفكر بالوجود موضع الصدارة من الفلسفة، لأن حلها يتضمن الفلسفة كلياً، كما أنها أساس منهج المعرفة ومنطقها، وقد نجم عن هذا استقطاب

الفلسفة في تيارين هما: المادية والمثالية، وقد فرض صراع المادية والمثالية آثاره على تاريخ الفلسفة ككله، وهو قوة من قواها المحركة الرئيسة، وهذا الصراع يرتبط بالتطور الفكري للمجتمعات البشرية، وبمصالح الطبقات الاقتصادية والقوى السياسية والصياغات الأيديولوجية

ثم يُبدي الأستاذ السهيمي أمنيةً حول التفلسف وإمكانية تقريب الفلسفة من العاملين في فضاء العلوم الإنسانية، فساق رأياً للدكتور نور الدين الساي في ما سمعته من محاضرات في مناسبات متعددة جعلني أتأكد من أمر واحد، وهو أن عدد محبي الفلسفة يكبر يوماً بعد يوم، ولكن معرفتهم بها ضعيفة جداً، بسبب غياب المتخصص الأكاديمي العارف بجوهرها وخبائها، فهي علم لا يؤخذ من الكتب والمكتبات، وإنما يؤخذ من شيوخها مشافهةً ليتعلم فعل التفلسف نفسه، وليس ليتعلم تاريخ الفلسفات، "ويبدو أن الدكتور الساي يرى الفلسفة على أنها من طبيعة (المؤدلة) التي أصابت ظواهر الثقافة، وخاصة الشعر والقصة القصيرة، من خلال انتظاره أكاديمياً يعلم الناس الفلسفة، والحق أن الفلاسفة في التاريخ لم يكونوا أكاديميين، ولا من حملة الشهادات العالية، ولا من أساتذة الجامعات، وإنما درّس بعضهم في بعض الجامعات كمفكر يمنح الجامعة شرفاً كبيراً حين يعتلي منابرها، كما فعل الفيلسوف الألماني هيغل عندما درّس علم اللاهوت في جامعة توبينغن، والأغرب أن الدكتور الساي يرى أن الفلسفة لا تؤخذ من الكتب، "وكأن العلم ما يزال في العصر الوسيط، حيث يجلس العالم، ويتحلق من حوله مريدوه، فهو متكلم وهم مستمعون، مثل هذا الرأي يحتاج إلى بعض من المراجعة الذاتية، فالعالم بعد 1500م - ونعني الحداثة في زمنها البدئي على قاعدتين: الإصلاح الديني والكشف الجغرافي - اختلف جذرياً عن العوالم السابقة، ومن ثمّ صارت الفلسفة مضافةً إلى موضوع إنساني أو طبيعي أو تجريبي، فنقول: الفلسفة الطبيعية NATUNALPHILOSOPHY وهي الفلسفة التي أطلقت على التفسير التأملي للطبيعة، وكانت ممتزجةً بالعلم الطبيعي، وقد أطلق عليها قديماً العلم الفيزيقي، ومن مفرداتها علم الكونيات ونظرية الخلق، والعالم الأصغر، والعالم الأكبر، ونقول أيضاً: الفلسفة الإلهية THEOCLICY، وهي فلسفة تسعى إلى تسوية التناقض الظاهر بين الإيمان بالله ووجود الشر والظلم في

العالم، ونقول: فلسفة التاريخ PHILOSOPHY OF HISTORY، وهي تدرّس معنى التاريخ وقوانينه وآليات تطوّره، وفي القرن الثامن عشر طوّر علماء التنوير فولتير وهيردير ومونتسكيو فلسفة التاريخ، ونادوا بوحدة العملية التاريخية كأساس للتصدي لعلم اللاهوت المسيحي، ونقول: الفلسفة التحليلية ANALYTICAL PHILOSOPHY، وهي من فلسفات العالم الحاضر، وتقوم على تحليل اللغة وهي منتشرة في الولايات المتحدة وبريطانيا، ويسمى الإنكليز الفلسفة اللغوية، وينتقل مركز ثقل الفلسفة هنا من المسائل المعرفية العامة إلى الأشكال العينية لتحليل اللغة، والفلاسفة التحليليون صنفان: الأول هم التجريبيون المناطقة، والثاني هم البراجماتيون الجدد، ونقول: فلسفة الحياة PHILOSOPHY OF LIFE، وهو اتجاه مثالي نشأ في ألمانيا، ومن أهم رجالاته شوبنهاور، وترتبط فلسفة الحياة بتطور علم الأحياء، وعلم التربية، وعلم النفس، وهذه الفلسفة تقوم على تحريف فلسفة التاريخ، ويُعدُّ بيرغسون صاحب نظرية الحدس، وترتبط بين الحياة والبيولوجيا، وأما نيتشه فيرى الحياة قائمة على الإرادة العاطفية، وأخيراً نقول: فلسفة الصين والهند وفارس والفلسفة العربية الإسلامية، وفلسفة الغرب، وفلسفة الشرق، وفلسفة اليونان والرومان، والفلسفة الماركسية، وفي الأحوال كلّها الفلسفة الوجودية، والفلسفة لا تنتظر أستاذاً أكاديمياً، وإنما هي صانعة الأساتذة.

أما الاستاذ السهيمي فيمضي في السياق نفسه، وبلّغته الخاصة التي هي أقرب إلى السهل الممتنع فيقول: لقد ظللتُ - وأجزم أن غيري كثير - أتحين اللحظة التي يوجد فيها الزمان، ويُخرج لنا أنموذجاً للفيلسوف الموضوعي الذي يقرب لنا مفهوم الفلسفة، ذلك أن بعض منظريها وأدعيائها ذهبوا بنا - بناءً على تحولات الفلسفة - إلى اتجاهين: الأول يجعل منها علماً ليس له اشتغال إلا بالغيبيات أو الماورائيات، والثاني اتجاه الفلسفة بعد عصر النهضة.

إن الثقة التي يوليها الأستاذ السهيمي للزمان هي في مكانها، لو أنه اتخذ من التاريخ مصطلحه، فالتاريخ، وليس الزمان، هو مصدر التناول من موقع الإيمان بقدرات العقل البشري على التقدم، وعدم الإيمان بالسكون، ومن موقع الإيمان بأن أيّ تقدم على هذه الأرض، وفي أيّ زمان، يؤسس للتقدم في الأزمنة والأرضين كليهما.

أما أنّ أدعياء الفلسفة قد ذهبوا بنا المذاهب التي عرض لها السهيمي فإنني أرى أن الفلسفة نفسها هي التي ساقطت الأمور إلى ثنائية المثالية والمادية، على أن الفلسفة هي الفكر وتاريخ الفكر، والفلسفة هي الفكر، وقد انقلب على ذاته، لينتج ذاتاً جديدة، وعندما يستشيط العلم التجريبي يبرز تيار في الفلسفة يكبح التجريب، كما حدث تحت عنوان "الفلسفة العملية" كفلسفة نيتشه والوجودية، وهذه الفلسفة تعدّ المعرفة أداة لتحقيق نتائج عملية، فالصدق في الفكرة لا يحدده عكسها للواقع الموضوعي، وإنما تُحددها صحتها العملية، بل فائدتها المرجوة العملية أيضاً، وكلُّ فكرة توصل إلى النجاح هي فكرة صادقة، وهنا تفسّر النسبية الفلسفية وتؤثر نمو المعرفة بين طور زمني "تاريخي" وآخر.

وفي الفصل الرابع "جدليات جيوثقافية" يثير الأستاذ السهيمي قضية على غاية من الأهمية، وهي اجترار المصطلح الجيوسياسي من موقع مصالح الآخر، وهو مصطلح "الخليج" الذي حلّ محل المصطلح التاريخي وهو "الجزيرة العربية"، وفي هذا الفصل يظهر المؤلف وعياً تاريخياً، وآخر سياسياً بشأن الراهن في الجزيرة العربية، وبشأن تاريخها القريب، ويرى أنه قبل اكتشاف حقول البترول على السواحل الغربية والجنوبية للخليج العربي كان مصطلح الجزيرة العربية قائماً عند الإشارة إلى ثقافة وحضارة البقعة الجغرافية الشاسعة المتربعة ما بين الخليج العربي والبحر الأحمر وبحر العرب وتخوم الشام، وكان الحجاز واليمن بمكوناتهما التاريخي والحضاري والثقافي يُعدّان مركزين للجزيرة العربية نظراً إلى كونهما الأعرق حضارة وثقافة، والأشد كثافة سكانية... ومنذ اكتشاف البترول على سواحل الخليج العربي لم يعد لهما مركز الصدارة ثقافياً.

إن إثارة هذه المشكلة مهمة جداً من أكثر من زاوية، فهي تذكّر بحضور الغائب، وأعني "الجزيرة" العربية، فالنقط منذ النصف الأول من القرن العشرين غيّب تاريخ الجزيرة، وأحضر مصطلحاته الخاصة به كرمز للمرحلة ما بعد الكولونيالية، وتأسيس الطور الإمبريالي القائم على استحواد موارد الأرض واستثمارها وإعادة توزيعها على دول الأطراف، وكأنها ملك ذاتي لدول المركز الإمبريالي، وهذا الطور الإمبريالي AMperialisme بدأ مع بدايات القرن

العشرين، ويقوم هذا الطور على مجموعة من المرتكزات، أولها نشوء الاحتكارات بسبب تركيز الموارد في البلدان المصنّعة، والثاني هو اندماج رأس المال المعرفي الاحتكاري مع رأس المال الصناعي ليشكّل رأس المال المالي الذي يقوم بعملية الاحتكار، ومن مفردات الاحتكار امتلاك المصطلح السياسي وتعميمه حتى يؤدي دوره الوظيفي في تغييب العناوين التاريخية في سعي منه لإزاحة الوعي الوطني بتاريخ الأرض والبشر والثقافة، وقد أوكل إلى الإعلام الناطق بالعربية والناقل عن اللغات المركزية، وخاصة الإنجليزية، تعميم المصطلحات عبر التكرار، وعبر كتب مُخبري الاستشراق الذين يُهولون له في السنوات المأجورة كالجزيرة القطرية والحرّة العراقية وقناة الجديد اللبنانية، ومن هذه المصطلحات دول النفط - المجتمع الدولي - العقوبات - الإصلاحات - محور الشر، الدول المارقة

أما **الطور الثالث** في الإمبريالية فهو تصدير رأس المال كشيء مغاير لتصدير السلع، وهنا يفصح صندوق النقد الدولي عن هذا التصدير، وهو أعلى مراحل الاحتكار والمرابي الأكبر الذي ألغى كلّ المرابين في العالم، واختص به لذاته على أن ذاته ممثلة للشركات متعددة الجنسيات، وأما **المرتكز الرابع** للإمبريالية فهو تكون الاحتكارات الدولية على مستويات متعددة: الاقتصادية منها والإعلامية والثقافية، وهنا يختلف موظفو هذا الطور من شعوب العالم الطريف باختلاف المقولات الزائفة كـ "القرية الكونية" وعالم بلا خرائط و"الوفاق الدولي"، وفي سعي منه لتأكيد تغييب تاريخ الأمم العريق، وإعلان بداية التاريخ الجديد للعالم كما أسسه المركز الرأسمالي العالمي، وقد نُظِر لهذا صموئيل هنتنغتون وبريجسنكي وفوكوياما.... وأما **المرتكز الخامس** للإمبريالية فهو التقسيم الإقليمي للعالم بين الدول المركزية (أمريكا - بريطانيا - فرنسا) كمستوى أول، وفي المستوى الثاني الدول التي تليها كاليابان وكوريا الجنوبية وإيطاليا وألمانيا. وهذا التقسيم ينتج عنه تقسيم سياسي بلغات المراكز ثم تنتقل إلى اللغات الوطنية:

وفي **الفصل الخامس "جدليات مفاهيمية"** يرتقي المؤلف فوق ارتقاءاته السابقة فيطرح مشكلة الفلسفة من موقع مختلف عمّا طرحه في الفصل الثالث، إذ طرح مشكلة "الرؤيا" مبتدئاً من مقولة تنسب إلى سقراط اليوناني (470 -

399 ق.م) "تكلّم حتى أراك"، وقد قرأ الأستاذ السهيمي المقولة قراءة جوانية، ففصل بين الصمت والنطق على مستويين: الأول لغوي، وهو التمييز المعجمي فيعتمد على مقاييس اللغة لأحمد ابن فارس الرازي القزويني (329 - 395 هـ.ج)، وهو من أعمدة اللغة والأدب، فيرى أن الكلام هو "نطقٌ مُفهمٌ"، وهذا منافٍ - على رأي الأستاذ السهيمي - لواقع العرب الثقافى، ويضم صوته إلى صوت الأستاذ عبدالله القصيمي صاحب "العرب ظاهرة صوتية"

ومع تقديرنا للرجلين: القصيمي والسهيمي فإن العرب لا يمكن لنا اختزالهم بهذا التوصيف وهو الصوتية، قد تكون الصوتية طاغية في طور من أطوار العرب الثقافية، ولكنها ليست طاغية مطلقة، فكما الشعر المنبري صوتٌ، وكما الخطابة صوتٌ، وكما الأعمال الدرامية صوتٌ، وكما المهاتفات صوتٌ، فإن العرب في العصر الوسيط أنتجوا علوماً عديدة، وعلماء عديدين: كيمياء جابر بن حيان، وفلك الكندي، وطب ابن سينا والبيروني، وفلسفة الفارابي وابن رشد، وفلسفة ابن جني اللغوية، وفلسفة الجرجاني البلاغية... هذه مباحث العقل العربي في طوره الصاعد. وكذلك عند العرب نقاد ولغويون كالأمدي والسكاكي والقزويني والجمحي... هكذا هم العرب أصواتٌ مُفهمة، وأصوات ضوضاء نقاد وفلاسفة، بلغاء وحكماء، فلاسفة وأطباء، ولم يبق السهيمي عنده بل تجاوزه إلى مدارج المعنى وأطياف الدلالات، والثاني هو **المستوى الفكري** ثم يخرج من سطوة أرسطو ليصل إلى أعتاب العصر فيطرح مشتقاً من المقولة الأرسطية: مشكلة الممارسة والتطبيق، ثم يستعجل في استخراج النتيجة فيقول: "وهذا هو الأمر الذي أخفق فيه العرب حينما فتتوا بالكلام وتميجه وتحسينه على حساب الفعل والممارسة والتطبيق من خلال الخطب المنبرية والاجتماعات الرسمية والمنابر الثقافية ووسائل الإعلام والمناسبات الاجتماعية والحفلات الشعبية، "مثل هذا الرأي الانتقادي مهم في ظرف تاريخي يسيطر على العرب فيه الإعلام الخارجي الناطق بالعربية منقولاً عن الآخر المختلف، وما كان له أن يسيطر لو لا أن له مستقبلات من التاريخ والحاضر عند العرب، فكم أنشد الشعراء واقفين في حضرة الخلفاء والولاة والملوك؟ أو كم انتصرت الذائقة العربية للفطرة على العقل! ولعلنا نستحضر المعارك التي دارت حول أبي تمام (188 - 241 هـ) ومقارنته بالبحثري، وكم كان أبو تمام

بعيداً عن البحتري، فالرجل كان صاحب مشروع يمكن اختصاره بعنوان هو "الارتقاء بالشعر"، فقد تأكد أبو تمام من تقدم الفلسفة الغنوصية الشرقية الفارسية والفلسفة البرهانية اليونانية، وتأكد أيضاً من انزياح الثقافة العربية القائمة أساساً على "البيانية"، والبيانية عندما استحالت إلى غرض مقصود لذاته أسهمت في انغلاق البيئة عن غيرها، ولم يكن هناك أي تجربة صاعدة لم تمر بهذا المضيق وهو مدهامة البنية السائدة المهيمنة، ولعل المأمون العباسي (197 - 218هـ) هو رائد التقدم العقلاني من الموقع السياسي السلطوي، وكان مشروعه في نقل الثقافة اليونانية بضرعها الفلسفة والطب اعترافاً من الحاكم بالاحتياج إلى الآخر ولعلمه، واعترافاً بأن السلطة البغدادية تحتاج إلى طرف ثالث غير البيانية العربية والغنوصية الفارسية.

كما أن المؤلف تتبعه إلى مشكلة النهضة العربية والنهضة الغربية في هذا الفصل، فرأى أن التساؤل هو مفتاح الوعي والمعرفة، ورأى أن النهضة الغربية كانت تساؤلية"، وهو في هذا يضع يده على موطن الوجد العربي إذ يحتاج إلى غير طبيب، وللتذكير فإن النهضة الأوروبية استمرت من القرن الحادي عشر إلى القرن السادس عشر كمرحلة أولى، ومن السادس عشر إلى نهاية القرن التاسع عشر كمرحلة ثانية، وقبل أي أزمة ظهرت في الغرب كان الوعي الأوروبي يتمخض عن ولادة مرحلة جديدة متقدمة، وبعد الإجهاز التدريجي على العصر الوسيط ابتعدت الحداثة كنظام لا كمرحلة، وحلت رؤية العالم من زاويتين: الأولى زاوية الفيزياء النيوتينية، والثانية زاوية الفلسفة الهيغلية - الماركسية والبيكونية، ويجمع بين الزاويتين الداروينية.

ولا بد من التعرف إلى فكرة جوهرية وهي أن الأوروبيين قد تخطوا كثيراً قبل أن يتوصلوا إلى النهضة، ومن المراحل التي قطعها الأوروبيون - وهم يؤسسون للنهضة - توسيع الفضاء الاقتصادي الأوروبي في القرن السادس عشر الناتج عن الكشوف الجغرافية، وخاصة اكتشاف القارة الأمريكية

والخطوة الثانية كانت ثورة إيراسموس Erasmus (1731 - 1802م)، وهو فيزيائي إنجليزي وواحد من فلاسفة الطبيعيات، وكان شاعراً، وشعره مضمّن الفكر الطبيعي، وكان مهموماً بالصلة بين أشكال الحياة وبين تقدم الحياة البشرية، ويعد تشالرز داروين (1809 - 1882) حفيداً له صاحب نظرية

الانتخاب الطبيعي، وإيراسموس من مفكري النهضة، ولكن الثورة البيولوجية هي إحدى مقدمات نجاح النهضة الغربية التي شفعت كلَّ نقص.

وإن نقص المرحلة الثالثة نفسها شهدت الاكتشافات البحرية الكبرى التي قام بها الإسبان والبرتغاليون، وهي التي أدت إلى النجاح الاقتصادي. وأما المرحلة الرابعة فكانت نزعة الأنسنة Humanisme وانتشارها بفضل تقدم الطباعة. وأما المرحلة الخامسة فكانت حركة الإصلاح الكنسي.

أما مشروع النهضة العربية فقد قام على فكرة الاستعادة استعادة الأزمنة الكلاسيكية العربية، وذلك لغلبة الجانب التراثي على الجانب الحداثي فيه، بينما كوَّنت النهضة الأوروبية قطيعة معرفية مع العصور القروسطوية، منذ القرن السابع عشر وعلى أيدي كل من (غاليلو، اسبينوزا) قطيعة كبرى في تاريخ الفكر البشري.

وفي الفصل السادس "جدليات كونية" يحمل العنوان مصطلحاً منزاحاً عن أصله، فالكون هو عالم الفضاء والأرض وما بينهما، وقد استخدم كثيراً عبر وسائل الإعلام بمعنى "العالم"، وكل ذلك كشكل من أشكال المبالغات الخاصة بالإعلام الناطق بالعربية، وقد ساد في العربية منذ العقد الأخير من القرن العشرين، على أنه يعني العالم من دون استثناء، ولكنه رغم استعمالاته الإعلامية لم يسُد على المستويات العلمية، وخاصة في مشكلات الفكر والأدب والاقتصاد والتفلسف

وقد أثار المؤلف في هذا الفصل عديداً من القضايا كلُّ منها جدير بإفراد فصلٍ خاص به، ومنها حديثه عن التسامح الزائف في العالمين المسيحي والإسلامي وفيما بينهما، ويسوق شاهداً مهماً، وهو استمرار الحروب -على أشكال مختلفة -الاقتصادية والعسكرية والسياسية، والشعوب تدفع ثمن هذه التنازعات، ويرى أنه في العصور السابقة كانت للمؤسسات الدينية الكلمة العليا، وكانت المؤسسات السلطوية منفذة لتعليماتها، ولذا رأينا كيف أن الحملات الصليبية والفتوحات الإسلامية قامت من منطلقات دينية، أما اليوم فإن المؤسسات السلطوية هي "العلة" وراء الحروب والصراعات والتوترات والكراهية والتعصب في العالم.

هذا الرأي على أهميته و صدقه التاريخي يحتاج إلى قراءة أخرى، فالحروب الصليبية (حروب الفرنجة) (1097 - 1297) اتخذت شكلها الديني كحالة أيديولوجية تُقنع العامة من شعوب المسيحية بأن المسلمين يشكلون خطراً على المسيحية الشرقية أولاً، وعلى الغرب المسيحي ثانياً، هذا الغطاء الأيديولوجي كان يُخفي أطماع الإقطاع الأوروبي في الهيمنة على موارد الشرق، والإقطاع المذكور كان قد استشعر نهوض نقيضه الباكر، وهو الرأسمالية محمية من أيديولوجية غير المسيحية، وهي استعادة الأزمنة اليونانية والرومانية، على أنهما القاعدة التاريخية المعجزة لشعوب أوروبا التي تدعي أنه "من حقها الاستعلاء" على شعوب الشرق بحكم قدراتها العلمية والكشفية

أما الفتوحات الإسلامية منذ انطلاقتها في العهد الراشدي إلى آخر مرحلة من عهد المعتصم بن هارون الرشيد (818 - 227هـ) فقد كانت تحت غطاء أيديولوجي أيضاً، وهو نشر الإسلام لشعوب لم تتح لها فرصة اعتناق الإسلام بسبب بعدها الجغرافي، ولكن هذا الغطاء لا ينفي أن التوسع الجغرافي كان يؤدي بالضرورة إلى تراكم الثروة الذي يؤدي بدوره إلى قوة اقتصادية تسمح بتأسيس جيش يقوى على جلب الموارد من خارج الحدود كلما احتاجت دولة الخلافة إلى ذلك.

ونتوقف عند شاهد واحد هو دخول الجيوش الأموية 711 إلى النصف الجنوبي من إسبانيا، وقد أُطلق عليها "الأندلس"، وتعني إسبانيا المسلمة، وقد ظل العرب في إسبانيا حتى 1492 أي ثمانية قرون، ورغم ذلك ظلت إسبانيا كما نعهدها اليوم تدين بالمطلق المسيحية.

والفكرة الثالثة التي أثارها الأستاذ السهيمي في الفصل السادس هي اكتشاف القارة الأمريكية 1492، ويرى أن القارة مكتشفة قبل ذلك، ويسوق شاهداً عربياً حينه حسين عمران، يقول فيه: "معدرة كولومبوس لست أول من اكتشف أمريكا، والفكرة للمؤلفة هاينكة زودهوف، ولم تكن أمريكا تنتظر بكراً غير مكتشفة، بل عرفت شواطئها قبلك بعضاً من بحارة العالم القديم"، ويرى بعض العرب أن الفينيقيين سبقوا كولومبوس إلى اكتشافه... إن

هذه الادعاء تشبه الادعاء التاريخية التي تقول: إن ابن خلدون هو مؤسس علم الاجتماع، فالفينيقيون الذين يُنسب إليهم اكتشاف أميركا حضارة سامية نشأت في شرق المتوسط وغرب الهلال الخصيب قبل 2500 عام، وتشمل سواحل الشام وفلسطين، ولا بدّ من الإقرار بأن اكتشاف أميركا ما كان له أن يكون إلا في الزمن الذي اكتشفت فيه، وهو نهاية القرن الخامس عشر وبعد اكتشاف الآلة البخارية، وذلك للتمكن من عبور الأطلسي الذي لا يتم بورق البردي كما ادّعى بعض الباحثين العرب، ولا بالمراكب الشراعية، من ناحية أخرى لا يوجد مشروع الكشوف الجغرافية إلا بعد تهيكّل البرجوازية الأوروبية وبحثها المحموم عن موارد الأرض أينما كانت.

وأما بخصوص ابن خلدون (1333 - 1406) فلم يكن بقادر على تأسيس علم الاجتماع كما قدّمه أوغيست كونت (1798 - 1858) بوصفه علماً وضعياً تجريبياً، وما كان لعلم الاجتماع أن يتأسس إلا بعد تأسيس العلوم الوصفية، وخاصة الفيزياء والعلوم الطبيعية والنشور الباكر للداروينية، وتأسيس المبحث الفيلولوجي للغات.

ومن المؤكد أن مؤسس علم الاجتماع أوغيست كونت Auguste Conte ينتمي إلى السلالة الفكرية للتراث الأوروبي الذي مهّد له، وكان سائداً في أوروبا، ومن اللافت أن الطليان ادّعوا أن مؤسس علم الاجتماع هو فيلسوفهم إناتيستا فيكو (1668 - 1744م) على أنه هو الذي أسس علم الاجتماع، ولكن ظهور أوغيست كونت في زمن كانت الفلسفة المثالية قد أفلست وغدت الدراسة الميدانية الاستقرائية مطلب الفلسفة الأول، وكان كونت قد أطلق على فلسفته "الوضعية" Philosophiepositive، وقد شرح المراحل التي تطور فيها الفكر البشري وانتهى إلى الاعتقاد: أن أوان دراسة المجتمع دراسة موضوعية وضع الأساس الثاني، وهو: مراحل تطور الفكر البشري، حيث وجدها ثلاثاً هي: المرحلة الدينية والمرحلة الميثافيزيقية والمرحلة الوضعية. وخلاصة الأمر هو أن ابن خلدون أسس علم العمران، وأما أوغيست كونت فقد أسس علم الاجتماع.

وخلاصة الأمر ثانيةً فإن الكتاب الصادر عن دار الانتشار العربي - بيروت 2019 بعنوان "جدليات فكرية في المشهد الثقافي العربي" لمؤلفه الأستاذ محسن علي السهيمي محاولةٌ جادة في دراسة الفكر السوسيوثقافي والسوسيوبوليتيكي المعاصرين، وهي محاولة مهمة من خلال طرح الأسئلة الإشكالية ومن خلال الإبقاء على البنية المفتوحة على احتمالات الإجابات الاجتهادية، وعلى الرغم من أشياء عديدة كنت على خلاف فيها مع المؤلف، فإنني غبظتُه غير مرة، وفي غير موضع وفي عديد من أفكاره، راجياً له النجاح واطراد التقدم وامتعة الارتقاء.

نافذة أخيرة

جدلية العلاقة بين الأدب والسياسة

الأرقم الزعبي*

يحلو للبعض حصر وظيفة الأدب في تنمية الحسّ الجمالي من خلال أجناس العمل الأدبي (الشعر، الرواية أو النصّ النثري)، حيث الغنى بالفزل والوصف والحنين والحب.. بعيداً عن القضايا المباشرة للمجتمع..

بالمقابل يحلو عند بعض من يشتغل في السياسة الابتعاد عن الأدب واستثمار النصّ الأدبي في الترويج للفعل السياسي وخلق حالة خصام وتنافر بين الأدب والسياسة أو محاولة سيطرة أحدهما على الآخر.. الراصد يجد تعذر انفصال الأدب عن السياسة حتى لو حاولت السياسة الفصل بين الأدب والأديب؛ لأن في أعماله يتداخل ما هو أدبي مع ما هو سياسي أحياناً كثيرة من دون الإعلان الواضح والصريح عن موقف سياسي مُواتٍ لاتجاه سياسي بعينه، هذا ما أجاد الفيلسوف الفرنسي "جاك رانسيير" (1) في إثباته في كتاب "سياسة الأدب" (2) محاولاً إخضاع أو تفسير محتوى النصّ الأدبي مثقلاً بالموقف السياسي لكاتب النصّ، كذلك ذهب رائد الوجودية "جان بول ساتر" (3) والناقد "تيري إيفلتون" (4)، حيث انتهى الجواب إلى وجود علاقة وتشابك بين الأدب والسياسة؛ لأن مهمة الأديب تناول الواقع وليس المطلق.. وقد تخلص بعض الأدباء من الفكرة النرجسية "تأديب السياسي" وتخلص السياسي في داء حب السيطرة والتحكم وتطبيق "تسييس الأديب" من خلال ترويضه إغراءً أو قمعاً.. وجعله يكتب أدباً

* مدير التحرير.

تبشيراً تردادياً يؤكد قدسية الشعارات حتى لو كانت غير مقدسة، مما يعزز موقف السياسي ويجعل السلطة السياسية مهيمنة أكثر، فتوظف النصر الأدبي وتستثمر تأثير الأديب في المجتمع، فهو شخصية يقاس على مواقفها وأفكارها، لأنها ذات تأثير كبير في تشكيل الرأي العام، وتؤكد على قدسيته حتى لو كانت غير مقدسة؛ مما يعزز موقف السياسة ويجعل السلطة السياسية مستثمرة لهذا الإنتاج الأدبي، ويتيح لها الاستمرار وترسيخ هيمنتها أكثر وترويج برامجها من خلال توطين النص الأدبي واستثمار الشخصيات الأدبية الكبيرة التي غالباً ما يكون لها دور كبير في تشكيل الرأي العام، ويقاس على مواقفها ورأيها عند تشكيل ذلك الرأي..

هنا قد نطرح سؤالاً لا نهدف الإجابة الشمولية عنه، وهو متى يجب أن يلتقي الأدب والسياسة أو ما ضرورات هذا الالتقاء؟.

كما في الأدب هناك مبدعون مجردون، هناك في السياسة من هم أيضاً مبدعون مجردون قادوا المجتمع نحو شط الأمان.. حيث البرامج السياسية لمقاومة التخلف والمحتمل وعوامل تهديد الأمة، ومحاربة الفقر والفساد والدفاع عن تاريخ الأمة ووجودها.. هذه المفردات وغيرها نعتقد أن ما من وطني إلا يحملها في وجدانه وتفكيره ولا شعوره.. وهي ملاصقة لهوية المواطن لصوق الحمض النووي الخاص بكل إنسان.. هي ليست أفكاراً قسرية، وبرامج تطبق من دون إرادة ومشاركة صادقة..

هنا الأدب والأدباء عليهم الانغماس وإنتاج أدب مقاوم يدافع عن خيارات الدولة في الوجود الذي هو محصلة خيارات كل مواطن، وخلق عوامل تعزيز أنواع المقاومة لتحقيقها من خلال تضمين العمل الأدبي عوامل التوعية والتعبئة الفكرية بالشكل الذي يرتقي بالنص الأدبي ويبقي عليه رسالة وطنية بقلب جمالي.. وهنا على السياسي أيضاً أن لا ينظر إلى الأدب نظرة دونية، لأنه يحمل القوة الروحية للتغيير وخلق الأفكار.. وعليه أيضاً أن يعدل من الرسائل الجافة ويلتقي مع الأديب.. فخير المجتمع يقتضي التصالح بين السياسي والأديب؛ لأن الانفصال والطلاق أو الصدام بينهما يخلق عالمين متناقضين، فالسياسي عندما يبتعد عن الأدب يخلق عالماً لا روح فيه، والأديب عندما يهجر السياسة يعيش في

عالم المطلق يرسم لوحات جميلة، ولكن لا تُصوّر الواقع، ولا تلامس روح المتلقي وآماله..

لذا فإننا نرى أن التلاقي بين السياسي والأدبي يجسّد فعلاً إيجابياً وضرورة للدفاع عن الوطن، ولاسيما زمن الأزمات، كما نعيش اليوم.. فالتلاقي لم يعد خياراً بل هو واجبٌ وطني يجب تعزيز عوامل وجوده من خلال إنتاج النصوص والدراسات التي تعزز فكرة المقاومة الخيرة والمفيدة للدفاع عن كرامتنا الوطنية ورسالتنا الإنسانية.

الهوامش:

- 1 - "جاك رانسيير"، كاتب، مشاغب ومعترض.
- 2 - "سياسة الأدب"، ترجمة د. رضوان ظاظا، المنظمة العربية للترجمة، توزيع مركز دراسات الوحدة العربية، وهو "كتاب يكشف الاستبداد الشمولي للغرب".
- 3 - "جان بول سارتر": فيلسوف وأديب دمج بين الفلسفة والحياة.. من مؤلفاته المترجمة: "كراهية الديمقراطية" ترجمة: أحمد حسان، دار التنوير، "الكلمة الخرساء" ترجمة: سلمان حرفوش، "المعلم الجاهل" ترجمة: عز الدين الخطابي.
- 4 - تيري إيفلتون، ناقد وصاحب نظرية ارتباط "النظرية الأدبية بالقناعات السياسية".